الرسـول
صلى الله عليه وسلم
والسيـف

دراسـة للنظريـة القرآنيـة فـى الجهـاد والحرب وتطبيقاتها فى الـدعوة المحمديـة

صلاح أبو السعود

دبلوم الدراسات العليا فى الشريعة الإسلامية
وماجستير فى القانون . جامعة عين شمس

مكتبة النافذة

الرســـــول ﷺ والسيـــــف

صلاح أبو السعود

الطبعة الأولى / ٢٠٠٦

رقم الإيداع ٢٣١٢٨ / ٢٠٠٥

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى - الثلاثينى - فيصل

تليفون وفاكس: ٧٢٤١٨٠٢

Email : alnafezah@hotmail.com

الرسول صلى الله عليه وسلم والسيف

دراسة للنظرية القرآنية فى الجهاد
والحرب وتطبيقاتها فى الدعوة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد الله الذى هدانا إلى دين الإسلام، وأضاء قلوبنا بنور الإيمان، وأعاق لنا الطريق إلى عذاب النار، ومهد لنا الطريق إلى نعيم الجنان، والصلاة والسلام على النبى الأمين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

يعيش عالمنا الإسلامى واقع مرير، فى ظل حملة عشواء يشنها الغرب - بتحريض من إسرائيل - على الإسلام، تلك الحملة التى ألبست الإسلام ثوباً لا يليق به؛ فجردته من السماحة والوسطية، ووصمته بالتطرف والغلو، وكان من نتائج هذه الحملة إعلان الولايات المتحدة الأمريكية ما أسمته بالحرب على الإرهاب، تلك الحرب التى انتهت إلى احتلال العراق بحجة امتلاكها لأسلحة الدمار الشامل، تلك الأسلحة التى ستستخدمها العراق فى تدمير الكرة الأرضية!!

وفى النهاية لم يُعثر فى العراق إلا على بعض البارود الذى لا يصلح إلا لعمل «فرقعة» فى الهواء، ويبدو أن صوت هذه «الفرقعة» كان يقلق الجارة - غير الشرعية - اسرائيل حامية مصالح أمريكا فى الشرق الأوسط.

ويبدو أن أمريكا لا تضيع وقتا فما لبث أن أتجهت نظرتها العدائية إلى إيران - وبتحريض من إسرائيل - فاتهمتها بنفس التهمة التى أُلصقت بالعراق، الاتجاه لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، وهى تعمل جاهدة - حتى كتابة هذه السطور - حتى يصل الملف الإيرانى إلى مجلس الأمن، الجهاز الرئيسى فى منظمة الولايات المتحدة، الشهيرة بمنظمة الأمم المتحدة، وذلك لإضفاء شرعية شمطاء وعرجاء فى حالة شن هجوم عسكرى على إيران، متبعة فى ذلك نفس السبيل الذى اتبعته فى حربها على العراق.

كل ذلك لم يشبع الغرور والطمع الأمريكيين، فهى تريد أن تفرض هيمنتها العسكرية على منطقة الشرق الأوسط ككل، لكن هناك الكثير من الدول التى لا تسعى لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، أو إمكانياتها لا تسمح بشراء التكنولوجيا التى تمكنها من إمتلاك هذه الأسلحة، فماذا تفعل أمريكا حيال هذه الدول؟ فلابد من إيجاد ذريعة للتدخل فى شئون هذه الدول، لم تغلب الإدارة الأمريكية فى خلق هذه الذريعة، فأعلنت ما أسمته بتوطيد دعائم الديمقراطية فى منطقة الشرق الأوسط، وكأن العالم بأسره يعيش أزهى عصور الديمقراطية ما عدا هذه المنطقة!!

نقول لأمريكا: ما هى الدولة التى استخدمت السلاح الذرى، ودمرت به الأبرياء العزّل فى هيروشيما ونجازاكى؟ فمن الذى يستحق أن يُنزع منه أسلحة الدمار الشامل، هل من يساورنا الشك فى امتلاكه أم من استخدمه فعلاً بطريقة همجية؟ وهل من الديمقراطية أن يُعامل مسلمى أمريكا هذه المعاملة المهينة إبان أحداث الحادى عشر من سبتمبر؟ وهل من الديمقراطية أن يكون نظام التصويت فى مجلس الأمن التابع لمنظمة الأمم المتحدة، تلك المنظمة التى أنشأتها أمريكا خصيصاً لتحقيق مصالحها، فهل من الديمقراطية أن يكون نظام التصويت بهذه الصورة؟ نقول لأمريكا انتبهى؛ فبيتك من زجاج.

وفى غمار تلك الأحداث الأليمة يطفو على السطح حادث أشد ألماً، وأعنى به حادثة تدنيس المصحف الشريف فى سجن جوانتانمو بأيدى الجنود الأمريكيين النجسة، دنسوه بأفظع الصور التى لا يحتملها وجدان أى مسلم، وعندما أعترض أحد السجناء المسلمين قالوا له: إن كتابكم يحض على القتل والإرهاب.

لنتساءل الآن: من المسئول عن هذا الفهم الخاطئ لأحكام الإسلام؟ تلك الأحكام التى تدعو إلى السماحة والسلم والعفو، فهل هم وحدهم المسؤلون لأنهم لا يعلمون عن ديننا إلا كل خير، ولكنهم مع ذلك يلصقون به التهم؟ أم نحن المسؤلون لأننا لم نوضح لهم الصورة الحقيقية للإسلام ففهموه هم على طريقتهم؟

فى حقيقة الأمر، نحن نشاطرهم المسئولية وهذا ليس دفاعاً عنهم ولكنه

أعتراف بحق، لماذا؟ لأن علمـاءنا تمسكوا بكتب التراث القديمة من تفـسير وتاريخ، وأحاطوها بهالة من القدسية، وأثّمـوا كل من حاول النيل منها، وقد نسوا أو تناسوا أن أصحاب هذه الكتب إنما هم بشر، يصيبون ويخطئون، ويوفقون ويخفقون، وهذا ليس عيبـاً، وإنما هى طبيعة العقل البشـرى؛ لا يمكن أن يأتى بالصواب دائماً أبداً، فلماذا لا نقرأ ونحلل؛ فنعطى أصحاب كتب التراث حقهم، نشكرهم جزيل الشكر حينما يجلون لنا ما غمض، وننتقدهم إذا وجدنا منهم خطئـا، أم أن عقول هؤلاء - ونجل لهم كل تقدير - قد فاقت عقول كل البشر؟!

إن الباحث فى أمـهات الكتب الإسلاميـة المتأنى فى قراءتهـا، ليجد فيـها الدرر النفيسـة التى لا ينكر قيمتها أحـد، وليجد بين هذه النفائس الأحجار غـير الكريمة التى وأدت كل ما هو جميل فى شريعتنا الغـراء، مما كان له العامل الأكبر فى تشويه صورة الإسـلام مما ساعـد أعداءنا على النيل مـنه، والتركيـز على هذه التـشوهات المزعومـة، وإبرازها من خلال إعـلام قوى، فوقـفنا أمامه مكتـوفى الأيدى لا يكاد يُسمع أنيننا من شدة غوغائه.

ولأضرب لـكم بعض الأمثلة للأحـجار غـير الكريمـة التى جاءت بـها أمـهات الكتب:

قال معظم المفسـرين بنسخ الآيات التى قررت مبادئ حدية العقيـدة، وجدال غير المسلمين بالتى هى أحسن، والتى قررت أن الحـرب فى الإسلام دفاعية، وتلك التى تدعو إلى العفو، كل هذه المبـادئ القرآنية نسخوها بآيات القتال، فـأين إذن سماحة الإسلام بعد طمس هذه المبادئ السمحة؟!

أما كُتب المؤرخين فذكرت - من ضمـن ما ذكرت - أن الرسول ﷺ كان يهاجم قوافل قريش بين الحين والحين، وأنه - ﷺ - قام بعمل مـذبحة جماعية ليهود بنى قريظة بعد أن استسلمـوا له ونزلوا على حكمه، فهل يعقل أن يأتى رسول - ﷺ -

صاحب الخلق العظيم - هذه الفعلة؟! وذكرت الكتب غير هذا الكثير والكثير.

والأمثلة السابقة سواء كانت فعلاً كتابات فقهائنا الأجلاء، أم كانت كتابات دُست على كتبهم من قبل النساخ، حيث أن الإسلام لم يسلم من الأعداء منذ ظهوره إلى وقتنا هذا، نقول سواء كانت هذه الكتابات لفقهائنا أو مدسوسة، ففي الحالين قد جعلت الغرب ينتهون إلى نتيجة مؤداها أن إسلامنا ما هو إلا دين يحض على القتال وعلى الإرهاب، وأن محمداً - ﷺ - لم ينشر دعوته إلا تحت حد السيف، فأجبر الجزيرة العربية وما حولها على أعتناق هذا الدين، وأنه لولا السيف لما انتشر الإسلام، وما ظهر إلى حيز الوجود.

لذا كان هذا الكتاب للرد على ادعاءات الغرب بأن الإسلام دين يحض على القتال والإرهاب، وأنه لم ينشر إلا تحت حد السيف، وهذا الرد إنما جاء عن طريق القراءة الجديدة لكتب التراث القديمة، ودحض الكتابات المغلوطة والمدسوسة، وإظهار ما خفى بين السطور، وذلك لتظهر صورة الإسلام الوضيئة الصافية خالية من أية تشوهات مصطنعة.

وفى سبيلنا لتحقيق هذه الغاية بدأت هذا الكتاب بعرض النظرية القرآنية فى الجهاد والحرب فى باب أول، وتناولت فى الفصل الأول منه المبادئ القرآنية التى تقوم عليها الدعوة، وفى الفصل الثانى عرضت للنظرية القرآنية فى الحرب مع إشارة للتنظيم الوضعى لهذه المسألة، والقاء الضوء على الحرب فى التوراة.

أما باقى أجزاء الكتاب فعرضت فيها لتطبيقات الرسول - ﷺ - لهذه النظرية، حيث يتضح لنا من العرض أن محمداً - ﷺ - لم يخالف النظرية القرآنية، سواء فيما يخص الدعوة، أو فيما يخص مسألة الحرب، فجاءت تطبيقاته - ﷺ - تقريراً لها، وإرساءاً لمبادئها.

لذا عرضت فى الباب الثانى لسرايا الرسول - ﷺ - وغزواته كل فى فصل

مستقل، حيث يتضح لنا من هذين الفصلين أن الرسول - ﷺ - لم يخرج عن الإطار الذى رسمته النظرية القرآنية فى الحرب، وخاصة أن الحرب إنما هى حرب دفاعية، وعرضت فى فصل ثالث لإشكالية حروب الردة لإزالة التناقض بينها وبين مبدأ حدية العقيدة.

أما الباب الثالث والأخير فعرضت فيه للإستراتيجية التى اتبعها محمد - ﷺ - لنشر الدعوة الإسلامية فى الآفاق، وأقصد بها معاهداته -ﷺ -، وكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكل فى فصل مستقل.

وأخيراً أود أن أنبه إلى أن هذا الكتاب لا يهاجم أشخاص وإنما يهاجم آراء وأفكار جلبت للإسلام الضرر أكثر ما جلبت له من النفع.

والله ولى التوفيق

صلاح أبو السعود

Email: salahabosaud @yahoo. com

القاهرة - 16 جماد الأول 1426 هـ

23 يونيو 2005 م

الباب الأول
النظرية القرآنية فى الجهاد والحرب

شُرع الجهاد فى الإسلام - ونعنى القرآن الكريم - لتحقيق غايتين، لا تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بهما، الأولى: تتمثل فى الدعوة المستمرة لهذا الدين، وبيان ما به من سمو ورفعة، جعلته يستحق أن يكون خاتم الشرائع السماوية، أما الغاية الثانية: فهى الدفاع عن هذه الأمة، ضد أى عداون يهدد أمنها وسلامتها.

والغاية الأولى، وهى الدعوة لا تتحقق إلا بالكلمة، سواء كانت هذه الكلمة مقروءة أو مسموعة، ويطلق الفقهاء على هذا النوع من الجهاد «الجهاد باللسان».

أما الغاية الثانية، وهى رد أى عداون يقع على هذه الأمة، والفرض هنا أن هذا العداون مسلح، فالغاية هنا لا تتحقق إلا عن طريق شن حرب دفاعية حتى تعود الأمور إلى نصابها الطبيعى، ويطلق الفقهاء على هذا النوع من الجهاد «الجهاد بالسيف».

وتأسيساً على هذا، سنقسم دراستنا فى هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول: المبادئ التى تقوم عليها الدعوة فى القرآن.

الفصل الثانى: النظرية القرآنية فى الحرب.

الفصل الأول
المبادئ التى تقوم عليها الدعوة فى القرآن

ترتكز الدعوة إلى الإسلام منذ بعثة محمد - ﷺ - إلى يومنا هذا على مبدأين أساسيين، الأول: حرية العقيدة، فكل فرد حر فى أن يعتنق الدين الذى يعتقد أنه الحق، فالقرآن لم يقل بإجبار البشر على أعتناق هذا الدين، فالإسلام ليس فى حاجة إلى من يجبرون على أعتناقه، فهؤلاء ضررهم أكبر من نفعهم، بل قد لا يكون لهم أى نفع يذكر.

أما المبدأ الثانى: فهو المجادلة بالتى هى أحسن، فإنك لا يمكن أن تقنع أى شخص - ولو بمسلمة من المسلمات - عن طريق الغلظة فى القول، فمثل هذا لن يأتى إلا بأثر عكسى، مما يكون سبباً فى مقت هذا الدين والنفرة منه بدلاً من الإقبال عليه وإعتناقه. وإليك التفصيل بعد هذا الإجمال.

المبدأ الأول: حرية العقيدة:

أكد القرآن الكريم هذا المبدأ فى أكثر من موضع، ويظهر واضحاً جلياً فى قوله تعالى: - ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ - [1].

يقول السيوطى فى سبب نزول هذه الآية [2]:

كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة (أى لا يعيش لها ولد) فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا لا ندع أبناءنا فأنزل الله - ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ -.

(1) البقرة: 256.

(2) لباب النقول فى أسباب النزل أسباب نزول الآية 256 من سورة البقرة

وعن ابن عباس قال: نزلت لا إكره فى الدين فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً، فقال للنبى - ﷺ - ألا استكرههما فإنهما أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله الآية.

ويقول ابن كثير [1]: - ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ - أى لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار وإن كان حكمها عاماً.

ويعرض القرطبى[2] للآراء التى قيلت فى معنى الآية فنعرضها مع التعليق عليها:

الرأى الأول: قيل إنها منسوخة، لأن النبى - ﷺ - قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام، قاله ابن موسى، قال: نسختها - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ - [3] وروى هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين.

الرأى الثانى: ليست بمنسوخة، وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية، والذين يكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهم - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ - ويحتج هذا الرأى بما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمى أيتها العجوز تسلمى، إن الله بعث محمداً بالحق، قالت: أنا عجوز كبيرة، والموت إلى قريب! فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا: - ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ -.

---

(1) تفسير القرآن العظيم. (تفسير ابن كثير) تفسير الآية 256 من سورة البقرة

(2) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى)

(3) التوبة 73

الرأى الثـالث: وهو أنها وردت فى السبى متى كـانوا من أهل الكتاب لم يجبروا إذا كانوا كـباراً، وإن كانوا مجـوساً صغاراً أو كـباراً أو وثنيين فإنهم يجـبرون على الإسلام.

الرأى الرابع: قيل معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبراً مكرهاً.

وللرد على الآراء السابقة وتفنيـدها يكون حرى بنا أن نرد على دعاوى النسخ ثم على دعاوى التخصيص.

الرد على دعاوى النسخ*:

يرى فريق من المفسرين - طبقاً للرأى الأول - أن قول الله تعالى: - **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** - قد لحقه النسخ، وبعضهم استدل على وجود ذلك النسخ بقول النبى -ﷺ-: «أمرت أن أقاتل الناس حـتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عـصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

والبعض الآخر يقول إنما نُسخت بآيات القـتال، كقوله تعالى: - **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾** -.

ونحن وإن كنا لا نقول بالنسخ - حيث إن آيات الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يجرى عليها النسخ - إلا أننا سنرد على هذا القول، فـعلى فرض وجود النسخ كما تصوره بعض فقهاء المسلمـين، فهم إنما يلجأون إليه حينما تستشـعر عقولهم وجود تعارض بين النصـوص المتعاقـبة، فيـتعجلون - وبلا تمحـيص - ويقولون إن النص اللاحق قد نسخ النص السـابق، وحسبنا هنا، وقبل أن نخـوض فى الموضوع الذى نحن بصدده - قول الله سبحانه وتعالى: - **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾** - [1] وهذه الآية الكريمة تؤكد، وبلا مراء، أن

(*) النسخ فى اصطلاح الاصوليين هو: «رفع حكم شرعى بمثله مع تراخيه عنه» وقد ذكر الآمدى أن المختار فى تعريفه أن يقال: النسخ عبارة عن خطاب الشارع المانع من استمرار ما ثبت من حكم خطاب شرعى سابق. وأما الناسخ فقد يطلق على الله تعالى، وقد يطلق على الآية أنها ناسخة. وأما المنسوخ فيقصد به الفقهاء الحكم المرتفع. أنظر د/ محمد فرحات - أصول الفقه - القاهرة 1998 - ص 162، 163.

(1) النساء 82.

التعارض بين نصوص القرآن إنما يثار فى بعض العـقول، فهو تعارض صورى يزول بمجرد إعمال الفكر، وهنا يكون لا مجال للقـول بالنسخ من أساسه، يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة [1]:

أمرهم الله تعـالى بتدبير القـرآن ونهاهم عن الإعـراض عنه، وعن تفهم معـانيه المحكمة، وألفاظة البليغة ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه، ولا اضطراب ولا تعارض لأنه تنزيل من حكيم حـميد، فـهو حق من حق، ولهذا قـال تعالى: - ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ - [2] ثم قال: - ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنـدِ غَيْرِ الـــلَّهِ﴾ - أى لو كان مفتعـلاً مختلفاً كما يقوله من جهلة المشـركين والمنافقين فى بواطنهم لوجدوا فيـه اختلافًا أى اضطراباً وتضاداً كثيراً، وهـذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله.

كما قال تعـالى مخبراً عن الراسخين فى العلم حـيث قال جل شأنه: - ﴿هُوَ الَّذِى أَنـــزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيـلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيـلَهُ إِلاَّ الـــلَّهُ وَالـــرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنـــدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾-[3] وقولهم - ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ - أى محكمه ومتشابهه حق، فلهـذا ردوا المتشابه إلـى المحكم فاهتـدوا، والذين فى قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغـووا، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين، ثم يذكـر ابن كثير رواية للأمام أحـمد بسنده عن عمـرو بن شعيب عن أبـيه عن جده قـال: لقد جلست أنا وأخى مجلساً ما أحب أن لى به حمر النعم. أقـبلت أنا وأخى وإذا مشيخة أصحاب رسول الله - ﷺ - على باب من أبوابه فكـرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حـجزة إذا ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله - ﷺ - مغضباً حتى أحمر وجهـه يرميهم بالتراب ويقول: «مهلاً يا قوم بهذا أهلكت الأمم

(1) تفسير القرآن العظيم.
(2) محمد: 24.
(3) آل عمران. 7

من قبلكم باختـلافهم على أنبيائهـم وضربهم الكتب بعضها بـبعض. إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا إنما نزل يصدق بعضه بعـضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه» أ. هـ.

وطبقاً للمنطق السابق، نجد أن الله سبحـانه وتعالى قد أخبرنا أنه لا تعارض بين أيات القرآن، فهو حق من حق، فلماذا يثير الفقهاء إذن مظنة هذا التعارض ثم يردوه بالنسخ؟! فى الحقيـقة نجد أن بعض الفقهاء قـد أولوا بعض الآيات الناسخة - على حسب اعتقادهم - تأويلاً معيناً، وهذا الـتأويل هو الذى أوقعهم فى مأزق التعارض الصورى، ولـم يكن أمامهم من سبيل إلى الخروج من هذا المأزق إلا القول بالنسخ، هذا النسخ الذى توصلوا إليه بتأويل قول الله سبحانه وتعالى: - **﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾** - [1] ولن نخوض فى عرض آراء الفقهاء فى تفسير هـذه الآية الكريمة، ولكن أقول - ومن وجهة نظرى - أن أقصى مـا يتحمله النص السابق أن المقصود بالنسخ هنا هو النسخ الذى لحق الشـرائع السماوية السابقة بنزول القـرآن الكريـم، أو هى الآيات التى لم تكتب فى المـصـحف الشـريف من أساسه، فمحيت حكماً وتلاوة، أما القرآن الذى بين أيدينا الآن فليس به ناسخ ومنسوخ.

نعود إلى مبدأ حرية العقـيدة إعمالاً لقوله تعالى: - **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** - وجدنا أن الفـقهاء قالوا بالنسخ لوجـود مظنة التعارض بين النصوص، وقـد رفضنا القول بوجود النسخ - على المعنى الذى فهمه بعض فقهاء المسلمين - والآن لنبحث فى مدى وجود هذا التعارض.

يقول الفقهاء أنها منسوخة بآيات القتال، وإستدلوا بقوله تعالى: - **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾** - [2] نقول بداية أنه لا تعارض بين الآية الكريمة ومبدأ حرية العـقيدة، فـالجهاد كـما يكون بالسـيف فهو أيضـاً باللسان، فـمعنى الآية أن نجاهدهم بدعـوتهم إلى الإسلام حتى يعم نـوره الأرض، وهل فى هذا تعارض بين مبدأ حرية العقيدة الذى ينفى الإكراه؟! الإجابه المنطقية أنه لا تعارض.

(1) البقرة: 106.

(2) التوبة 73

ولو كان جهاد هؤلاء بالسيف، بمعنى حربهم، فكذلك لا يوجد تعارض؛ إذ أن الحرب فى الإسلام - كما سنرى - هى حرب دفاعية بحتة، لا تهدف إلا لدرء الاعتداء الذى يقع على أمة الإسلام، وليس من أهدافها أبداً إجبار أحد على الاعتقاد أو الإيمان برسالة محمد - ﷺ -، وحسبنا هنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (1) إذن لا يوجد نص يعارض نص، وحاشا أن يوجد مثل هذا فى كتاب الله عز وجل.

أما عن الاستدلال بحديث رسول الله - ﷺ - الذى قال فيه: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. . .» فبداية نقول أنه فى حالة التعارض بين الحديث الشريف والنص القرآنى، فإننا نهمل الحديث لظنية ثبوته، ونأخذ بالنص القرآنى القطعى الثبوت. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فالناس المقصودين بالحديث هم عرب الجزيرة العربية الذين يقيمون بدولة الإسلام، ولم يقصد كافة الناس، فمن استعمالات اللغة العربية أن تكون أداة التعريف «أل» للعهد، أى لما هو معهود للقارئ أو السامع، فلا يعنى إذن استغراق الجنس الإنسانى.

كذلك يجب التفرقة بين الدخول فى الدين الإسلامى عقيدة وإيماناً وبين الخضوع للنظام القانونى الإسلامى المطبق فى دولة الإسلام، فمن المنطقى أنه لا يقبل من مواطن عدم الخضوع للنظام القانونى الذى يعيش فى كنفه (إعمالاً لمبدأ إقليمية القانون)، وإكراهه على هذا الخضوع ليس إكراهاً فى الدين عقيدة وإيماناً (2) وقد فرق القرآن الكريم بين الوضعين، يقول جل شأنه: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (3) وعلى هذا لا يوجد تعارض بين الحديث الشريف والمبدأ القرآنى الذى قررته الآية الكريمة.

ننتهى مما سبق إلى أن مبدأ حرية العقيدة باق لم يلحقه أى نسخ، ولننتقل الآن إلى إشكالية أخرى.

---

(1) البقرة: 190.

(2) انظر - الدكتور/ محمد بدر - الديمقراطية الأثينية - وسارة القانون فى التورة والإنجيل والقرآن - القاهرة - 995 - ص 380 هامش.

(3) الحجرات 14

الرد على دعاوى التخصيص*:

خصص الرأى الثانى عموم الآية بقوله أن الآية - مع عدم القول بنسخها - إنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية، وأن الذين يكرهون هم أهل الأوثان.

وزاد الرأى الثالث من حدة التخصيص، فقال أن الآية وردت فى السبى متى كانوا من أهل الكتاب إذا كانوا كبارا، أما المجوس والوثنيين كباراً أو صغاراً فإنهم يجبرون على الإسلام.

ويستدلون على ذلك بأن الذى سباهم لا ينتفع بهم إذا ظلوا على الوثنية أو المجوسية، لأنه لا تؤكل ذبائحهم ولا توطأ نساؤهم، ويدينون بأكل الميتة والنجاسات وغيرهما، لذا يجوز لمن يملكهم إجبارهم على الإسلام حتى يتثنى له الإنتفاع بهم.

والرد على دعاوى التخصيص السابقة غاية فى السهولة، فبالنسبة لمن قال أنها نزلت فى أهل الكتاب خاصة، واستدلوا بواقعة عمر بن الخطاب - رضى - مع العجوز النصرانية نقول لهم أن هذه العجوز لو كانت وثنية لفعل معها عمر نفس الفعل، ولدعاها الإسلام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فمن المتفق عليه أن فعل عمر لا يخصص القرآن، ومن ناحية ثالثة فنقول لأصحاب الرأيين الثانى والثالث، أن هذا التخصيص قد توصلتم إليه باجتهادكم، والاجتهاد ظن، والظن لا يخصص اليقين، ونقصد به القرآن القاطع فى ثبوته، القاطعة دلالته، وقد جاءت ألفاظ الآية عامة، ولم يخصصها أى نص قرآنى، وعلى هذا لا يستطيع أحداً أيا كان أن يزحزح هذا العموم قيد أنملة.

وحجة أخيرة أحتج بها على دعوى النسخ والتخصيص، فأقول: ألم يؤلف

(*) اللفظ العام هو اللفظ الموضوع وضعاً واحداً والذى يشمل جميع الأفراد الذى يتحقق فيها معناه من غير حصر فى كمية معينة؛ ولا فرق بين أن تكون دلالته على ذلك بلفظه ومعناه.
أما الخاص فهو اللفظ الذى وضع للدلالة على فرد واحد أو أفراد محصورين د/ محمد قرحات - مصدر سابق - ص 132

رسول الله قلوب مشركى مكة ولم يكرههما على الدخول فى الدين الإسلامى عقيدة وإيماناً، فهولاء من جهة لم يكرههم رسول الله ﷺ، ومن جهة أخرى هم أهل أوثان وليسوا أهل كتاب، وأذكر منهم على سبيل المثال صفوان بن أمية، ويقول عنه ابن حجر: قتل أبوه يوم بدر كافراً، وكان إليه أمر الأزلام فى الجاهلية، وهرب يوم فتح مكة، وأسلمت امرأته، وهى ناجية بنت الوليد، فأحضر له ابن عمه عمير بن وهب أماناً من النبى - ﷺ -، فحضر وحضر وقعة حنين قبل أن يسلم [1]، وذكر ابن اسحاق أن الرسول - ﷺ - أعطاه من فئ هوازن مائة بعير قبل أن يسلم[2]، وهنا لم يفرق الرسول - ﷺ - بين أهل الأوثان، وبين أهل الكتاب هذا دليل على عموم النص وعدم تخصيصه، كما أن فى هذا دليل على عدم نسخه. وجدير بالذكر أن قسمة فئ هوازن كان فى السنة الثامنة من الهجرة.

أما بالنسبة للرأى الرابع الذى يقول أن معنى الآية: لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبراً مكرهاً، فهو تأويل لا يحتمله النص، فالذى يسلم تحت ضغط القوة لابد أن يكون مكرهاً، وإسلامه فى هذه الحال إنما يكون لحفظ حياته، أما إذا حسن إسلامه بعد ذلك بأن شرح الله قلبه للإيمان، فهنا تزول شبهة الإكراه.

وعلى ذلك فمبدأ حرية العقيدة الذى قرره القرآن هو مبدأ باق لم يلحقه أى نسخ، وعام لم يخصصه نص، والحكمة من تقرير المبدأ واضحة للعيان، فالإسلام ليس فى حاجة إلى من يُكرهوا على إعتناقه، فمثل هؤلاء لن ينفعوا الإسلام، بل على العكس سيشكلون الخطر الأكبر على الإسلام، لأنهم يظهرون عكس ما يبطنون، لذا نهى الله سبحانه وتعالى عن إكراه أحد على الدخول فى الإسلام، لماذا؟ يقول الله تعالى: - ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ﴾ -.

---

(1) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى. جـ 3 - ص 431.

(2) سيرة ابن هشام - جـ 4 - ص 270

المبدأ الثانى: المجادلة بالتى هى أحسن:

أما المبدأ القرآنى الثانى الذى تقوم عليه الدعوة الإسلامية يتمثل فى المجادلة بالتى هى أحسن والدعوة إلى الطريق القويم بـالموعظة الحسنة يقول الله تعالى: - ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ - [1] ويقول جـل شأنه - ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ - [2].

والآية الأولى نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش، وفـيها يأمـر الله تعالى رسوله - ﷺ - أن يدعو إلى دين الله وشرعـه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة [3].

ويقول المفسرون أن الحكمة تعنى ما أنزله الله تعالى على رسوله محمد - ﷺ - من الكتاب والسنة، والمـوعظة الحسنة أى بما فيـه من الزواجر والوقائع يذكـرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى. ومن يحتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب [4].

وإذا كان جدال قريش - وهم يمثلون المجـتمع الوثنى فى الجزيرة العربية آنذاك - إذا كان جدالهم بالتى هى أحسن، فمن بـاب أولى يكون جدال أهل الكتاب (اليهود والنصارى) كذلك، إلا الذين ظلموا منهم وهم الذين ناصبوا المسلمين العداء، وكان جل همهم وأد الدولة الإسـلامية فى مـهدها كيـهود خيـبر الذين حاكـوا المؤامرات وخانوا العهود وتربصـوا بالإسلام والمسلمين، حتى إذا رأوا الفرصة مهـيأة انقضوا، وكشروا على أنيابهم النجسة، وظهرت نواياهم الخبيثة، فمثل هؤلاء لا يصلح معهم

---

(1) آية النحل 125.

(2) سورة العنكبوت آية 46.

(3) تفسير القرطبى - تفسير الآية 125 من سورة النحل

(4) تفسير ابن كثير - تفسير الآية 125 من سورة النحل.

الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا الجدال بالتى هى أحسن، وإنما يتم الإنتقال من الجدال إلى الجلاد والقتال حتى يتم ردعهم وكسر شوكتهم.

والآن لنعرض بعض الأمثلة التى تجلت فيها عظمة رسول الله - ﷺ - وصبره ولينه، وعدم مقابلة العنف بالعنف، فقد اجتمع صناديد قريش لمساومته على العدول عما هو سائر فيه، فى أى مقابل شاء، ولم يكفهم هذا بل تطاولوا وطلبوا منه مالا يطلبه إلا مستهزئ أو ساخر، ومع ذلك لم يرد عليهم - ﷺ - إلا بلين الكلام، وعندما أزداد تطاولهم على الله سبحانه وتعالى لم يكن منه - ﷺ - إلا أن غادر مجلسهم. وقد جاء الخبر فى كتب السير والتاريخ على هذا النحو:

«ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء، وقريش تحبس من تقدر على حبسه وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين، واجتمع أشراف قريش من كل قبيلة، منهم: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، وأبو جهل بن هشام وغيرهم. اجتمعوا عند غروب الشمس بعد ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم؛ فجاءهم رسول - الله - ﷺ - سريعاً، وهو يظن أنهم سيهتدون، وأن الإيمان يقف على أعتاب قلوبهم، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم؛ فقالوا له. يامحمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - وكان يسمون التابع من الجن الرئى - بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك؟ فقال

رسول الله - ﷺ -: **[ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً نذيراً، فبلغتكم رسالة ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم]**، فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيما يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول، فقال لهم رسول الله - ﷺ -: **[ما بهذا بُعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوا علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم]**. قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغى، فإنك تقوم فى الأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله - ﷺ -: **[ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى مبشراً ونذيراً، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم]**.

قالوا: فاسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإنا لا نؤمن بك إلا أن تفعل. فقال رسول الله - ﷺ -: **[ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل]**.

قالوا: يا محـمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عـما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيـتقدم فيعلمك ما تراجعنا به، ويخـبرك ما هو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقـبل منك مـا جئـتنا به، إنه قد بلغـنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامـة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فـقد أعذرنا إليك يا محمـد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك، أو تهلكـنا. وقال قائلهم: نحن نعـبد الملائكة، وهى بنات الله. وقـال قائلهم: لن نؤمن لك حـتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك لرسول الله - ﷺ - قام عنهم»[1].

واضح من المثال السابق مدى صبر النبى - ﷺ - وتنفـيذه لتعليمات ربه بدقة - ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ - فلم يسبهم، ولم يلعنهم، ولم يغضب لنفسه، ولكنه كـان غضبه لله سبحانه وتعـالى، عندما قالوا أن الملائكة بنات الله وأنهم يعبـدون الملائكة، ومع ذلك لم يرد عليهم بخـشن الكلام، ولكن كل ما فعله - ﷺ - أنه قام عنهم.

ومثال آخر، وهذه المرة كان الجدال مع كتابـى، وهو أحد أحبار اليهود، فقد ظل يسأل رسول الله - ﷺ - ويزيد أسئلته، ولم يسـئم - ﷺ - وأخذ يجيبه على كل ما سـأل عسى أن يهـديه الله سبحـانه إلى سبـيل الرشاد، وكل هذا بعـد أن سيطر الرسول - ﷺ - على غضب ثوبان مولاه - ﷺ - حيث ناداه الحـبر يا محمد ولم يقل رسول الله فـما كـان من الرسول صاحب الخلق الكـريم إلا أن جاء فى صف الحبـر اليهودى قائلاً: إن اسـمى محمـد الذى سمانى به أهلى. وبهـذا الفعل نجح الرسول - ﷺ - فى محو الأثر السيئ الذى تركه تصرف ثوبان فى نفس اليهودى، وأدار الحوار بطريقة طبيعية. والخبر رواه الإمام مسلم عن ثوبان حيث قال:

كنت قائماً عنـد رسول الله - ﷺ - فجاء حبـر من أحبار اليهود فـقال: السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لم تدفعنى؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله، فقال اليهودى: إنما ندعوه باسـمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله -

(1) انظر - سيرة ابن هشام - جـ 1 ص 204، والبداية والنهاية لابن كثير - جـ 3 - ص 69.

ﷺ -: **إن أسمى محمد الذى سمانى به أهلى**، فقال اليهودى: جئت أسألك، فقال له رسول الله - ﷺ - **أينفعك شئ إن حدثتك؟** قال: أسمع بأذنىَّ فنكت رسول الله - ﷺ - بعود معه فقال: سل، فقال اليهودى: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله - ﷺ - **هم فى الظلمة دون الجسر**، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: **فقراء المهاجرين**، قال اليهودى: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: **زيادة كبد النون**، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: **ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها**، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **من عين فيها تسمى سلسبيلا**، قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شئ لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان، قال: ينفعك إن حدثتك، قال أسمع بأذنىَّ، قال: جئت أسألك عن الولد قال: **ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منىُّ الرجل منىَّ المرأة أُذكرا بإذن الله، وإذا علا منىُّ المرأة منىَّ الرجل آنثا بإذن الله** قال اليهودى: لقد صدقت وإنك لنبى، ثم انصرف، فذهب، فقال رسول الله - ﷺ -: **«لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه، ومالى علم بشئ منه، حتى أتانى الله به»** (1).

ومثال ثالث... ولكن النقاش أو الجدال هذه المرة مع أحد شباب المسلمين، وهذا الشاب فاجأ جميع الحاضرين بطلب غريب ألا وهو الأذن فى الزنا، فصاح الحاضرون وزجروه، ولكن رسول الله - ﷺ - بحكمته عالج الأمر، وأصلح نفس الشاب حتى أنه لم يكن يكره شئ قدر الزنا، والخبر فى مسند الإمام أحمد بن حنبل عن أبى أمامة الباهلى قال:

«إن فتى شاباً أتى النبى - ﷺ - فقال: يا رسول الله أئذن لى بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه، فقال - ﷺ -: **أدنه** فدنا منه قريباً فأجلسه رسول الله - ﷺ - فقال: [**أتحبه لأمك؟**] قال: لا والله، جعلنى الله فداءك. قال: [**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**] قال: [**أفتحبه لابنتك**] قال: لا والله يا رسول الله جعلنى

(1) صحيح مسلم كتاب الحيض باب بيان صفة منى الرجل والمرأة

الله فداءك. قال: [**ولا الناس يحبونه لبناتهم**] قال: [**أفتحبه لأختك**] قال: لا والله، جعلنى الله فداءك. قال: [**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**] قال: [**أفتحبه لعمتك؟**] قال: لا والله جعلنى فداءك. قال: [**ولا الناس يحبونه لعماتهم**] قال: [**أفتحبه لخالتك؟**] قال: لا والله، جعلنى الله فداءك، قال: [**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**].

فوضع يده عليه وقال: [اللهم أغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه] فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شئ.

والمثال الرابع والأخير يتمثل فى تعليمات رسول الله - ﷺ - التى وجهها إلى معاذ بن جبل حيث بعثه - ﷺ - إلى قوم من أهل الكتاب، فأوضح له أن الدعوة تقوم على التدرج فى الأحكام بأن يعرض عليهم أحكام الإسلام حكماً بعد الآخر، ونلحظ أن التدرج يبدأ يعرض حكم قلبى وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم يتلو الشهادة عرض التكاليف من الأقل جهداً وتكلفة ثم الذى يليه، وهذا إسلوب رائع من أساليب الدعوة، حيث يقوم على تسلسل منطقى لاختبار قوة الإيمان، ومدى صدقه، فقد ينطق الفرد بالشهادة وقلبه لم يطمئن بالإيمان، ولكن قبوله للصلاة، والزكاة، وسائر التكاليف الأخرى يكون قرينة - وإن كانت تقبل إثبات العكس - على صدق هذا الإيمان، وفى النهاية يدعو رسول الله - ﷺ - معاذاً أن يتجنب الظلم، فالظلم أسلوب قهرى ينأى عن الطريق القويمة للدعوة السمحة.

والخبر كما جاء فى صحيح مسلم عن معاذ بن جبل قال: بعثنى رسول الله - ﷺ - قال: «**إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب (اليمن) فادْعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**».

الفصل الثانى
النظرية القرآنية فى الحرب

أولاً: إشارة سريعة إلى التنظيم الوضعى لمسألة الحرب:

شغلت الحرب - بما تخلفه من خراب ودمار - مساحات شاسعة فى الفكر الإنسانى، لذا بُذلت عدة محاولات للحد من هذه الظاهرة تبلورت فى ظهور منظمة دولية عالمية عُرفت باسم «عصبة الأمم» للحد من اللجوء إلى استعمال القوة والدعوة إلى تسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية. ولعل العامل الرئيسى وراء ظهور هذه المنظمة تمثل فى الحرب العالمية الأولى بما خلفته من خراب لمعظم دول العالم. إلا أن هذه المنظمة فشلت فى مهمتها وهى تجنيب العالم ويلات الحرب، فنشبت الحرب العالمية الثانية، مما كان سبباً فى انهيار المنظمة، وبدت الحاجة ملحة إلى انشاء تنظيماً عالمياً جديداً يقوم بالدور الذى فشلت فيه عصبة الأمم، وبالفعل ظهر التنظيم الدولى الجديد سنة 1945 تحت اسم «منظمة الأمم المتحدة» وحرى بنا قبل أن نعرض للنظرية القرآنية في الحرب أن نلقى نظرة سريعة على عهد عصبة الأمم وميثاق الأمم المتحدة فيما تضمناه من أحكام للحد من استعمال القوة فى فض المنازعات الدولية باعتبارهما التنظيم الوضعي الذى وضعه البشر وارتضوه لهم ناموساً يسيرون عليه ليكون لهم وقاية من شر الحروب، وآثارها المدمرة.

1 - حظر استعمال القوة فى عهد عصبة الأمم:

كان نطاق الحظر فى عهد عصبة الأمم ينصرف إلى القوة العسكرية (الحرب) وذلك فى حالات محددة هى[1]:

(أ) تعتبر الحرب غير مشروعة إذا نشبت قبل عرض النزاع على أى من طرق التسوية السلمية التى حددتها المادة الثانية عشرة من العهد وهى التحكيم أو التسوية القضائية أو العرض على مجلس عصبة الأمم أو بعد عرض النزاع على أى من هذه الطرق لكن قبل انقضاء فترة ثلاثة شهور بعد صدور قرار التحكيم أو القضاء أو تقرير المجلس (المادة 12 من العهد).

(ب) تعتبر الحرب غير مشروعة إذا أعلنت ضد دولة قبلت قرار التحكيم أو القضاء أو تقرير المجلس الصادر بالإجماع فى موضوع النزاع، ولو بعد مرور فترة الثلاثة شهور.

(ج) كل حرب ترتكب خروجاً على التزام الدول الأعضاء باحترام وكفالة الإقليمية والاستقلال السياسى للدول ضد أى عدوان خارجى (مادة 10).

ما عدا هذه الحالات من صور استعمال القوة لا يدخل فى نطاق الحظر وفقاً لعهد عصبة الأمم. ونظراً لأن مبدأ الحظر لم يأخذ شكلاً متكاملاً فى عهد عصبة الأمم، فقد أرادت الدول أن تكمل ما فى نصوص العهد من قصور، فأبرمت ميثاق (بريان كيلوج) عام 1928 ، الذى نص على حظر كامل ومطلق للجوء إلى الحرب فى العلاقات الدولية، ففى المادة الأولى من هذا الميثاق أعلنت الدول الأطراف المتعاقدة استنكارها الاتجاه إلى الحرب لتسوية الخلافات الدولية ونبذها إياها فى علاقاتها المتبادلة كأداة للسياسة القومية. وأقر الأطراف فى المادة الثانية اللجوء إلى الوسائل السلمية لتسوية ما قد يثور بينها من خلافات أياً كان طبيعتها أو مصدرها.

ولقد لوحظ على هذا الميثاق أنه تضمن تحريماً عاماً للدخول فى حرب ولكنه لم

---

(1) انظر - د. ابراهيم محمد العنانى - المنظمات الدولية طبعة 1995 ص 140 وما بعدها.

ينص على حظر عام لاستخـدام القوة. كما أنه قد استثـنى من نطاق حظر استخدام القوة الحرب التى تجـرى ضد دولة انتهكت مبـادئ عهد عصـبة الأمم، والحرب فى حالة الدفاع الشرعى.

2 - حظر استعمال القوة فى ميثاق الأمم المتحدة[1]:

على خلاف عهد عصبة الأمم اتخذ مبدأ حظر استخدام القوة شكلاً شاملاً وعاماً تقريبـاً فى ميثاق الأمم المتـحدة، فقد قـضت الفقرة الرابعة من المادة الثـانية منه بأن يمتنع أعـضاء الهيئة جمـيعاً فى علاقاتهم الدوليـة عن التهديد باستعـمال القوة أو استخدامها».

ومعنى ذلك أنه لا يجـوز استخدام القـوة أو التهديد بها فى المنازعـات الدولية، وهى التى تثور فى العلاقـة بين دولة ودولة وبذلك يخرج من نطاق الحظر المنازعات الداخلية. ويعد ذلك فى الواقع تطبيقاً للمبدأ الوارد فى الفقرة السابعة من نفس المادة التى تقضى بأنه «ليس فى هذا الميثاق ما يسوغ (للأمم المتحدة) أن تتدخل فى الشئون التى تكون من السلطـان الداخلى لدولة ما، ولـيس فيـه ما يقـتـضى الأعضـاء أن يعرضوا مثل هذه المسائل لأن تحل بحكم هذا الميثاق..»

وعلى هذا قصد بتعبير «فى علاقاتهـا الدولية» أن يستبعد من نطاق الحظر التهديد أو استعمال القوة فى مباشرة سلطة الدولة على إقليمها.

ولقد أقـر ميثاق الأمم المتـحدة صراحة وبطريقـة عامة، شرعـية استخـدام القوة للدفاع الشرعى، حيث نصت المادة 51 منه على أن:

«ليس فى هذا الميـثاق مـا يضعف أو ينـتقص الحق الطبـيعى للدول، فـرادى أو جماعات، فى الدفـاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحـة على أحد أعضاء (الأمم المتحـدة) وذلك إلى أن يتخـذ مجلس الأمن الدولى، التـدابير اللازمة لحـفظ السلم والأمن الدولى، والتدابير التى اتخذها الأعضاء استعمالا لحق الدفاع عن النفس تبلغ

(1) المصدر السابق ص 146 وما بعدها.

إلى المجلس فوراً، ولا تؤثر تلك التدابير بأى حال فيما للمجلس - بمقتضى سلطته ومسئولياته المستمدة من أحكام الميثاق - من الحق فى أن يتخذ فى أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدولى أو إعادته إلى نصابه.

وحق الدفاع الشرعى حق طبيعى، وكل ما فعله التنظيم الدولى هو تقرير هذا الحق وتنظيمه وتقييده بقيود معينه بحيث لا يتخذ الطابع المطلق الذى يخضع فى ممارسته وتقدير مداه للحرية الكاملة للدولة التى تمارسه.

وقد قيدت المادة 5 حق الدفاع الشرعى بثلاثة قيود هى:

أ - وجود حالة اعتداء مسلح على أحد أعضاء الأمم المتحدة.

ب - يمارس حق الدفاع الشرعى إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى.

ج - خضوع حق الدفاع الشرعى لرقابة مجلس الأمن.

وباستقراء النصوص التى جاء بها ميثاق الأمم المتحدة ، نجد أنها جاءت بتنظيم مثالى لا يسمح بنشوب أى حرب، وحتى فى حالة نشوبها فإنه يمكن السيطرة عليها سريعاً والحد من آثارها قدر الإمكان، وكل هذا فى حالة التزام الدول أعضاء المنظمة بالنصوص التى وردت بالميثاق، ولكن بالتطبيق العملى لهذه النصوص يكون لزاماً علينا إعادة قراءتها فى ضوء الواقع، فكأن هذه النصوص قد وضعت لتلتزم بها الدول الصغيرة، ولتنتهكها الدول الكبرى، ولعل أوضح مثال لهذه الانتهاكات هو حماية الولايات المتحدة لاسرائيل رغم ما تقوم به من ممارسات وحشية ضد الشعب الفلسطينى، فلتنتهك إسرائيل كيفما تشاء، ولتنقض عهودها كل هذا تصبغه الولايات المتحدة بصبغة الشرعية، وتدخله تحت عباءة الدفاع الشرعى من أجل استمرار دولة إسرائيل، أما مقاومة الشعب الفلسطينى من أجل بقاءه، ومن أجل بناء دولته فهو عمل ارهابى.

وفى الواقع فقد وصلت سياسة الكيل بمكيالين - والتى تتبعها الولايات المتحدة وحلفاؤها - منذ ظهور ما يسمى بالنظام العالمى الجديد، بعد انهيار الإتحاد السوفيتى

وظهور أمريكا كقطب أوحد ينجذب إليه الجميع، وأصبحت هى القوة الوحيدة المهيمنة على كل أمور العالم، فأضحت نصوص ميثاق الأمم المتحدة أداة لينة تشكلها كما تشاء للحفاظ على مصالحها، فلا يهمها قتل وتشريد الآلاف فى البوسنة وكوسوفو الشيشان وفلسطين، ولكن إذا ظهرت قوة فى الشرق الأوسط واختل ميزان القوى ولم يكن لصالح إسرائيل فهذا أمر خطير، لذا كانت المكيدة التى نصبت للعراق والتى انتهت باحتلاله وخلع رئيسه، وبعد العراق اتجهت الأنظار إلى سوريا وإيران، فهذه هى الأمم المتحدة، وهذا هو الميثاق، وهذا هو النظام العالمى الجديد ونظن أن المهيمن هو الأخير، فشتان بين النظرية والتطبيق فى التنظيم الوضعى الذى وضعه البشر للحفاظ على الأمن الجماعى، فهم الذين وضعوه، لذا كان من السهل عليهم أن ينتهكوه.

وبعد هذا العرض للنظرية الوضعية للحد من آثار الحرب، ومحاولة اجتنابها للوصول إلى تنظيم مثالى للأمن الجماعى، وظهور الهوة العميقة بين النظرية والتطبيق يجدر بنا الآن وأن نعرض للنظرية القرآنية فى الحرب.

ثانياً: النظرية القرآنية فى الحرب:

أول آية نزلت فى القتال:

لم يكن للمسلمين بمكة جيش نظامى، فالوضع هناك لم يكن ليسمح لهم بذلك، فهم أقلية مضطهدة ، لا حول لهم ولا قوة، أذاقتهم قريش كل أصناف العذاب، حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون فى دينه، وبين معذب فى أيديهم، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة.

فلما هاجر ﷺ إلى المدينة، وأصبح هناك مجتمع إسلامى آمن أمكن من خلاله تنظيم الصفوف وتكثيف الجهود للدفاع عن الدولة الوليدة المحاطة بالأعداء من كل جانب، فنزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(1).

وجاء فى تفسير هذه الآية عن ابن عباس أنه قال: لما خرج النبى - ﷺ - من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا...﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم...﴾ هذا أحد ما ظلموا به، فقد ذاقوا من ألوان الظلم الكثير وكل هذا الظلم لقولهم «ربنا الله» أى اخرجوا بتوحيدهم.

يتضح من العرض السابق لأول آية نزلت فى القتال والحرب، أن من أهم المبادئ التى ترتكز عليها النظرية القرآنية كون الحرب دفاعية، فالذين أذن لهم فى القتال لم يؤذن لهم بهذا إلا من بعد ظلمهم، والحرب فى الإسلام تكون لرد الاعتداء وبالقدر

---

(1) سورة الحج: 39, 40 .

(2) انظر تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبى، وأسباب النزول للسيوطى.

الكافى لحفظ أمن الـدولة الإسلاميـة فإذا امتنع العـدو وجنح إلى السلم يجب على القائد أن يستجيب ويأمر بوقف القتال، وهذا يقودنا إلى مبدأ آخر لا يقل أهمية عن سابقه - بل قد يتداخل معه - وهو مبدأ المعاملة بالمثل.

الحرب دفاعية فى الإسلام:

ورد فى القرآن الكثيـر من الآيات التى تؤكد على هذا المبدأ، منهـا قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2] فهذه الآية الكريمة كانت أمر للرسـول - ﷺ - وللمسلمين من بعده بأن يقاتل من قاتله ويكف عمن يكف عنه، وقوله تعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا﴾ أى قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتـدوا فى ذلك، ويدخل فى ذلك ارتكاب مـا أنهى عنه من التمـثيل بالجـثة، وقتل النســاء، والأطفال والشيوخ الذيـن لا رأى لهم، ولا قتال فيـهم، والرهبان، وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، فكل هذا وما على شاكلته منهى عنه فى الإسلام[2].

ويقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3] قال المفسرون فى معنى الآية: وقاتلوا الذين يقاتلونكم حتى لا تنتـشر الفتنـة، وليكون دين الله هو الظاهر العالى على سـائر الأديان، فإن انتهـوا عما هم فـيه من قتـال المؤمنين فكفوا عنهم فـإن من قاتلهم بعد ذلك فـهو ظالم[4].

ويقول جل شأنه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[5] ومعنى الآية: أن العدو إذا طلب الصلح والهدنة فـأجبه إلى طلبه،

---

(1) البقرة: 190

(2) قرب - تفسير ابن كثير - وتفسير القرطبى فى تفسير الآية.

(3) البقرة 193

(4) انظر تفسير ابن كثير

(5) الأنفال 61

فالحرب هى إنما وسيلة للدفاع عن دولة الإسلام أما وقد بدت بوادر الصلح والميل إلى السلم والسلام، فهنا لا جدوى من الحرب، والقاعدة الأصولية تقول: «الضرورة تقدر بقدرها»، والحرب باعتبارها استثناء يلجأ إليه عند الضرورة، يجب أن تقدر بقدرها.

مبدأ المعاملة بالمثل:

قرر القرآن الكريم مبدأ المعاملة بالمثل فى أكثر من مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[1] قال المفسرون: نزلت هذه الآية فى عمرة القضية وعام الحديبية، وذلك أن رسول الله - ﷺ - خرج معتمراً حتى بلغ الحديبية فى ذى العقدة سنة 6 هـ ، فصده المشركون كفار قريش عن البيت فانصرف، ووعده الله سبحانه وتعالى أنه سيدخله فدخله سنة 7 هـ وقضى نسكه، فنزلت هذه الآية[2].

وقول تعالى: ﴿**وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾ الحرمات جمع حرمة كالحجرات جمع حجرة، وإنما جمعت الحرمات لأنه أراد حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام. معنى الحرمة: ما مُنعت من انتهاكه. والقصاص المساواة، أى اقتصصت لكم منهم إذ صدوكم سنة ست فقضيتم العمرة سنة سبع. ولا خلاف بين العلماء أن هذه الآية أصل فى المماثلة فى القصاص[3].

وقوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ الاعتداء هو التجاوز، فمن ظلمك فخذ حقك منه بقدر مظلمتك وقوله جل شأنه ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ أمر بالعدل حتى فى غير المسلمين[4].

---

(1) البقرة: 194 .

(2) تفسير القرطبى للآية 193 من سورة البقرة.

(3) المصدر اسلابق.

(4) المصدر اسلابق، وكذلك تفسير ابن كثير لنفس الآية

ويتأكد المبدأ مقرونا بالندب إلى الصبر والعفو فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[1] وقوله جل شأنه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2].

والآيتان تدعوان إلى الصبر على الإساءة والعفو عن المسئ ما أمكن ذلك، فكليهما يثيب الله سبحانه وتعالى عليه فى الدار الآخرة.

ويتجلى مبدأ المعاملة بالمثل فى العلاقات الدولية بوضوح لا يشوبه مراء فى قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

ومعنى الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة أو المشركين وأهل الكتاب الذين لا يقاتلونكم فى الدين، إنما ينهاكم عن موالاة الذين ناصبوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعادتهم[4].

والآيتان صريحتان فى الإذن بإقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مع دول غير إسلامية، طالما هى لا تعادى المسلمين، ولا تضطهدهم، ولا تشارك أى دولة معتدية، وإلا فالواجب هو قطع العلاقات مع هذه الدول بكافة صورها وذلك إعمالاً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ومن العرض السابق يتضح لنا أن النظرية القرآنية قد أوضحت بجلاء أن الحرب

(1) النحل. 126.
(2) الشورى. 40
(3) الممتحنة8 . 9
(4) تفسير ابن كثير وتفسير القرطبى فى تفسير الآيتين 8 ,9 من سورة الممتحنة

فى الإسلام تقوم على مبدائين، أولهما أن الحرب دفاعية، وهو نفس المبدأ الذى قال به ميثاق الأمم المتحدة ومن قبله عهد عصبة الأمم وثانيهما: مبدأ المعاملة بالمثل فى العلاقات الدولية، فالإسلام لا يعادى كل من اتخذ غير الإسلام دينا، وإنما يعادى من عاداه، ويتعامل ويتعاون مع من يسالمه، فالإسلام لم يأت برسالة تجعلنا حملة سيوف حتى قيام الساعة، ولكنه فى نفس الوقت لم يأمرنا بالتهاون والتخاذل فى وجه أعدائنا، لأن أعداء الإسلام هم دائماً البادئين، ومن بدأ بالظلم فعليه عاقبة ما ظلم.

ونظن أن تنظيماً كهذا يحمل كل سمات التحضر والتمدين لا يستحق هذه الحملة العشواء من جانب أمريكا والغرب بإيعاز من إسرائيل، نعم، فهى المحرك الأول لكل الأحداث الدولية التى تموج فى عالمنا المعاصر، فقد سيطرت إسرائيل على عقول وشعوب الغرب بما تملكه من إعلام ضخم أظهرنا بصورة إرهابيين وقطّاع طرق، وفى الحقيقة، فإن فقهاءنا ومفكرينا ساعدوهم فى إظهارنا بهذه الصورة، فقد عكفوا على تكرار كل ما ورد فى تراثنا الفقهى وكأن الوحى نزل به من السماء، حتى قالوا بنسخ كل الآيات التى تدعوا إلى التسامح، والعفو، والسلم فى العلاقات الدولية، ورفعوا شعار: القتال.. القتال، والله ورسوله براء من ذلك(1).

على كل حال نقول إذا كان يهود إسرائيل قد شنوا على الإسلام هذه الحملة العشواء، وألصقوا به بمعاونة بعض فقهاء المسلمين - ما ليس به، فلنلق نظرة سريعة على الحرب فى التوارة - كما كتبها اليهود وليس كما أنزلها الله - لترى أى النظريتين يحمل سمة التحضر، وأيهما استقر فى الضمير العالمى، النظرية القرآنية، أم النظرية التوراتية.

---

(1) بقول فخر الدين الرازى: (مفاتيح الغيب جـ 5 - ص 366): قال بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل 120] منسوخ بآية السيف وهذا فى غاية البعد، لأن المقصود من هذه الآية تعليم حسن الادب فى كيفية الدعوى إلى الله تعالى، وترك التعدى وطلب الزيادة ولا تعلق لهذه الأشياء بآية السيف، وأكثر المفسرون مشغوفون بتكثير القول بالنسخ، ولا أرى فيه فائدة.

الحرب فى التوارة:

المبدأ الأساسى الـذى تقوم عليه الحرب فى التـوارة يتمثل فى الإبادة الجمـاعية - خاصة للذكور - أما فى حالة الاستسلام فالجميع يصبحون عبيد مسخرون.

يقول النص التوارتى: **«حين تقترب من مدينة لكى تحـاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب، الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستـعبد لك. وإن لم تسالمك بل عـملت معك حرباً فـحاصرها. وإذا دفعـها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد الـسيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيـمتها فتغـتنمها لنفسك وتأكل غنيـمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعـل بجميع المدن البـعيدة منك جـداً التى ليس من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيـباً فلا تستبق منها نسمة ما»**[1].

وقريب من هذا ما جاء فى حربهم مع مدين **«فتجندو على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر»**[2] وأثناء وبعد انتهاء هذه الحرب قاموا بقتل جميع الذكور الأطفال وجمـيع النساء اللاتى سبق لهم التـزوج، يقول النص: **«فـالآن اقتلوا كل ذكـر من الأطفال، وكل امـرأة عرفت رجلاً بمضـاجعة ذكـر اقتلوها. لكن جمـيع الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات»**[3] وقد بلغ عدد الفتيات الصغيرات اللآتى قُتل آبائهن وامهاتهن وإخوتهن الذكور، بلغن اثنين وثلاثين ألفاً[4] فما بالك بعدد من قتل من الأطفال الذكور ومن النساء.

(1) تثنية 20 : 10 - 16

(2) أعداد 31 : 8

(3) أعداد 31 · 17 - 18

(4) أعداد 31 ·35

وعندهم شق بطن الحوامل جائز «**حينئذ ضرب منحيم تَفْصَحَ وكل ما بها وتخومها من ترصة لأنهم لم يفتحوا له ضربها وشق جميع حواملها**»[1].

وفى موضع آخر: «**فتحطم القسيُّ الفتيان ولا يرحمون ثمرة البطن. لا تشفق عيونهم على الأولاد**»[2].

وفى موضع ثالث: «**تُجازى السامرة لأنها قد تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تُحطم أطفالهم والحوامل تشق**»[3].

أما التشويه والوحشية والتخريب، فكل هذا مشروع بنصوص التوارة: «فهرب أدُونى بَازَقَ فتبعوه وأمسكوه وقطعوا أباهم يديه ورجليه»[4].

أما التخريب والإحراق فتجده فى هذا النص: «**وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار**»[5] وكذلك فى حرب مدين: «**وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار**»[6] أما القتل بوحشية لدرجة درس اللحم فيتضح فى هذا النص: «**فقال جدعون: لذلك عندما يدفع الرب زَبَحَ وصَلْمُنَّاعَ بيدى أدرس لحمكم مع أشواك البرية بالنوارج**»[7].

وإذا كان الوضع فى التوراة كذلك، فلا عجب مما نراه منهم اليوم من القتل الجماعى بالصواريخ، وقتل النساء، والقاء القنابل والصواريخ على المدارس لقتل الأطفال، وقتل الشيوخ الذين لا حول لهم ولاقوة، ولعل أوضح مثال على ذلك قتل الشيخ أحمد ياسين، الرجل المسن أسير الكرسى المتحرك، قذفوه وكرسيه بالصواريخ، ولا ننس إزالة المنازل - سواء بالدبابات أو بالبلدوزرات - وهدمها على

(1) الملوك الثانى 16:15

(2) إشعياء 13 :18

(3) هوشع 16:13

(4) القضاة 6:1

(5) القضاة 8:1

(6) عدد 10:31

(7) قضاة 7:8

أهلها لبناء ما يسمى بالجدار العازل، إن ما يفعلونه زُرِعَ فى قلوبهم منذ الصغر، فقد تربوا على تلك الوحشية والهمجية، ورغم كل ذلك نجحوا فى قلب الآية، فأصبح الإسلام هو دين الهمجية والإرهاب، وأصبحوا هم المدافعين عن الإنسانية وحمايتها من خطر الإسلام.

وبعد، فأين نصوص اليهود وأفعالهم من نصوص القرآن الكريم التى تدعو إلى العفو والصفح ولا تجيز الحرب إلا فى حالة الدفاع الشرعى.

وبعد هذا العرض للمبادئ التى تقوم عليها النظرية القرآنية فى الحرب يتكشف لنا بجلاء أن الحرب فى الإسلام لم تكن أبداً وسيلة لنشر هذا الدين، ولا لفرضه على أحد بالقوة والقسر، وإنما هى حرب دفاعية، شرعت فقط للدفاع عن دولة الإسلام ضد المعتدين الذين طالما حاولوا النيل منها والقضاء عليها، سواء فى مهدها أو فى شبابها، فكانت الحرب فى حدود رد هذه الإعتداءات لتأمين حدود الدولة ممن يتربصون لها، ويتحينون الفرص للوثوب عليها، وبعد رد الإعتداء يكون وقف القتال ما دام قد تم تأمين الدولة تأميناً تاماً، إذ أن أى قتال بعد رد الإعتداء يكون قتالاً منهياً عنه لقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**(1).

الأسرى والرقيق فى القرآن:

إتماماً لعرض نظرية متكاملة للحرب فى القرآن، يكون حرى بنا أن نعرض لموقف الإسلام من الأسرى والرقيق، والجمع بين الأسرى والرقيق فى هذا الموضع سببه أن الإسلام قد نسخ كل مصادر الرق فى النظم السماوية القديمة، ولم يبق إلا على مصدر واحد فقط، هو أسرى الحرب.

فقديماً عرفت التوراة - بجانب هذا المصدر - أكثر من مصدر للرق(2) من هذه

(1) البقرة 190

(2) حول هذا الموضوع أنظر د محمد بدر - الديمقراطية الأثينية وسيادة القانون فى التوراة والإنجيل والقرآن القاهرة 1995

المصادر الرق بالدين، فقد عرف القانون الإسرائيلى الإسترقاق بالدين عند الإعسار، لا للمدين وحده بل له ومعه أفراد أسرته. وهذا الإسترقاق نهائى للمدين غير الإسرائيلى. أما المدين الإسرائيلى فالأصل - إن احترم نص التوراة - أنه لا يسترق، إلا أنهم حرفوا النصوص فأصبح الإسرائيلى يسترق أبداً[1].

وفى هذا تقول نصوصهم: (**وشكت امرأة من نساء بنى الأنبياء إلى اليشع قائلة: عبدك زوجى مات. وجاء الدائن ليأخذ صغيرى عبدين له**)[2].

ومن المصادر كذلك بيع الحر كرقيق، والرق كعقوبة، تقول التوراة: (**إذا سرق إنساناً ثوراً أو شاه فذبحه أو باعه فيرد عن الثور خمسة ثيران، وعن الشاه أربع شياه وإذا ضبط السارق ينقب فضرب ومات فلا إثم على الضارب... فإذا لم يجد السارق ما يعوض به بيع (كرقيق) بسرقته**)[3].

جاء الإسلام إذن ونسخ كل هذه المصادر - ما عدا أسرى الحرب - يقول تعالى: **﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[4] فالمدين إذا كان معسراً، فلا سبيل على الدائن إلا أن ينتظره حتى يوسر. ولا سبيل على إجارته، لأن إجارته عمل بدنه، وإذا لم يكن على بدنه سبيل، وإنما السبيل على ماله، لم يكن إلى إستعماله سبيل، وكذلك لا يحبس لأنه لا سبيل عليه فى حاله هذه. وإذا قام الغرماء فأرادوا أخذ جميع ماله، ترك له من ماله قدر ما لا غنا به عنه.[5]

وقد خصص القرآن جزء من حصيلة الزكاة للوفاء بدين المدين المعسر، يقول تعالى: **﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**[6].

---

(1) المصدر السابق - ص 497.

(2) الملوك الثانى: 1.

(3) خروج: 7-3.

(4) البقرة: 280.

(5) الشافعى - الأم جـ3 - ص179 وما بعدها.

(6) التوبة: 60

والغارمين هم الذين ركبهم الدين، ولا وفاء عندهم به ولا خلاف فيه، اللهم إلا من أدان فى سفاهة، فإنه لا يعطى منهـا، ولا من غيرها إلا أن يتوب. ويعطى منها من له مال، وعليه دين محيط به، ما يقضى به دينه، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير، وغارم، فيعطى بالوصفين.(1)

وإذا كام الإسلام قـد نسخ الرق بالدين، فقد حرَّم كذلك بيع الحـر، سواء أكان الحر مـسلماً أم كـان غيـر مسلم، فـعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ- قـال: «**قال الله: ثلاثة أنا خـصمهم يوم القـيامة: رجـل أعطى بنى ثم غدر، ورجل باع حـراً فـأكل ثمنـه. ورجل إستـأجر أجيـراً فـاستـوفى منه ولم يعطى أجره**»(2).

وعلى ذلك لو أن قومـاً شهدوا على رجل أنه أعتق عـبده، والعبد ينكر والـسيد ينكر، فهـو حر، لأنه ليس له أن يرق نفسه، فـإثبات الحرية لمن يقبل أن يـسترق لا يتوقف على طلبه، فالآدمى لم يجعل محلاً للبيع ولا بحلول الرق فيه.(3)

والتسـاؤل الآن، إذا كان الإسـلام قد نسخ مصـادر الرق فى النصوص القـديمة فلماذا أبقى على الإسترقاق بالأسر ولم يلغه كما ألغى باقى المصادر؟

نقول: أن مـبدأ «المعـاملة بالمثل» قد أبى أن يخـتفى الرق نهـائياً - فى فـترة من الفترات - فالقانون الدولى السائد - فى هذه الفترة - كان يجوّز إسترقاق الأسرى، والدولة الإسلامية - مهما بلغت قوتها - لا تستطيع أن تفرض على المجتمع الدولى قاعـدة دولية بإرادتهـا المنفردة، ولكن كل ما تسـتطيع الدولة - حتى فى مـجتـمعنا المعاصر - أن تـفعله، وهى فى سبيلهـا لتبنى مبدأ دولى جـديد، هو أن تدعو باقى الدول للدخول معها فى معاهدة لقبول هذا المبدأ، والدولة التى تقبله تلتزم به، وهنا لن تستطيع الدولة صاحـبة المبدأ الجديد أن تخالف، ويكون فرضاً عليـها إتباعه فى

(1) تفسير القرطبى للآية 60 من سورة التوبة

(2) صحيح البخارى - كتاب البيوع - باب إثم من باع حراً

(3) أنظر - الكاسانى - بدائع الضائع - جـ5 - ص145 وما بعدها..

علاقاتهـا مع الدول التى قبلته، وهذه الأخيرة تكون ملتـزمة فيما بينهـا بإعمال هذا المبدأ، حتى إذا إنـتشر المبدأ واستـقر فى الضميـر الإنسانى، صار مبدأ عـالمياً يكون مفروضاً على الجميع، ولا يجوز لأحد مخالفته.

وتطبيقاً لما سبق، فقد جاء الإسلام بالمبدأ الجديد فى شأن معاملة الأسرى - وهذا المبدأ هو: (المن أو الفداء) وقد تقـرر هذا المبدأ فى قوله تعالى: ﴿ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[1] والمن: هو تحرير الأسير بدون مقابل، والفداء: هو مبادلة الأسرى بالأسرى من الطرف الآخر أو التعويض المالى أو بوضع شروط كشرط عدم العودة إلى الحرب مرة أخرى[2].

والأسير فى النظام القانونـى الإسلامى، لا يجبر أبداً على تغيير عـقيدته وإعتناق الإسلام، وقـد سبق أن ذكرنـا أن المبدأ هنا (لا إكراه فى الدين)، لـيس هذا فقط، ولكن القرآن قد أمرنا بمعاملة الأسرى وأمر بإطعام الأسير، وجعله أحد أعمال البر، يقول تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً﴾[3]. وعلى هذا، فالمصـدر الوحيد للرق فى الإسـلام هو مصدر مؤقـت بطبيعتـه، فهو إسـتثناء على الأصل - حرية الإنسـان - والإستثناء لا يجوز الـتوسع فيه، بل عـمل القرآن على حصره فى أضيق الحدود، فشرع لنا الكثيـر من أسباب تحرير الرقيق، ليؤكد على أن الرق فى الإسلام إنما كان مـؤقتاً، فهو مؤقتـاً حتى يحظى مبدأ منعه بقـبول المجتمع الدولى ككل، وحـتى يتم هذا القبـول، هو مؤقت لحـين إطلاق سراح الرقـيق فى أقرب وقت حيث أن أسباب تحرير الرقيق كثيرة فى الإسلام[4].

(1) محمد: 4.

(2) أنظر: د. محمد بدر - الديمقراطية الأثينية. مصدر سابق - ص 492.

(3) الإنسان: 8.

(4) تفسير ابن كثير للآية ٦٠ من سورة التوبة

أسباب تحرير الأسرى فى الإسلام:

ذكرنا أن الأسرى والرقيق - فى هذا المقام - مفهومان يختلطان ببعض، فالقرآن يدعو إلى العفو ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[1] والقاعدة فى معاملة الأسرى هى المن أو الفداء، والمصدر الوحيد للرق فى الإسلام - فى مرحلته المؤقتة - هو أسرى الحرب، فكان إطلاق حرية الرقيق هو فى حقيقة الأمر إطلاق حرية الأسير.

ومن أسباب تحرير الرقيق فى الإسلام:

1- سهم من موارد الدولة المالية لتحرير الأرقاء:

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[2] وقد جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يارسول الله دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار فقال: «إعتق النسمة وفك الرقبة» فقال: يارسول الله أو ليس واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها» وقال ابن عباس: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة[3].

2- التحرير تكفيراً:

وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تقول: بتحرير الأرقاء ككفارة عن بعض الذنوب التى يرتكبها المسلم، لفتح الطريق أمام تحرير أكبر عدد ممكن الأرقاء، ومن ذلك قوله تعالى ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ**

(1) الشورى 40.

(2) التوبة 60

(3) تفسير ان كثير للآية 60 من سورة التوبة

أَهْلِه وَتَحْرِيـرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1]

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

ويقول جل وشأنه: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

ويقول عز وجل: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[4].

وبإستقراء الآيات السابقة، نلاحظ أن تحرير الرقاب يكون دائماً هو الخيار الأول أمام المذنب، ولكن لماذا عدد القرآن الخيارات أمام المذنب؟ هذا لأمران! أولهما أن المذنب قد لا تسمح قدرته المالية على تحرير الرقبة، وثانيهما وهو الأهم: أن الله - سبحانه وتعالى وقد أحاط بكل شئ علماً - جعل من رق الأسير مرحلة مؤقتة، لحين إتفاق الإنسانية على المبدأ القرآنى فى معاملة الأسرى (المن أو الفداء) فحتماً سيأتى الوقت الذى ينتهى فيه الرق - وقد جاء - وهنا كان من الضرورى - وهنا

(1) النساء: 92.

(2) المائدة: 89

(3) المجادلة: 3 - 4.

(4) البلد 11 - 17

يتكشف لنا عظمـة التشريـع القرآنى - أن يكون هناك بدائل للكفـارات يلجأ إليـها المذنب فى حال إندثار الرق - من الحياة الإنسانية.

3- التحرير بالتسرى بالأمة أو الزواج منها:

التسرى بملك اليمـين يعنى مباشرة السيد الأمة جنسياً، وهو يتفق مع الزواج فى أهم عناصره، وهو عنصر القصر القانونـى للعلاقة الجنسية بالمرأة على رجل واحد. والمرأة فى هذا الوضع القانونى الجديد تعـود إليها حريتها بمجـرد الحمل وتصبح «أم ولد»[1] وفى هذا قول الإمام الشافعى: «إذا وطئ الرجل أمته بالملك فولدت له، لا يجوز لسيدها بيعها، وإذا لم يجز له بيـعها لم يحل له إخراجها من ملكه بشئ غير العتق، وأنها حرة - إذا مات. من رأس المال، وكما لا يـجوز بيعها لا يجوز لدائنيه أن يبيـعوها عليـه... والولد الذى تكون به الأمة (أم ولد) كل مـابان له خلق من سقط من خلق الآراميين: عين أو ظفر أو أصبع، أو غير ذلك..»[2] وأولاد الأمة بهـذا الوضع يولدون أحراراً، وإذا كـان الإسلام لم يقـيد الحـد الأقصى لعـدد من يتسرى به من الإمـاء، فهذا مرده إلى رغـبة الإسلام إلى تحرير أكـبر عدد ممكن من الإماء تمهـيداً للقـضاء نهائيـاً على نظام الرق. والتسـرى بملك اليمـين حلال بنص القرآن، لقـوله تعالى: **﴿وَالَّذِيـنَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾**[3].

وكذلك شجع الإسلام تحـرير الإماء والزواج منهن، وفى الحديث عن الرسول - ﷺ - قـــال: **«من كانت له جاريـة فأحسن إليها، ثم أعـتقها وتزوجـها كان له أجران»**[4].

---

(1) حول هذا المكوضـوع أنظر للمؤلف - زواج المتعـة بين الإباحة والتحـريم عند الشيعـة وأهل السنة. القاهرة 2005 م.

(2) الأم: ص88

(3) المؤمنون 5 - 6 ، والمعارج 29 - 30

(4) صحيح البخارى فى العتق وفضله - باب من أدب جاريته وعلمها

وقـد تسرى الـرسول - ﷺ - بمارية القـبطيـة، وهى الجـارية التى أهداها إليـه المقوقس، وأنجبت له ولده إبراهيم، وجدير بالذكر أن مـارية قد أسلمت هى وأختها سيرين قبل أن تـصلا إلى رسول الله - ﷺ - فبعث النبى - ﷺ - بأختـها سيرين إلى حسان بن ثابت، فولدت له عبد الرخمن بن حسان، وبذلك يكون كل منهن قد خلص من خطر الرق[1].

وكذلك أعتق رسول الله - ﷺ - صفية بنت حيى بن أخطب، وكانت من سبى خيـبر - وتزوجهـا، فعن أنس بن مـالك أن النبى - ﷺ - سبى صـفية فـأعتقـها وتزوجـــهـا[2]. وصفـية كان أبوها سيـد قريظة والنضيـر، وظاهر هنا أن الأخلاق الكريمـة تأبى أن يجمع على بنت سـيد القـوم، بعد الهـزيمة، الرق والحيـاة على مستـوى أقل رتب الجيش المنتصـر قدرة إقتصادية ومـكانة إجتماعيـة، ومن ثم كان الأوفق أن يوكل أمرها إلى رئيس القوم المنتصـر، وقد أضاف النبى - ﷺ - مكرمة جـديدة هى التحـرير من الرق ثم مكرمـة أخـرى هى الدفع إلى مـستـوى أمهـات المؤمنين[3].

4- التحرير تعويضاً للعبد عما لحقه من أذى أو عقوبة لا يستحقها:

خطوة أخرى يخطوها الإسـلام وهو فى سبيله إلى القضاء عـلى الرق تدريجياً، فجعل أذى العبد بأن ينكل به، أو أن يُحـد حداً لم يأته أن يكون جزاء هذه الأفعال وكفارتها هو العتق. فقـد روى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال: **«من ضرب غلاماً له حداً لم يأته، أو لطمه، فإن كفارته عتقه»**[4] وفى هذا دليل على معـاملة العبيد معـاملة إنسانية، فى وقت كانت النظـم القانونية

(1) تاريخ الطبرى - أحداث سنة 7هـ. وسيرة ابن هشام جـ ص.

(2) صحيح البخارى - باب غزوة خيبر.

(3) د. محمد بدر - مصدر سابق - ص 521 - الحاشية.

(4) صحيح مسلم - كتاب الأيمان والنذور - باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده.

رومانية أو يونانية - تعامل العبيد معاملة الحيوان، حيث كان يُضرب ويُهان ويُقتل، ولا شئ على سيده.

5- التحرير تقرباً إلى الله تعالى:

جعل الإسلام تحرير الأرقاء وسيلة من وسائل القربة إلى الله تعالى، ووضعه ضمن أعمال البر والتقوى، يقول سبحانه وتعالى: **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾**(1).

ويؤكد رسول الله - ﷺ - على كم الثواب الذى يحصل عليه من أعتق عبداً فيقول: «**من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فَرْجه بفَرْجه**»(2).

6- التحرير بأن يكاتب السيد عبده:

والكتابة عقد يعقد بين السيد وعبده بتحديد التعويض الواجب للسيد وترك العبد يعمل مستقلاً للوفاء بالقيمة المتفق عليها مقسطة على أقساط يحددها العقد فإذا تم الوفاء بها جميعاً صار العبد حراً نهائياً(3).

يقول الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾**(4).

---

(1) البقرة: 177

(2) صحيح مسلم - باب فضل العتق

(3) د محمد بدر الديمقراطية الأثينيه ص 529

(4) النو 33

ويقول القرطبى فى تفسير هذه الآية: الله تعالى، أمر المؤمنين كافة أن يكاتب كل من له مملوك، وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده منه خيراً.

وفى الآية الكريمة ليس مجرد الأمر بالكتابة، ولكن أمر للمجتمع ككل أن يعينوا العبد حتى يسدد كل ما هو مستحق عليه ليعيش فى نعيم الحرية وهذا واضح جلى من قوله تعالى: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ﴾.

ومن هذا العرض يتضح لنا أنه فى الوقت الذى كان يعيش فيه الأسرى، والمغلوبون على أمرهم فى ذل العبودية والرق، إعمالاً لنصوص القوانين الدولية التى لم تكن تحمل بين طياتها إلا الظلام الحالك لمن يقع فى شباكها، نقول أنه فى هذا الوقت جاء الإسلام ليمحى بنوره هذا الظلام، ويرفع الظلم عن مثل هؤلاء، فقرر المبدأ، وعرضه على الشعوب، إلا أن الاستجابة جاءت متأخرة، وخلال هذه الفترة وضع الإسلام الأسس الإنسانية لمعاملة هؤلاء الأرقاء، ودعا إلى تحريرهم بطرق عدة، لحين إستقرار المبدأ القرآنى فى محو الرق، والذى كان مصدره الوحيد - فى الإسلام - هو أسرى الحرب إعمالاً لقاعدة المعاملة بالمثل على التفصيل السابق بيانه.

الباب الثانى
غزوات الرسول وسراياه

يطلق المؤرخون مصطلح غزوات على الحروب والمعـارك التى شارك فيها الرسول ﷺ بنفسه، أما السرايا فيقصـدون بها المعارك والحروب التى نشبت فى حياة الرسول - ﷺ - ولم يشارك فيها.

وقبل أن نعـرض لهذا الموضوع يكـون حرى بنا أن نعرض لبـعض صور الأذى، والتعـذيب التى كانت سـبباً فى هـجرة الرسول - ﷺ - ومـسلمى مكة إلى المدينة حيث أسسوا دولة الإسلام.

فصل تمهيدى

ما لقاه الرسول والمسلمين من أذى قريش:

بمجرد أن جـهر محمـد ﷺ بدعوته، ازداد أتباعـه، وكانت زيادتهم فى اضطراد مستمر، مما أرّق سادات قريش، فعمدوا إلى تعذيب من يقدروا عليه من المسلمين - وبخاصـة العبيد - حـتى يكون عبرة لغيـرة، اعتقاداً منهم أن هذه الوسـيلة ستكون قامعة لمحمد - ﷺ - وستكون سبباً لانفضاض أصحابه من حوله.

فهاهم رجال قريش وثبوا إليـه - ﷺ - وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذى تقول كذا وكذا لمـا كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فـيقول رسول الله - ﷺ - : **«نعم أنا الذى أقول ذلك»** فجاء رجل منهم أخذ بمجمع ردائه، وكادوا أن

يقـتلوه، فـقـام أبو بكـر - رضى الله عنه - وتدخل بينه وبيـن القـوم، وهو يبكى ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟ ثم انصرفوا عنه[1].

ثم إنهم عدوا على من أسـلم، واتبع رسول الله - ﷺ - من أصحـابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، برمضـاء مكة إذا اشتد الحر، من اسـتضعفوا مـنهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه، ومنهم من يتحمل، ويعصمه الله منهم[2].

ولعل قصة تعذيب بلال تحمل فى طياتها أشد مـعانى القسوة، وتظهر ما أضمرته قـريش من كره للدين الجـديد، (وكـان بلال مولى أبـى بكر - رضى الله عنهمـا- لبعض بنى جمح، وهو بلال بن رباح، وكان اسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية ابن خلف بن وهب بن حذاقة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة، فـيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمـر بالصخرة العظيمـة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفـر بمحمد، وتعبد اللات والعزى؛ فيـقول وهو فى ذلك لبلاء: أحد أحد، ولم يـتخلص من هذا العذاب إلا بعد أن أنقذه أبو بكر وأعتقه)[3].

ويشتد أذى قريش لرسـول الله - ﷺ - فكان أبو جهل يقول للناس: إنه كذاب يحرم الخـمر ويحرم الزنا، فبـينما النبى - ﷺ - يصلى فى ظل الكعبـة إذ قام أبو جهل فى ناس من قريش ونحر لهم جذوراً فى ناحـية مكة، فأرسلوا فجاءوا بسلاها وطرحوه عليه فجاءت فاطمة وألقته عنه فقال النبى - ﷺ - **«اللهم عليك بقريش، للهم عليك بقريش، اللهم عليك بقـريش، بأبى جهل بن هشام، وعتبـة بن ربيعة، وشيبـة بن ربيعة، والوليد بن عتبـة، وأمية بن خلف، وعقبـة بن أبى معيط»** ثـــم اجتمـعوا يوماً ورسول الله - ﷺ - يصلى عند المقام وهم جـلوس فى ظل الكعبة،

---

(1) سيرة ابن هشام . جـ 1 - ص 201، وتاريخ الطبرى - أحداث ما قبل الهجرة جـ 1 ص 337

(2) سيرة ابن هشام : جـ 1 ص 220

(3) المصدر السابق والصفحة

قام إليه عقبة بن أبى معيط جعل رداءه فى عنقه ثم جره حتى وجب النبى - ﷺ- لركبته ساقطاً وتصايح الناس وظنوا أنه مقتول[1].

التعذيب والأذى يحيط بالمسلمين فى كل مكان، حتى أنه فُتن منهم خلق كثير، فلم يكن أمام هؤلاء المستضعفين إلا الفرار بدينهم إلى مكان آمن، يعبدون فيه ربهم، فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة فى رجب فى السنة الخامسة من البعثة[2].

كان لإسلام عمر بن الخطاب ومن قبله حمزة بن عبد المطلب أكبر الأثر فى عزة الإسلام، ففشا الإسلام فى القبائل، ووجدت قريش أن أسلوب التعذيب لم يؤت ثماره المرجوة فى القضاء على الدين الجديد، فلجأت قريش إلى المقاطعة الاقتصادية وفرضوا حصاراً اقتصادياً على المسلمين استمر قرابة ثلاث سنوات «فكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه، على ألا ينكحوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً بذلك الأمر على أنفسهم»[3].

ثم إن أبا طالب وخديجة هلكا فى عام واحد، قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنين فعظمت المصيبة على رسول الله - ﷺ - بهلاكهما، وذلك أن قريشاً، وصلوا من أذاه بعد موت أبى طالب مالم يكونوا يصلون إليه فى حياته منه، حتى نثر بعضهم على رأسه التراب، فدخل رسول الله - ﷺ - بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب، وهى تبكى ورسول الله - ﷺ - يقول لها: **يابنية ، لا تبكى فإن الله مع أباك**[4].

كان على رسول الله - ﷺ - أن يهيئ للدعوة المكان المناسب، والحماية الكافية، ففى مكان محاط بالأعداء من كل جانب، وفى ظل ظروف القهر والتعذيب التى

(1) ابن حبان - السيرة النبوية وأخبار الخلفاء ص ,46

(2) تاريخ الطبرى - أحداث ما قبل الهجرة جـ ١ص 33.

(3) المصدر السابق - ص 338

(4) المصدر السابق

أحاطت بالمسلمين، كـان المرء يتردد ألف مرة قبل الدخـول فى الدين الجديد، اتقاءاً للشر الذى سيلحقه، حتى كانت بيعة العقبة الأولى، ثم العقبة الثانية[1] وبناءاً على هاتين البيعـتين تم اختيار المدينـة مركزاً للدعوة الجديدة، وصـدر الأمر من القائد - ﷺ - إلى أتباعه بالهجرة إلى المدينة حيث الأمن والأمان، وأخذ المسلمون يهاجرون فرادى وجماعات، تاركين دورهم وأموالهم ناجين بدينهم وحياتهم.

«فلما رأت قـريش أن رسول الله - ﷺ - قد صـارت له شيعة، وأصـحاب من غيرهم، بغير بلادهم (الأنصار بالمدينة) ورأوا خـروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله - ﷺ - إليهم، فأجـمعوا له فى دار الندوة، وهى دار قصى بن كـلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيـها، يتشاورون فيها ما يصنعـون فى أمر رسول الله - ﷺ - حين خافوه»[2].

وفى اجتمـاعهم بدار الندوة عقدوا النية علـى قتله - ﷺ - وصاحب هذا الرأى هو أبو جهل بـن هشام الذى قال- بعـد رفض العديد من الآراء: والله إنى لى فـيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد؟ قالوا: وما هو ياأبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة، فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدون إليه، ثم يضـربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنسـتريح فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبـائل كلها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومـهم جميعاً ورضوا منا بالعقل فعقلناه لهم[3].

وتتخـذ قريش خطواتها لتنفـيذ الاتفاق، وهنا يظهـر علىّ بن أبى طالب، كأول فدائى فى الإسلام، فينام مكان رسول الله - ﷺ - ويـتغطى ببرده الأخضر، ويظن

---

(1) وكانت هذه البـيعة فى ذى الحجـة قبل هجرة النبى - ﷺ - إلى المدينة بثلاثـة أشهر. ابن حيان - السـيرة النبوية وأخبار الخلفاء - ص ٥٦.

(2) تاريخ الطبرى - جـ ١ ص 340

(3) المصدر السابق جـ ١ ص 350 ورضوا منا بالعقل فعقلناه لهم أى رضوا بالدية فدفعناها لهم.

المشركون أن النائم هو رســول الله، وبعد طول انتظار يدخل المشركون الدار، فـيقوم عليّ - رضى الله عنه - عن فراشه فلما دنوا منه عرفوه ، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدرى. أو رقيـباً كنت عليه؟ أمرتموه بالخـروج فخرج فانتـهروه، وضربوه، وأخرجوه إلى المسجد فحـبسوه ساعة، ثم تركوه[1]. وفى هذه الأثناء كـان ﷺ فى طريقة ومعــه أبى بكر - إلى غار ثور كمرحلة أولى قبل الوصــول إلى المدينة، مركز الدعوة المحمدية، ومنها انبثق نـور الإسلام ليعم أرجاء الأرض، ولكن رغم الحماية والأمن، والانتقال من مـجتمع وثنى إلى مجتـمع إسلامى، رغم كل هذا لم يسلم المسلمون من كيد الأعداء، الذين حاولوا وأد الدولة الإسـلامية فى مهدها، لذا كان لزاماً على النبى - ﷺ - بوصفة قائد هذه الدولة، بل ولزاماً على سائر المسلمين أن يدافـعوا عنهـا ضد أى اعـتداء خـارجى، فكانت غـزوات الرسول وسـراياه، تلك الغزوات التى جاءت منسجمة مع النظريـة القرآنية فى الحرب التى أرست مبدأ حظر اللجـوء إلى القوة إلا للدفـاع، وقننت مبـدأ المعاملة بالمثل فى الـعلاقات الدولـية، فجاءت تلك الحروب التى خـاضها محمد - ﷺ - مـدافعة عن الإسلام لا مكرهة على اعتناقه.

(1) انظر المصدر السابق والصفحة

الفصل الأول
سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم

ذكرنا فى موضع سابق، أن المؤرخين يطلقون مصطلح غزوة على المعركة التى شارك فيها محمد - ﷺ - ومصطلح «سرية» على المعركة التى لم يشارك فيها.

ولنا هنا رأى- خاصة فيما يخص السرايا - فالسرية لم يكن هدفها الحرب والقتال- كقاعدة - ولكن الغرض منها إما الاستطلاع لتأمين حدود الدولة، أو القيام بنشر الدعوة وتفقيه الناس فى الدين[1] وفى الحقيقة، فإن تحليلات المؤرخين - خاصة القدامى - لهذا السرايا يعطى إيحاءاً بأن محمداً - ﷺ - كان يعطى أوامره للجيش بمهاجمة القبائل بين الحين والآخر، بسبب وبدون سبب، لإجبارهم على اعتناق الإسلام، وهذا يتنافى مع ما قررته النظرية القرآنية - السابق عرضها - فى شأن القتال، ويتنافى هذا التحليل كذلك مع إعمال العقل، فكيف يرسل رسول الله - ﷺ - كل هذه السرايا بهدف الحرب خاصة فى أول سنتين من قدومه المدينة ولم يكن جيشه يتعدى الثلاثمائة إلا بقليل؟ فهل يسمح هذا العدد بالمهاجمة هنا، والمحاربة هناك؟

وحتى يتأكد لنا صحة التحليل السابق، علينا أن نعرض نماذج لبعض السرايا التى كان الغرض منها استطلاع العدو - خشية الهجوم المفاجئ على المدينة - ونعرض كذلك لبعض السرايا التى كان هدفها نشر الدعوة بين القبائل.

أولا: سرية سيف البحر:

ضمت هذه السرية ثلاثين من المهاجرين، وكان الأمير عليهم حمزة بن عبد المطلب، وذلك فى شهر رمضان، أى خلال سبعة أشهر من الهجرة، وكان الغرض من إرسال هذه الفرقة الاستطلاعية، استكشاف ساحل البحر، وهو الطريق الذى

---

(1) وستتضح لنا حالاً صحة هذا التحليل.

اعتادته قريش فى تجارتها، فهدف الرسول كان معرفة المسافة الفاصلة بين المدينة وبين هذا الساحل (ساحل البحر الأحمر) لوضع حسابات دقيقة لرد أى هجوم محتمل من قريش، وأثناء المهمة لقى حمزة أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة، وكان هؤلاء يمثلون قاعدة حربية لحماية الطريق التجارى وتأمينه، ونظراً لقربهم من المدينة كان من الضرورى إرسال فرق الاستطلاع بين الحين والآخر[1].

ثانيا: سرية عبد الله بن جحش:

بعث رسول الله - ﷺ - هذه السرية فى آواخر جمادى الآخر فى السنة الثانية من الهجرة وكان قوامها ثمانية جنود من المهاجرين[2].

وكان أمير هذه السرية عبد الله بن جحش، وكتب رسول الله - ﷺ - له كتاباً، وأمره الا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضى له أمره به، ولا يستكره أحداً من أصحابه، فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، ونظر فيه فإذا فيه **«وإذا نظرت فى كتابى هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم»** فلما نظر عبد الله فى الكتاب، قال: سمع وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله - ﷺ - أن أمضى إلى نخلة، فأرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحد منكم، فمن كان منكم يرى الشهادة، ويرغب فيها، فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله، فمضى ومضى معه أصحابه، فلم يتخلف منهم أحد[3].

---

(1) انظر تاريخ الطبرى - أحداث السنة الاولى من الهجرة، وهو يردى رواية ابن اسحق فيقول: «فلقى (يعنى حمزة) أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى، وكان موادعاً للفريقين جميعاً فانصرف القوم بعضهم عن بعض. ولم يكن بينهم قتال.

(2) هذا فى رواية ابن إسحق، أما الواقدى فذكر أنهم اثنى عشر، وفى رواية السدى سبعة نفر. انظر تاريخ الطبرى - أحداث السنة الثانية من الهجرة.

(3) المصدر السابق.

واضح من الرواية السابقة، أن الغرض من هذه السرية هو استطلاع أحوال قريش العسكرية، وواضح كذلك أن عمليات الاستطلاع كانت تعرض المسلمين لكثير من المخاطر، وكانت تكلفهم خسائر فى الأرواح، فلم تكد قوات قريش تلمح أى فرقة استطلاعية حتى تشن عليها هجوماً ضارياً، وهذا واضح جلى من قول عبد الله بن جحش لأعضاء فرقته الاستطلاعية: «فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها، فينطلق». وقد يقول قائل أن مقولة عبد الله بن جحش تعنى أن هذه السرية إنما ذهبت لتشن غارة على قواعد قريش العسكرية، لكن يُرد على هذا بأن عدد أفراد السرية لا يسمح بشن أى غارة، فكيف تشن غارة بقطعة من الجيش قوامها ثمانية رجال إن هذا يعنى أن هذه السرية لن يرجع منها أحد سالماً، خاصة وقد سبق ورأينا فى سرية سيف البحر، أن قاعدة قريش العسكرية قد بلغت ثلاثمائة جندى. إذن يتأكد لنا بعد هذا العرض أن هذه السرية - وغيرها كثير - إنما كان الغرض منها استطلاعياً، لتوقى أى هجوم مفاجئ من قريش.

نعود مرة إخرى لتتبع خبر هذه السرية، فقبل أن تصل السرية إلى الموقع الذى حدده قائدهم - ﷺ - تخلف سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، حيث كانا يتعقبان بعيراً لهما قد شرد عن الطريق فأصبح عدد أفراد الفرقة خمسة رجال وفقا لرواية ابن اسحق، وعشر وفقا لرواية الواقدى، وخمسة وفقا لرواية السدى، وتصادف فى هذه الأثناء مرور قافلة من قوافل قريش، وكان معها كالعادة عدد من الحراس، فأبصروا فرقة الاستطلاع، وعرفوهم، فكلهم من المهاجرين[1] فكان من الطبيعى أن يهاجم حرس القافلة فرقة الاستطلاع، خاصة وأن عددهم قليل،

(1) ذكرهم ابن اسحق وهم. أبو حذيفة بن عتبة، وعكّاشة بن مِحْصَن بن حُرثان حليف بنى أسد بن خزيمة، وعتبة بن غزْوان حليف بنى نوفل، وسعد بن أبي وقاص الزهرى، وعامر بن ربيعة الوائلى حليف بنى عدى، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف حليف بنى عدي أيضاً، وخالد بن البكير أحد بنى سعد بن ليث حليف بنى عدى أيضاً، وسهل بن بيضاء الفهرى، فهؤلاء سبعة ثامنهم أميرهم عبد الله بن حجش رضي الله عنه انظر صفوة السيرة النبوية لابن كثير ج م ع وزارة الأوقاف- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط 24 14 . هـ 2002 م - جـ 2 ص 179 وانظر كذلك سيرة ابن هشام جـ 2 ص 206

فاقتتلوا، فأسروا من حرس القافلة الحكم بن كيسان وعبد الله بن المغيرة، وقُتل منهم عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله. وأراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين، فقال النبى - ﷺ - :«حتى ننظر ما فعل صاحبانا» فلما رجع سعد بن أبى وقاص، وصاحبه فادى الأسيرين، فأما الحكم بن كيسان، فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله - ﷺ - حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً[1] فالقتال الذى وقع هنا لم يكن إلا قتالاً للدفاع عن النفس، فإما أن يقتلوا أو يُقتلوا، فحرس القافلة لم يكونوا ليتركوهم راجعين سالمين، وسترى كيف أن هذا القتال كان هو السبب الرئيسى لنشوب موقعة بدر الكبرى.

ثالثاً: سرية الرجيع:

وهذه السرية أوضح مثال على أن الهدف الرئيسى من السرايا هو نشر الدعوة سلماً لا حرباً، وكانت فى صفر فى السنة الرابعة من الهجرة، ويروى الطبرى خبر هذه السرية عن ابن اسحق فيقول: قدم على رسول الله - ﷺ - (بعد غزوة أحد) رهط من عضل والقارة، فقالوا له: يارسول الله ، إن فينا إسلاماً، وخيراً فابعث لنا نفر من أصحابك يفقهونا فى الدين ويقرءونا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله - ﷺ - معه نفراً ستة من أصحابه مرثد بن أبى مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب (وهو أمير القوم) وخالد بن البكير حليف بنى عدى بن كعب، وعاصم بن ثابت ابن أبى الأفلح أخا بنى عمرو بن عوف، وخبيب بن عدى أخا بنى جحجبى بن كلفة بن عمرو بن عوف، وزيد بن الدثنة أخا بنى بياضة بن عامر، وعبد الله بن طارق حليف لبنى ظفر من بلى: فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية من الحجاز من صدور الهدأة، غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا بالرجال فى أيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا بأسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد

(1) انظر المصدر السابق، وتاريخ الطبرى - أحداث السنة الثانية من الهجرة

قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم، فأما مرثد وخالد بن بكير وعاصم فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً فقاتلوهم حتى قتلوهم جميعاً، وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق فلانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها..»(1) وفى النهاية قتلوا جميع أفراد السرية، الذين بُعثوا كدعاة لا كمحاربين، لذا سترى كيف أن رسول الله بعد هذا الحادث بالذات - كان يمد سراياه بعدد كافٍ من المحاربين لحمايتهم من أى غدر أو عدوان، وهم فى سبيلهم إلى نشر الدعوة المحمدية كما أمره بها الله، تلك الدعوة التى قوامها المجادلة بالتى هى أحسن، والتى تنأى عن المبادرة بأى هجوم عسكرى.

رابعاً: سرية بئر معونة:

سرية أخرى تلقى حتفها فى نفس الشهر (صفر سنة أربع من الهجرة) وخبر تلك السرية أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر (مُلاعب الأسنة) قدم رسول الله - ﷺ - بالمدينة، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يجحد، وقال: يامحمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك ورجوت أن يستجيبوا لك. فقال - ﷺ - إنى أخشى عليهم أهل نجد.

وقد ذكرنا كيف كان مقتل سرية الرجيع، فقال أبو براء: أنا لهم جار، يعنى أنهم سيكونون فى حمايته، فبعث رسول الله - ﷺ - أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين، وكان هدف الرسول - ﷺ - من هذا العدد الكبير - مقارنةً بالسرايا السابقة - مزدوجاً، فمن ناحية يكونوا قادرون على حماية أنفسهم من أى عدوان محتمل، ومن ناحية أخرى إرسال عدد كبير من الدعاة حتى تؤتى الدعوة ثمارها، إلا أن القوم عند بلوغهم بئر معونة (وهى بين أرض بنى عامر وحرةٍ بنى سليم) خرج عليهم قبائل من بنى سُليم وعُصيَّة، ورِعلا، وذكوان، والقارة وكان

(1) تاريخ الطبرى - أحداث السنة الرابعة من الهجرة، وصفوة السيرة جـ 3 ص 5 وسيرة ابن هشام جـ 3 ص

خروجـهم على سرية الدعاة تلبيـة لنداء عامر بن الطفـيل، فخرجوا حـتى أحاطوا بالسرية، فلمـا رأوهم أخذوا أسيافـهم ثم قاتلوا القوم حتى قـتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد أخا بنـى دينار بن النجار، فإنهم تركوه به رمق، فـعاش حتى قُتل فى غزوة الخندق[1].

خامساً: سرية ذات السلاسل:

وجَّه رسول الله - ﷺ - هذه السرية[2] فى جمادى الآخرة من السنة الثامنة من الهجـرة، وكان أميـرها عمرو بن العـاص، وقد بعـثه رسول الله - ﷺ - يسـتنفر العرب إلى الإسلام، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بنى بلـىّ، فبعثه رسول الله - ﷺ - اليهم ليتألفهم بذلك، فتميل قلوبهم إلى الإسلام، وكانت عدة السرية ثلاثمائة، وكما ذكـرنا آنفاً أن كثرة عدة السرايا التى تُبـعث للدعوة كان فى ازدياد لما كانت تتعرض له هـذه السرايا من هجمات سواء من القبائل الـتى وجهت اليها، أو من القبائل المحيطة بها، فلما وصل عـمرو إلى ماء بأرض جذام يقال له السلاسل - وبه سميت تلك السرية ذات السلاسل- فلـما وصل إليه وخاف قلة العدد بعث إلى رسول الله يستمـده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهـاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر فى مائتين ، فكان جميعهم خمسمائة، وقال لأبى عبيدة (لا تختلفا)[3] فالسرية إذن كان هدفها تأليف القلوب وليس الحرب.

سادساً: سرية علىّ بن أبى طالب إلى اليمن:

هذه السـرية، والظروف التى وجهت فـيهـا، على درجة كـبيـرة من الأهمـية، فباستقراء أحداثها يستطيع الباحث أن يخرج منها نتائج غاية فى الأهمية، وخبر هذه السرية كما رواه البراء بن عازب: «كنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد (إلى اليمن)

---

(1) انظر سيرة ابن هشام - جـ 3 ص 119 ، وصفوة السيرة جـ 3 - ص 59 ، وتاريخ الطبرى أحداث السنة الرابعة من الهجرة.

(2) معـروفة فى كتب التاريخ بغـزوة ذات السلاسل، ولكن لما كان رسـول الله - ﷺ - لم يشارك فيه بنفسـه فاعتبرتها من ضمن السرايا.

(3) انظر المصادر السابقة.

فأقمنا ستة أشهر، يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، ثم أن رسول الله - ﷺ - بعث على بن أبى طالب وأمره أن يقفل (يرجع) خالداً، إلا رجلاً كان ممن خرج مع خالد فأحب أن يعقب مع على فليعقب معه».

قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علىّ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، ثم تقدم بنا فصلى بنا علىّ، ثم صفَّنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله - ﷺ - فأسلمت همدان جميعاً فكتب علىّ إلى رسول الله - ﷺ - بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله - ﷺ - الكتاب خر ساجداً قم رفع رأسه فقال: **«السلام على همدان السلام على همدان»**[1].

هذا عن خبر هذه السرية - وكانت فى رمضان فى السنة العاشرة من الهجرة - أما عن النتائج - والتى تتضح إلينا بجلاء - من خلال تحليل خبر هذه السرية فهى كالتالى:

1 - إن الغرض من إرسال هذه السرية يتمثل فى دعوة أهل اليمن إلى اعتناق الإسلام.

2 - الدعوة إلى الإسلام تحتاج إلى الصبر، فخالد بن الوليد استمر ستة أشهر، ولم يجبه أحد، ومع ذلك لم ييئس رسول الله ﷺ من دعوتهم، وكل ما فعله هو إرسال داعية جديد، يكون له من طلاقة اللسان، والجدال بالتى هى أحسن ما يؤهله إلى استمالة القلوب نحو الإسلام، وكل هذا توافر فى علىّ بن أبى طالب.

3 - إن خالداً وقد كان قلبه قلب محارب لم يحارب القوم قط رغم رفضهم وتعنتهم، وذلك لعلمه التام أن الدعوة المحمدية تأبى قتال القوم لإكراههم على الدخول فى الإسلام، وذلك إعمالاً لقوله تعالى: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾**.

---

(1) صفوة السيرة النبوية جـ 4 ص 160، وانظر تاريخ الطبرى حيث ذكر أن سرية علىّ كانت فى رمضان فى السنة العاشرة مں الهجرة

4 - لا يمكن القول بأن هناك حداً أقصى لدعوة قوم إلى الإسلام، فإن رفضوا يكون السيف، فخـالد بن الوليد استمر سنة أشهـرولـم يوفق، فأرسل رسول الله - ﷺ - عليّ بن أبى طالب، وإذا كان علـياً قد لحقـه الفشل لأرسل - ﷺ - غيره.

الفصل الثانى
غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

ذكرنا فيما سبق أن المؤرخين يطلقون مصطلح غزوة على المعارك التى شارك فيها رسول الله ﷺ، لكن يتكشف لنا - بعد إستقراء غزوات الرسول ﷺ كما وردت فى كتب السيرة وفى كتب التاريخ - ينكشف لنا أن مصطلح غزوة كان يطلق على كل خروج للنبى ﷺ من دولة الإسلام (المدينة سواء لعقد معاهدات، أو لأداء عمرة، حتى أنهم عدوا خروجه للعمرة فى السنة السادسة، وعمرة القضاء فى السنة السابعة من قبيل الغزوات[1]، وعلى ذلك فمصطلح غزوة نطاقه أوسع من نطاق المعارك التى خاضها ﷺ وهو فى سبيل إلى الدفاع عن دولة الإسلام، فالمصطلح يتسع ليشمل خروجه لعقد المعاهدات، وخروجه لأداء العمرة، ولما كان خروجه لعقد معاهدة أو لأداء عمرة مشوباً دائماً بالخطر، لاحتمال وقوع أى عدوان عليه، فقد أعد المؤرخون هذا الخروج من قبيل الغزوات.

ولعل هذا التحليل يوضح لنا سبب الخلاف فى عدد غزوات الرسول ﷺ، فالبعض يعدهم سبع وعشرين أو ست وعشرين، والبعض الآخر يحصرهم بين تسع عشرة وست عشرة غزوة، فكان لكل منهم وجهة نظره فيما يعد من غزوات الرسول ﷺ، وفيما يخرج عن نطاق هذه الغزوات[2].

ولنلق الآن نظرة تحليلية على أهم غزوات الرسول ﷺ، لنرى مدى إتساق أحداث هذه الغزوات مع ما قررته النظرية القرآنية فى الحرب، وفى أسلوب الدعوة إلى الإسلام.

---

(1) أنظر تاريخ الطبرى جـ 2 ص491: حيث نقل عن ابن إسحق أن عدد غزوات الرسول ﷺ ست وعشرين غزوة، ذكر منها غزوة الحديبية وعمرة القضاء.

(2) أنظر المصدر السابق، وقارنه بما ورد فى صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب كم غزا النبى ﷺ، وأنظر كذلك مسلم كتاب الجهاد - باب عدد غزوات النبى ﷺ

أولاً: غزوة ودان أو الأبواء:

كانت هذه الغـزوة فى شهر صفـر من السنة الثانية مـن الهجرة، ولم يكن فيـها قتال، وواضـح من إستقراء النص التـاريخى، أن الغرض من هذه الغزوة كـان عقد معـاهدات السلام لمنع أى حروب مـستقـبلية، يقـول ابن إسحق بعد أن ذكـر قدوم رسول الله ﷺ المدينة فى شهـر ربيع الأول: «.. فأقام شهـر ربيع الأول وجمادين ورجباً وشـعبان وشهـر رمضان وشوالاً وذا الحـجة، وولى تلك الحجة المـشركون، والمحرم، ثم خـرج رسول الله ﷺ غازياً فى صفـر على رأس إثنى عشر شـهراً من مقدمـه المدينة، حتى بلغ ودَّان وهى غزوة الأبواء، يريد قريشاً وبنى ضـمرة، وكان الذى وادعه منهم مَخْشِيُّ بن عمـرو الضمرى، وكان سـيده فى زمانه ذلك، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً»[1].

وواضح من النص أنه بمجرد المـوادعة التى تمت بين رسول الله ﷺ وبنى ضـمرة عاد مباشرة إلى المدينة دون حرب أو قتال.

ثانياً: غزوة بواط:

وكانت فى ربيع الأول عن السنة الثانية، وكل مـا ذكوه ابن إسحق - ومعه باقى المؤرخين - عن هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ غزا فى شهر ربيع الأول يريد قريشاً، حتى بلغ بواط، من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولـم يلق كيداً[2].

والنص الذى نُقل عن ابن إسحق، لم يُذكر به وقوع قتال بين قريش والمسلمين، ويبدو أن الغرض من هذه الغزوة هو إستطلاع أحوال العدو القريشى.

أما الواقدى فله رأى آخر فى تفصيل خبر هذه الغزوة فيقول: «ثم غزا رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه، حتى بلغ بواط فى شـهر ربيع الأول ليعترض لعيرات

---

(1) أنظر - سيرة ابن هشام جـ2 ص 198، صفوة السيرة النبوية جـ2 ص175، وتاريخ الطبرى أحداث السنة الأولى من الهجرة، ويذكر الطبرى أن غزوة الأبواء كانت فى ربيع الأول فى السنة الثانية.

(2) سيـرة ابن هشام جـ2 ص204، وصفوة السـيرة جـ2ص177، وتاريخ الطبرى أحـداث السنة الأولى عن الهجرة

قريش، وفيـها أمية بن خلف، ومائة رجل من قـريش، وألفان وخمسمـائة بعير ثم رجع، ولم يلق كيداً»[1].

ويبدو أن الواقدى ومعـه كثيراً من المؤرخين - قد أعتـقدوا - خطئاً - أن رسول الله ﷺ فى بعض غزواته وسراياه كـان يعترض قوافل قريش ويستـولى عليها، وأن هذا الإستيلاء حق له ولمهاجـرى المسلمين، ولكن هذا الفهم خاطئ، وسنوضح هذه النقطة عند الحديث عن غزوة بدر الكبـرى إن شاء الله تعالى، ولكن نعلق على قول الواقدى هنا فنقـول، أنه لو كان رسول الله ﷺ قد تعـرض فى هذه الغزوة - أعنى غزوة بواط - لقـافلة قريش، وبها مائة رجل لوقع القـتال حتماً دفاعـاً عن القافلة، وهذا لم يقل به أحد من المؤرخين أو أصحاب الحديث، علاوة على أن كتب التاريخ لم تذكر لنا أن المسلمين قد أغتنموا هذه القافلة.

ثالثا: غزوة العشيْرة:

وكانت فى جمادى الأول من الـسنة الثانية للهجرة، وكان الغـرض منها هو عقد المعاهدات، يقول ابن اسحق بعدما ما تتبع الطريق التى سلكها رسول الله ﷺ: «.. حتى نـزل العشيـرة من بطن ينبع. فـأقام بهـا جمادى الأولـى وليالى من جـمادى الآخرة، وادع فـيها بنى مُدْلج وحلفـاءهم من بنى ضَمْرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً»[2].

رابعا: غزوة بدر الأولى:

والغـرض من هذه الغـزوة كان للـدفاع عن المدينـة على أثرهجـوم قام به أحـد المشركـين عليها، قـال ابن اسحق: « ولم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حـين قدم من غزوة العشيرة إلا ليالى قلائل لا تبلغ العـشر، حتى أغار كُرْز بن جابر الفهرى على سرح [3] المدينة، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر، وفاته كُرْز بن جابر، فلم يدركه، وهى غزوة بدر الأولى»[4].

(1) تاريخ الطبرى - أحداث السنة الثانية من الهجرة، وصفوة السيرة جـ 2 ص 177.

(2) أنظر المصادر السابقة. وسيرة ابن هشام جـ2 ص204.

(3) مايرعى من الغنم.

(4) سيرة ابن هشام جـ2 - ص206، وصفوة السيرة جـ2- ص179.

خامساً: غزوة بدر الكبرى:

كانت غزوة بدر الكبرى يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة[1]، والغرض الأساسى من دراسة هذه الغزوة - بل وكل غزوات الرسول ﷺ وسراياه - هو بيان السبب الأساسى الذى وقعت من أجله لبيان مدى إتفاق الدعوة المحمدية مع ما جاء به المؤرخون لبيان مدى واقعية رواياتهم واتفاقها مع العقل والمنطق، وبعد عرضها نحاول الربط بينها وبين الحوادث الأخرى فى محاولة لإظهار الحقيقة الخافية.

سبب المعركة كما ذكرته كتب التاريخ:

قال ابن اسحق بعد ذكره سرية عبد الله بن جحش: ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبى سفيان صخر بن حرب مقبلاً من الشام فى عير لقريش عظيمة فيها أموال وتجارة، وفيها ثلاثون رجلاً، أو أربعون، منهم مَخْرَمَة بن نوفل وعمرو بن العاص، ويضيف ابن إسحق: لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها».

فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعض، وذلك أن لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولغيرك.

فحذر فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى، فبعثه إلى مكة وامره أن يأتى قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة[2].

---

(1) تاريخ الطبرى - جـ1 ص372 - أحداث السنة الثانية من الهجرة.

(2) سيرة ابن هشام - جـ2 ص 211وما بعدها، وصفوة السيرة النبوية - جـ2 ص188 وما بعدها، وتاريخ الطبرى - أحداث السنة الثانية من الهجرة - جـ1 ص366. وأنظر كذلك السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان ص87.

وبالفعل يصل ضمضم إلى مكة وهو يصرخ ويقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها. فتجهز الناس سراعاً وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى[1]، فكانوا بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، إستأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلس بها[2].

تنطلق جيوش مكة صوب القافلة، ويعلم بها رسول الله ﷺ (أى الجيوش)، فكان لابد وأن ينقل الحرب - إن وقعت - خارج المدينة، قال ابن اسحق: ثم رجع رسول الله إلى أصحابه، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص، فى نفر من أصحابه، إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له، فأصابوا رواية لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص ابن سعيد، فأتوا بها فسألوهما ورسول الله قائم يصلى، فقالوا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجو أن يكونا لأبى سفيان فضربوهما، فلما آذوهما. قالا: نحن لأبى سفيان. فتركوهما. وركع رسول الله ﷺ. وقال: «**إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا والله إنهما لقريش، أخبرانى عن قريش؟**» قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى.

فقال لهما رسول الله ﷺ: **كم القوم** قالا. كثير، قال: **ما عدتهم؟** قالا: لا ندرى. قال: **كم ينحرون كل يوم؟** قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال رسول الله ﷺ: **القوم بين التسعمائة إلى الألف**[3]

---

(1) إشارة لما حدث وسبق أن ذكرناه عن سرية عبد الله بن جحش، فارجع إليها فى موضعها.

(2) انظر المصادر السابقة

(3) انظر المصادر السابقة

كان على الرسول ﷺ بعد أن علم بعدة قريش، وهى ثلاثة أضعاف جيش المدينة - كان عليه أن يرسل الفرق الاستطلاعية تباعاً تحسباً لوقوع أى إشتباك مسلح، وفى هذا الأثناء يصل أبو سفيان إلى موضع غادرته إحدى الفرق الإستطلاعية منذ وقت قصير، فيقول لمجدى بن عمرو: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً انكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا فى شَنّ لهما ثم انطلقا. فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيرهما ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله أعلاف يثرب، فرجع إلى أصحابه سريعاً، فضرب وجه عيره على الطريق فساحل بها، وترك بدراً بيساراً، وانطلق حتى أسرع، ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، (وكان بدراً موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبميسرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا[2].

قريش هى التى اشعلت نار الحرب:

حتى هذه اللحظة لا يوجد ما يبرر الحرب، فقافلة أبى سفيان قد رجعت سالمة، وجيوش مكة لم تخرج إلا لحماية القافلة التى زعموا أن محمداً ﷺ وجنوده قد تربصوا لها - وسنرى حالاً كذب هذا الادعاء - مما كان سبباً فى رجوع مجموعات من فِرَق الجيش المكى - منهم بنو زهرة - حيث رأوا أنه لا مبرر لقتال محمد وأصحابه، فتبعث القوات المكية من يستطلع لها أمر جيش المسلمين، فرجع وحذرهم شراسة المعركة إن وقعت، يقول ابن اسحق: «فلما سمع حكيم بن حزام ذلك (يعنى تحذير فرقة الاستطلاع) مشى فى الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: ياأبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها، هل لك أن لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذلك يا حكيم؟ قال ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو

---

(1) رواية ابن اسحق من المصادر السابقة

بن حضرمى[1]. قال: قد فعلتُ، أنت علىَّ بذلك، إنما هو حليفى فعلىَّ عقله وما أصيب من ماله. فأت ابن الحنظلية، يعنى أبا جهل، فأتى لا أخشى أن يشجر[2] أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة خطيباً فقال: يامعشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعاً يَهْنِئها[3] فقلت له: ياأبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا. فقال: انتفخ والله سَحْرَه[4] حين رأى محمداً وأصحابه، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جذور، وفيهم ابنه، فقد تخوّفكم عليه.

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمى (أخو عمرو بن الحضرمى)؛ فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع الناس، وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خُفْرتك ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ثم صرخ: واعمراه واعمراه قال: فحميت الحرب وحَقِبَ أمر الناس واستوثقوا على ما هم عليه من الشر وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة.

فلما بلغ عتبة قول أبى جهل: انتفخ والله سَحْرَه، قال: سيعلم مُصفِّر إسته[5] من انتفخ سحره أنا أم هو!

---

(1) وكان عمرو بن الحضرمى قد قُتلَ أثناء الإشتباك الذى وقع بين المشركين وسرية عبد الله بن جحش.

(2) يشجر: يخالف ويفسد..

(3) قد نثل: أخرج يهنئها: يهيئها ويصلحها

(4) انتفخ سحره: جبن والسحر الرئة

(5) مصفر إسته: عبارة مقصود بها الذم

ثم التمس عتبة بَيْضَة ليدخلها فى رأسه، فما وجد فى الجيش بيضة تسعه من عظم رأسه، فلما رأى ذلك اعتجر على رأسه ببُرْد له.»[1]

بداية نقول - بعد هذا العرض - أن قريشاً - وأبا جهل بالذات - هم الذين أرادوا إشعال نار الحرب، ولعب أبو جهل على مقتل عمرو بن الحضرمى ليشعل العدواة والبغضاء، حسداً منه للنبى ﷺ، والنبى ﷺ من ناحيته كان عليه - كما ذكونا - أن ينقل المعركة بعيداً عن المدينة وهى آنذاك دولة الإسلام وعاصمتها فى ذات الوقت، ومن ثم نزل ببدر، وهى بئر حتى يكون جيشه قريباً من الماء، وليرهق جيش العدو إذا وقعت المعركة.

السبب الحقيقى لنشوب المعركة:

ولنعود الآن للسبب الذى ذكره المؤرخون لخروج النبى ﷺ وأصحابه، وهو الاستيلاء على قافلة أبى سفيان، فنقول: أنه رغم التعذيب والأذى الذى لقيه ﷺ وأصحابه بمكة، والمقاطعة الاقتصادية التى تعرضوا لها، علاوة على خروجهم من مكة تاركين ورائهم جل أموالهم، كل هذا يضفى شيئاً من المشروعية على استيلائهم على قوافل قريش، إلا أن هذا لم يحدث أبداً، وفى هذه الغزوة بالذات، فقافلة قريش كانت أقرب إلى المسلمين من مكة، وكان عدد الرجال بها قليل (أربعون رجلاً)، فلماذا إذن لم يهجم المسلمون على القافلة ويستولوا عليها؟! إذا أجبنا عن ذلك بأن جيوش قريش قد أدركت القافلة، وأسبغت عليها حمايتها، فلم يكن لمحمد ﷺ وجيوشه عليها سبيل، إذا كانت الإجابة كذلك تكون بعيدة كل البعد عن الواقع، فقد رأيناً أن أبا سفيان قد أرسل ضمضماً ليستغيث بقريش، ويستنفرها لتحمى قافلتها، فهل يصل ضمضم إلى مكة، وتُجَّهز قريش جيوشها - ومعها عدة قبائل - وتصل بالقرب من أبى سفيان، كل هذا ولم تصل قوات المسلمين، وهم الأقرب إلى القافلة؟! هذا بعيد كل البعد عن الواقعية، و هذا إن دل إنما يدل على

---

(1) انظر المصادر السابقة

أن المسلمين لم يبتغوا هذه القافلة ولا غيرها، فلو أرادوها وفقاً للسير الطبيعى للأحداث لغنموها.

ولنا تساءل آخر، كيف علم أبو سفيان أن محمداً وأصحابه يستعدون للاستيلاء على القافلة؟

هناك احتمالان، قد يصدق أحدهما وقد يصدقا معاً، فقد سبق ورأينا أن رسول الله ﷺ كان يرسل فرق استطلاعية بين الحين والآخر، على حدود المدينة، خشية وقوع هجوم مفاجئ من قريش، وإذا كان الوضع كذلك فأبا سفيان كان على حق إذا تبادر إلى ذهنه أن قوات المسلمين تريد القافلة. لكن من هم الذين أخبروه هذا الخبر؟ هذا يجرنا إلى الاحتمال الثانى، فالمصادر التاريخية تقول أن أبا سفيان عرف ذلك عن طريق بعض الركبان، ولم تذكر من هم هؤلاء الركبان، ولو كان المسلمون يريدون القافلة، فهل سينسشرون هذا على الملأ حتى ليعلمه كل من فى الطريق، أم سيكون هذا فى طى الكتمان؟! فأغلب الظن - وإن لم يكن يقين - أن يهود المدينة استغلوا الفرصة، خاصة مع عظم القافلة، فقد كانت قرابة الألف بعير، فعمد اليهود إلى الإيقاع بين قريش وبين مسلمى المدينة، لتقوم الحرب عسى أن يكون النصر فيها لقريش، وذلك حسداً منهم على رسول الله ﷺ.

هذا فيما يخص هذه الغزوة بالذات، وبنظرة عامة وأشمل، لم تذكر لنا كتب التاريخ أن مسلمى المدينة - بعد غزوة بدر - قد هاجموا أى قافلة من قوافل قريش، وقد كان المسلمون بعدها أقوى عدة وأكثر عدداً عن ذى قبل، فرسول الله ﷺ لم يكن ليهدم اقتصاد مكة، تلك البقعة المباركة، وما كان الرسول يفكر لحظة فى أن تكون قريش فى بؤس من العيش، فهم أهله، والأمل يداخله فى أنهم سيرجعون إلى الحق يوماً ما، وحسبنا هنا ما ذكره الحافظ محمد بن حبان فى سيرته النبوية، فى سياق عرضه لأحداث السنة الخامسة من الهجرة، يقول ابن حبان: «وبلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً أصابتهم شده حتى أكلوا الرمة، فبعث رسول الله ﷺ بشئ من الذهب إليهم مع عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم بن حريش»[1]. فهذه الرواية تدحض الروايات التى تقول بمهاجمة الرسول ﷺ لقوافل قريش.

(1) ابن حيان - السيرة النبوية وأخبار الخلفاء - أحداث السنة الخامسة من الهجرة - ص 141.

ورواية أخرى رواها لنا ابن اسحق وهو بصدد الحديث عن هجرة على بن أبى طالب - رضى الله عنه - حيث يقول: «أما علىّ فإن رسول الله - ﷺ - أمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله - ﷺ - الودائع التى كانت عنده للناس، وكان رسول الله - ﷺ - ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته، وأقام علىّ بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله - ﷺ - الودائع التى كانت عنده للناس..»[1] فالرسول -ﷺ- النبى الأمين وهو يعظم الأمانات بهذا الشكل لا يمكن أن يسلب فافلة هى أمانة فى رقبة أبى سفيان، فهذا يتنافى مع خُلقه الكريم.

ونُذكّر أن المسلمين المهاجرين كانوا يعيشون بالمدينة عيشة رغدة، فعن أنس بن مالك قال: لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شئ، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤنة[2].

ولا يسعنا فى النهاية إلا أن نقول أن الرسول ﷺ والمسلمين لم ولن يكونوا قطاع طرق، وعلينا أن نأخذ روايات التاريخ بحذر، ففى الوهلة الأولى قد يظن الباحث أو القارئ أن خروج المسلمين فى غزوة بدر كان خروجاً هجومياً، ولكن بعد التحليل وإمعان النظر تتجلى له الحقيقة، وهى أن رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة - بل وكل غزواته - لم يخالف النظرية القرآنية من حيث أن الحرب فى الإسلام هى حرب دفاعية.

مصير أسرى بدر:

انتهت المعركة، وقُتل فيها صناديد قريش، وأسر المسلمون سبعين أسيراً من مشركى قريش، وقبل أن نتحدث عن مصير هؤلاء الأسرى، أود أن أشير إلى موقف عظيم من مواقف القائد الأعظم محمد ﷺ، فقد نهى جنوده عن قتل كل

---

(1) سيرة ابن هشام - جـ 1 - ص 258، ص 263.

(2) صحيح البخارى - كتاب الهبة - باب فضل المنيحة، وصحيح مسلم كتاب الجهاد - باب رد المهاجرين إلى الأنصار متائحهم.

من انضم إلى الجيش القرشى مكرهاً، فالمكره على خوض الحرب - عادة - لا يقاتل لأنه من الأساس لم يقتنع بعدالة القضية التى يخوض الحرب من أجلها، من أجل ذلك أذاع القائد الأعظم ﷺ هذا البيان العسكرى: **«إنى قد عرفت أن رجالاً من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى أحداً من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً»** [1] فالرسول ﷺ على علم تام بأن الحرب ضرورة تُلجئ إليها الظروف الإستثنائية، وهى الدفاع عن دولة الإسلام، وهذه الضرورة كان يقدرها ﷺ بقدرها، ولا يتخطى الهدف الذى شرعت من أجله.

نعود إلى مصير أسرى بدر، فنرى أن رسول الله ﷺ لم يخرج عن النظرية القرآنية فى شأن معاملة الأسرى، فها هو رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: **«استوصوا بالأسارى خيراً»**[2].

وتنفيذاً لهذا الأمر نذكر ما جاء على لسان أحد الأسرى[3]: «كنت فى رهط الأنصار حين أقبلوا بى يوم بدر، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم خصّونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها فأستحى فأردها فيردها علىَّ ما يمسها»[4].

ثم كان مصير الأسرى إما المن وإما الفداء، يقول ابن حبان: «وفادى ﷺ من فادى منهم، ومن لم يكن له مال منَّ عليهم، وفادى من كان من العرب فيهم بأربعين أوقية، ومن كان منهم من الموالى بعشر أقية فى غزوة بدر»[5].

جميع الأسرى كانوا سواء فى المعاملة، فالعباس عم الرسول ﷺ فادى نفسه وابنى أخيه وحليفه، وعندما أدّعى الإسلام قال له ﷺ: **«الله أعلم بإسلامك إن يكن**

---

(1) انظر سيرة ابن هشام جـ2 ص221، وصفوة السيرة جـ2 ص 212، وتاريخ الطبرى - جـ1 ص.373

(2) سيرة ابن هشام جـ2 ص231، وصفوة السيرة جـ2 ص226، وتاريخ الطبرى - جـ1 ص376.

(3) هو أبو عزير بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه

(4) انظر المصادر السابقه

(5) السيره النبويه ، حب الخلفاء ص 101

ما تذكر حقاً، فالله يجزيك به، فأما ظاهر أمرك (وهو الشرك) فقد كان علينا، فافد نفسك»[1]. ونستنتج من كل ما سبق أن أفعال الرسول ﷺ كانت فى تطابق تام مع ما جاءت به النظرية القرآنية، ولم يخرج عنها قيد أنملة، سواء قبل نشوب المعركة، أو فى أثنائها، أو بعدها.

سادساً: غزوة بنى قينقاع:

كانت فى شوال من السنة الثانية من الهجرة[2]، قال ابن حبان: أن المسلمين لما قدموا المدينة وادعتهم اليهود على أن لا يعينوا أحداً، فلما رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة أظهروا البغى وقالوا: لم يلق محمداً من يحسن القتال، لو لقينا للقى عندنا قتالاً لا يشبه قتالهم[3]. وفصَّل ابن هشام الخبر فقال: كان من أمر بنى قينقاع أن إمرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع (وكانوا صاغة)، وجلست إلى صائغ هناك منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت إنكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع[4].

بعد أن أظهر يهود بنى قينقاع العدواة، وأصبحوا يشكلون خطراً على مجتمع المدينة، لاحتمال مبادرتهم المسلمين بهجوم مفاجئ، لم يكن أمام رسول الله ﷺ إلا أن يكسر شوكتهم حتى يحفظ الأمن الداخلى، فحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه، ثم أمر بإجلائهم - بعد ما سأله عبد الله بن أبى العفو عنهم[5].

(1) سيرة ابن هشام - جـ2 ص229 صفوة السيرة جـ2 ص221، تاريخ الطبرى - جـ1 ص378.

(2) وفى رواية أنها كانت فى صفر من السنة الثالثة من الهجرة - انظر تاريخ الطبرى - أحداث السنة الثانية من الهجرة - جـ1 ص383.

(3) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء - ص115. وذكر ابن اسحق أن يهود بنى قينقاع قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد إنك ترى أنَّا قومك؟! لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. سيرة ابن هشام جـ ص . وصفوة السيرة - جـ3 - ص7

(4) سيرة ابن هشام جـ ص ، وصفوة السيرة - جـ3 - ص7

(5) انظر المصادر السابقة. وانظر كذلك تاريخ الطبرى جـ1 ص383. والسيرة النبوية لابن حبان ص115

سابعاً: غزوة السويق:

كان رسول الله ﷺ على حق فى إرساله بين الحين والآخر سراياه الاستطلاعية على حدود المدينة؛ اتقاءً لأى هجوم مباغت من جانب القوات القرشية، فها هو أبو سفيان قد نذر - حين رجع إلى مكة - أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فخرج فى مائتى راكب حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتى حُيَيَّ بن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له، وخافه فانصرف إلى سلام بن مشكم، وكان سيد النضير فى زمانه ذلك، ففتح له وسقاه خمراً وأخبره سلام بأخبار النبى ﷺ وأخبار المدينة. فلما كان فى السحر خرج فمر بالعريض برجل معه أجير له، يقال له: معبد بن عمرو، فقتلهما وحرق أبياتاً هناك، وتبناً، ورأى أنه قد وفّى النذر وبر اليمين، وجاء الصريخ إلى النبى ﷺ فاستنفر الناس، فخرجوا فى أثره حتى بلغوا قرقرة الكدر(1)، ثم انصرف راجعاً، ولم يدرك أبا سفيان وأصحابه، وكان أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب الدقيق، حتى تخف أحمالهم ويستطيعون الهرب، وكان ذلك من عامة زادهم، فلذلك سميت غزوة السويق.

ولما هرب أبو سفيان قال المسلمون لرسول الله ﷺ: أنطمع أن تكون لنا غزوة؟ قال: نعم. فبالرغم أنه لم يكن هناك قتال إلا أنها تعتبر من قبيل الغزوات - ولها ثواب الجهاد - وهذا يساند وجهة نظرنا فى أن كل خروج للرسول ﷺ كان يعتبره المؤرخون من قبيل الغزوات. وجدير بالذكر أن هذه الغزوة كانت فى ذى الحجة من السنة الثانية من الهجرة، وذلك عند ابن اسحق، أما الواقدى فيروى أنها كانت فى ذى القعدة من نفس السنة(2).

ثامناً: غزوة أحد:

كانت هذه الغزوة فى شوال سنة ثلاث، وسببها أنه لما أصيب يوم بدر من كفار

---

(1) لذلك يسمى بعض المؤرخين هذه الغزوة قرقرة الكدر

(2) انظر فى خبر هذه الغزوة - سيرة ابن هشام جـ ص ، وصفوة السيرة جـ2 ص263، والسيرة النبوية لابن حبان ص116. وتاريخ الطبرى أحداث السنة الثانية من الهجرة جـ1 ص384.

قريش أصحاب القليب (الموضع الذى دفنوا فيه) ورجع فلّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بقافلته، مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية، فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك القافلة من قريش تجارة، فقالوا: يامعشر قريش، إن محمداً قد قتل خياركم، فأعينوا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا.

ودعا جبير بن مُطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلما يخطئ بها، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق.

فخرجت قريش، ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة، وخرج معهم نساؤهم النماس الحفيظة وألا يفرون. فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السَّبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة.

ونزل رسول الله ﷺ من أحُد، فى عدوة الوادى وفى الجبل، وجعل ظهره وعسكره إلى أحُد، وقال: لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال.

وتعبأ رسول الله ﷺ للقتال وهو فى سبعمائة رجل، وأمَّر على الرعاة يومئذ عبد الله بن جُبير، والرماة خمسون رجلاً، فقال: انضح الخيل عنا بالنِّبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا تؤتين من قِبلكُ.

كان القتال شديداً، وانهزم المشركين فعلاً، فلما رأى الرماة الذين خلف رسول الله ﷺ أن المشركين قد انهزموا تركوا أماكنهم يريدون نهب الغنائم وكشفوا ظهور المسلمين للخيل، وآتاهم المشركون من خلفهم وصرخ صارخ: ألا أن محمداً قد قُتل، فانكشف المسلمون، فصاروا بين قتيل وجريح ومنهزم، حتى وصل العدو المشرك إلى رسول الله ﷺ وأصيب رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: **«كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم»**.

ثم أن أبا سفيان أراد الانصراف فصرخ بأعلى صوته: الحرب سجال أعلُ هُبَل

يوم بيوم بدر، فقال رسول الله ﷺ ثم ناحية: «**الله أعلى وأجل لا سواء! قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار**.. فقال أبو سفيان: ياعمر أنشدكم الله أقتلنا محمداً؟ فقال: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك. فقال أنت أصدق عندى من ابن قميئة، ولكن موعدكم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «**هو بيننا وبينكم**».(1)

ومن هذا العرض يتضح لنا بلا مراء، أن المسلمين فى خروجهم فى هذه الغزوة كان للدفاع عن دولتهم.

تاسعاً: غزوة حمراء الأسد:

كان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد خرج رسول الله - ﷺ - متتبعاً للعدو القرشى حتى يرهبهم، وحتى لا يظنوا أن المسلمين قد ضعفوا فظل رسول الله فى أثرهم حتى بلغ حمراء الأسد، وهى على بعد ثمانية أميال من المدينة، فأقام بها الأثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة.

وعلى الجانب الآخر كان أبو سفيان ومن معه قد اتخذ قراراً بالعودة مرة أخرى لكسر شوكة المسلمين، حتى لا يقوم لهم قائمة، إلا أن معبد بن أبى معبد الخزاعى لقى أبا سفيان - وكان قبلها قد لقى رسول الله - ﷺ - ومن معه - فقال لأبى سفيان: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شئ لم أر مثله قط. فأخذت أبا سفيان الرهبة فعاد ومن معه إلى مكة(2).

وعلى هذا، إذا لم يكن رسول الله قد خرج مرة أخرى لطلبهم لكانوا أعادوا الكرَّة عليهم مرة أخرى وقاموا بهجوم مفاجئ لا تحمد عقباه، فالرسول وإن كان هو الذى خرج يتتبعهم فإن هذا كان للدفاع وليس للهجوم.

(1) فى خبر هذه البغزوة انظر ابن هشام جـ 3ص17 وما بعدها، وصفوة السيرة جـ 3 - ص11 وما بعدها، والسيرة النبوية لابن حبان ص120 وما بعدها. وتاريخ الطبرى - أحداث السنة الثالثة - جـ ص389 وما بعدها

(2) انظر المصادر السابقه

عاشراً: غزوة بنى النضير:

وكان سبب هذه الغزوة أن عمرو ابن أمية لقيه فى الطريق رجلان من بنى عامر، وقد كان معهم عهد من رسول الله - ﷺ - وجوار، وعمرو لا يعلم ذلك فقتلهما ثأراً للسرية التى قُتلت يوم بئر معونة[1]، وهنا يظهر الخُلق القرآنى لمحمد - ﷺ - ، فعندما أخبره عمرو ابن امية بما فعل قال له - ﷺ - : «**بئس ما فعلت قد كان لهما منى جوار**» ووفاءً منه بعهده - ﷺ - أخذ يجمع دية القتيلين ليرسلهما إلى بنى عامر، فخرج إلى بنى النضير يستعينهم فى دية القتيلين، وقد كان بين بنى النضير وبين بنى عامر عهد وحلف، فلما أتاهم رسول الله - ﷺ - قالوا: نعم ياأبا القاسم نعينك على ما أحببت.

وهنا يظهر غدر اليهود وخيانتهم، فقد خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه! ورسول الله - ﷺ - إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقى عليه الصخرة كما قال؛ ورسول الله فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلىّ فأتى رسول الله - ﷺ - الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام - ﷺ - كأنه يريد حاجة، وانتظر أصحابه من المسلمين، وجعلت اليهود تقول: ما حبس أبا القاسم! فلما تأخر رسول الله ﷺ على المسلمين انصرفوا - وكان قد دخل المدينة - فانتهوا إليه وهو جالس فى المسجد فقالوا يارسول الله انتظرناك فمضيت وتركتنا، فقال: «**همت اليهود بقتلى، ادعوا لى محمد بن مسلمة**» فأتى محمد، فقال: «**اذهب إلى اليهود فقل لهم: اخرجوا من المدينة، لا تساكنونى وهممتم ما هممتم من الغدر**».

وبالفعل يبلغ محمد بن سلمة الرسالة، فأرسل إليهم عبد الله بن أبى (رأس

---

(1) انظر سرية بئر معونة

المنافقين) لاتحرجوا فإن معى ألفى رجل من العرب يدخلون معكم، وفريظة تدخل معكم

فبلغ الخبر كعب بن أسد صاحب عهد بنى قريظة، فقال، لا ينقض العهد رجل من بنى قريظة وأنا حى.

ويرد بنو النضير على رسول الله : إنا لا نفارق ديارنا فاصنع ما بدا لك! فكبر رسول الله - ﷺ - والمسلمون وقال حاربت يهود!

يحاصر رسول الله - ﷺ - بنى النضير خمسة عشر يوماً، وفى قول أنه حاصرهم ست ليال، وانتظر اليهود نصرة عبد الله بن أبى، لكنه كان قد تخلى عنهم، فصالحوا رسول الله - ﷺ - على أن يحقن لهم دماءهم وله الأموال، ويتجلون من ديارهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم.

فاحتملوا ما استقلت به الإبل، حتى أن كان الرجل منهم يهدم بيته فيضع بابه على ظهر بعيره فينطلق به، وكان جلائهم إلى الشام(1).

وبعد، فالحرب هنا دفاعية، فكيف يأمن رسول الله - ﷺ - لقوم سمتهم الغدر، يبغون قتله، ونكرر أنه لما كانت الضرورة تقدر بقدرها، فقد قبل - ﷺ - الصلح، ولم يقتل منهم أحد، فطالما زال الخطر، فلا حاجة إلى القتال.

حادى عشر: غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب:

هجوم جديد على دولة الإسلام فى شهر شوال سنة خمس من الهجرة كان عليهم أن يردوه حتى تبقى دولتهم، فقد اجتمع كثيرون ممن يحملون فى صدورهم الحقد والحسد على هذه الدولة الوليدة يريدون وأدها، وكان المحرك الأول لهذه المعركة هم اليهود، فقد خرج بعض بنو النضير، وبعض بنو وائل حتى قدموا قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله - ﷺ - وقالوا: إنا سنكون معكم عليه

(1) انظر فى خبر هذه الغزوة - سيرة ابن هشام جـ 4 ص123 وما بعدها وصفوة السيرة النبوية لابن كثير جـ 3 ص62 . وسيرة ابن حبان ص 130 وما بعدها، وتاريخ الطبرى - أحداث السنة الرابعة من الهجرة جـ 2 ص 406 وما بعدها

فقـالت لهم قريش: يامـعشر يهـود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصـبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفـديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه. فلمـا قالوا ذلك لقريش سـرَّهم ونشطوا لما دعوهم إليـه من حرب رسول الله - ﷺ - فاجتمعوا لذلك وتواعدوا.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عَيْلان فدعوهم إلى حرب النبى - ﷺ - وأخبـروهم أنهم يكونون معهم عليه، وأن قريشـا قد تابعوهم على ذلك واجتمعوا معهم فيه.

فخرجت قريـش وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفـان وقائدها عُيينه بن حِصن فى بنى فزارة والحارث بن عوف أبى حارثة المرى فـى بنى مُرة ومسعر بن رخيلة بن نُويرة فيمن تابعه فى قومه من أشجع.

فلما سمع رسـول الله - ﷺ - وما أجمعوا له من الأمر أمـر بحفر الخندق على المدينة، ويقال إن الذى أشار به سلمان الفارسى.

كانت عدة الأحزاب فى حدود العشرة آلاف، وبلغت عدة المسلمين ثلاثة آلاف، وعسكر رسول الله - ﷺ - وكان الخندق بينه وبين القوم.

ويعقـد حيى بن أخطب النضرى إتـفاق مع كعب بن أسـد القرظى - وهو الذى عاهد رسول الله - ﷺ - على أن ينقض الأخير عهده مع رسول الله - ﷺ - وأن يحاربه مع الأحـزاب، فنقض كعب بن أسد الـعهد ويرئ مما كـان بينه وبين رسول الله، فتنضم بنو قريظة إلى جانب الأحزاب.

يرسل الرسول - ﷺ - سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة وهو يومئذ سـيد الخزرج إلى بنى قريظة ليـستطلع أمرهم وليحـتاط لهم، فنالوا من رسول الله - ﷺ - وعابوه وقالوا: من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد.

أصبح المسلمون مـحاصرون بين الأحزاب وبين بنى قـريظة، فوضع الرسول ﷺ

خطة للإيقاع بين الطرفين لتدب الفرقة فى صفوفهم، ويتم له ما أراد وترجع الأحزاب وقد أصابهم الخزى، وتفشل خطة اليهود فى وأد دولة الإسلام(1).

ثانى عشر: غزوة بنى قريظة والمذبحة المزعومة:

رأينا كيف نقض يهود بنى قريظة عهدهم مع رسول الله - ﷺ - وكيف انضموا إلى أحزاب المشركين، وبفعلتهم هذه شكلوا خطراً داهماً على دولة الإسلام، فأصبح وجودهم لا يجتمع مع أمن هذه الأمة ومن ثم كان جهادهم وكسر شوكتهم أمر ضرورى.

حاصرهم رسول الله - ﷺ - بعد رجوعه من غزوة الخندق، واستمر الحصار خمس وعشرين ليلة، فلما أرهقهم الحصار استسلموا ونزلوا على حكم رسول الله - ﷺ بمعنى موافقتهم مقدماً على حكم رسول الله - ﷺ - فيهم أياً كان هذا الحكم.

يطلب الأوس من رسول الله - ﷺ - العفو عن بنى قريظة، فقد كانوا حلفاءهم، وذلك رغبة منهم فى معاملة بنى قريظة بمثل ما عومل به يهود بنى قينقاع بعدما توسط لهم عبد الله بن أبى وعفا عنهم رسول - ﷺ - كما تقدم.

فقال لهم رسول الله - ﷺ - **يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيه رجل منكم؟** قالوا: بلى. قال: **فذلك إلى سعد بن معاذ**، وكان سعد بن معاذ قد أصيب فى غزوة الخندق، فحملوه قومه على حمار، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله - ﷺ - وهم يقولون له: ياأبا عمرو أحسن فى مواليك، فإن رسول - ﷺ - إنما ولاك ذلك لتُحسن فيهم. فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم!

المذبحة المزعومة:

ينتظر الجميع حكم سعد بن معاذ هذا الحكم الذى ملأ كتب السيرة والتاريخ، بل

---

(1) فى خبر هذه الغزوة - انظر سيرة ابن هشام جـ 3 ص 140 وما بعدها وصفوة السيرة جـ 3 ص75 وما بعدها، والسيرة النبوية لابن حبان ص 143 وما بعدها، وتاريخ الطبرى - أحداث السنة الخامسة جـ 2 ص 410 وما بعدها

وكتب الحديث، ولا أدرى كـيف سطروا هذا الكلام قبل أن يمحصـوه، فكما ذكرنا يجب أن يؤخذ النص التاريخى بعين حذرة، ويجب ربطه بباقى النصوص التى تسرد حوادث مشـابهة له، وإذا كان هناك مغايرة علينا أن نبـحث فى سبب هذه المغايرة، وإذا لم نجده، فعلـينا تكذيب النص، ولا يجب علينا أن ننسى المرجع الأصلى الذى يجب علينا الرجوع إليه دائما عند تحليل مثل هذه النصوص المرتبطة بالسيرة المحمدية العطرة، وهذا المرجع بالطبع هو القرآن الكريم.

نعود إلى حكم سـعد، قال سـعد: فإنى أحكم فـيهم أن يُقتل الرجـال، وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء.

وفى رواية: أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم.

ليس هذا كل العـجب، فالأعـجب أنهم - (المؤرخون والمحـدثون) يزعـمون أن رسول الله - ﷺ - قـال له حين نطق بالحكم: «**لقـد حكمت بحكم الله من فـوق سبعة أرقعة**».

وفى رواية: «**لقد حكمت فيهم بحكم الملك**» يقصد الله عز وجل، وفى رواية ثالثة: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل**».

كذبوا والله عـلى رسول الله - ﷺ -، لم ننتـه من العجب بعـد، فقـد أحصى المؤرخون عـدد الذين قتلوا من رجـال اليهـود وقد اخـتلفوا فى عددهم - فـأقلهم أحصاهم أربعمائة رجل وتتدرج الروايات ليصل الحد الأقصى إلى تسعمائة رجل!!

ما زلنا ننتـقل من عجب إلى عجب، والعجب هنا الطريقـة التى تمت بها الإبادة الجماعـية ليهود بنى قريظة، فـتزعم لنا الروايات أن رجال اليهود كـانوا يساقوا إلى مكان القتل فى جماعات، وقد أعدت لهم حُفر فيوضعوا بها وتضرب أعناقهم. فما هذا الهراء؟![1].

(1) انظر فى خبر هذه الغزوة سيرة ابن هشام جـ 3 ص154 وصفوة السيرة جـ 3 ص93 وما بعدها والسيرة النبوية لابن حـبان ص 147، وتاريخ الطبرى أحداث السنة الخـامسة جـ 2 ص416 وما بعـدها ومن كتب الحديث صحـيح البخارى كتاب الجـهاد - باب إذا نزل العدو على حكم رجل، وكذلك كـتاب المغازى - باب=

هناك دليلان يكذبان الافتراء السابق ذكره أولهما تاريخي وثانيهما قرآني:

فـالتاريخ يقـول لنا أن رسـول الله - ﷺ - قد عـفـا عن يهود بـنى قينقـاع - بأكملهم- واكتفى بإجلائهم من المديـنة، وبناء على وساطة من؟ وساطة عبد الله بن أبى رأس المنافـقين، وكـذلك عـفا ﷺ عن يهـود خيـبـر، على ما سـوف نرى - وكلاهما نقضـوا عهودهم مع رسول الله مثلما فعلت يهـود بنى قريظة، فلما المغايرة فى الحكم؟! والأدهى من ذلك أن الذى توسط ليـهود بنى قـريظة عبـد الله بن أبى رأس المنافقـين فيـقبل رسـول الله - ﷺ - وساطته، وعندمـا يطلب منه - ﷺ - الأوس الذين نصروه العفو عن بنى قريظة برفض ويُحكِم سعد بن معاذ الذى يَحكمُ بقتل جميع رجالهم، هل هذا يعقل؟!

وهناك شئ غاية فى الخطورة، فكيف يستسلم اليهود على أن يحكم فيهم النبى - ﷺ - ثم يقـاجـئـوا أن الحكَم سيكـون سعـد؟ فـهل نقض رسـول الله - ﷺ - عهده؟!! معاذ الله.

ونأتى الان إلى الرواية المـنسوبـة لابن اسـحق، تلك الرواية التى مـلأت كـتب التاريخ، يقول ابن اسـحق - بعد صدور حكم سعد: ثم اسـتنزلوا (يعنى نزل يهود بنى قريظة من حصونهم) فحـبسهم رسول الله - ﷺ - بالمدينة فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار[1].

أى عقل يصدق هـذا، يصدر حكم سعد بإعـدامهم فينزلون من الحصـون رغماً عنهم، وبكل بساطة بلا قتال، فلمـا استسلموا؟ ألم يستسلموا أملاً فـى العفو بعدما ارهقهم الحـصار؟ أم استـسلموا ليُقـتلوا؟! هذا من ناحية ومـن ناحية أخـرى تقول الرواية أنهم حبسوا فى دار بنت الحارث، فلو اقتصرنا على الرجال فقط، فعلى تلك الدار أن تسع من أربعمائة إلى تسعمائة فرد، فيالها من مساحة!!

=مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، وصحيح مسلم - كتاب الجـهاد باب جواز قتال من نقض العهد، وجواز نزول أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم

(1) انظر المصادر التى يحيله السابق ذكره

أما عن الدليل القرآنى، فكلنا يُسَلِّم أن الرسول - ﷺ - كان خلقه القرآن، ولن نعيد هنا ما سبق وذكرناه عند حديثنا عن النظرية القرآنية فى الحرب، ولكن حسبنا هنا قوله تعالى: ﴿وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ على اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وبنو قريظة جنحوا للسلم كما جنح قبلهم بنو قينقاع وبعدهم يهود خيبر، فالمؤكد أن الرسول - ﷺ - سالمهم.

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾[2] وإجلاء اليهود هنا هو العقاب الكافى.

وقوله جل شأنه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[3].

فالآية صريحة فى الحث على العفو، وجزاء بنى قريظة كما سطرته كتب المؤرخين والمحدثين فيه كثير من الظلم، والرسول - ﷺ - وأصحابه لا يمكن أن يكونوا ظالمين.

وفى النهاية نقول أنه يجب الاحتياط عند تناول مثل هذه الروايات المدسوسة - بغض النظر عمن دسها - لمحو التشوهات التى شابت صورة الإسلام، تلك التشوهات التى خطَّها ناسخو كتب التاريخ المؤجرين.

ثالث عشر: غزوة بنى المصطلق (المريسيغ):

كانت فى شعبان سنة ست من الهجرة[4] وخبر هذه الغزوة أنه بلغ رسول الله -ﷺ - أن بالمصطلق يجمتعون لحربه، وكان قائدهم الحارث بن أبى ضرار أبو

(1) الأنفال: 61.

(2) النحل: 126 .

(3) الشورى 40.

(4) وذلك وفقاً لرواية ابن اسحق، أما الواقدى فيري أنها كانت سنة خمس من الهجرة، والبعض يرى أنها كانت سنة أربع. حول هذا الخلاف انظر: تاريخ الطبرى - أحداث السنة الخامسة من الهجرة، وصفوة السيرة جـ 3 ص 177

جويرية بنت الحارث (التى تزوجها رسول الله ﷺ بعد ذلك) فلما علم رسول الله ﷺ بذلك خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيغ من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس، واقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم الله بنى المصطلق[1].

ولا تحتاج الرواية السابقة إلى تعليق يبرهن أن الغزوة كانت دفاعية؛ لدفع خطر داهم قد يقع على المدينة فى أية لحظة.

ويظهر بجلاء فى هذه الغزوة خُلق رسول الله - ﷺ - القرآنى، الذى كان يلتمس السبل لإطلاق سراح الأسرى، فنجده - ﷺ - يعتق جويرية بنت الحارث وأبوها سيد قومها، ويعرض عليها الزواج، فتوافق جويرية، فيأخذ المسلمون فى إطلاق سراح قومها - بعدما تم أسرهم - ويجعل رسول الله - ﷺ - صداقها عتق أربعين من بنى المصطلق[2]، وذلك فى وقت كانت النظم القانونية رومانية ويونانية ويهودية، تأبى إطلاق سراح أى أسير - إلا فى النادر - وكان فى الغالب يُقتل، أو يستعبد وتهدر آدميته، ويكون وضعه القانونى كالآلة.

رابع عشر: غزوة خيبر:

كانت فى محرم سنة سبع من الهجرة، وفى الحقيقة لم يصرح كُتّاب التاريخ أو السيرة عن سبب غزو رسول الله - ﷺ - يهود خيبر، ولكن باستقراء رواية ابن اسحق يمكن لنا استجلاء هذا السبب بسهولة.

يقول ابن اسحق: وكان رسول الله - ﷺ - حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر وبنى له فيها مسجداً ثم على الصَّهباء، ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحُول بينهم وبين أن يُمدُّوا أهل خيبر، كانوا لهم مظاهرين على رسول الله - ﷺ -، فبلغنى أن غطفان لما سمعوا بذلك جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم

(1) انظر سيرة ابن هشام جـ 3 ص198 ، وتاريخ الطبرى أحداث السنة السادسة جـ 2 ص 423 .

(2) انظر صفوة السيرة جـ 2 ص121 . وتاريخ الطبرى جـ 2 ص424

فى أموالهم وأهليـهم حساً، ظنوا أن القوم قد خالفـوا إليهم فرجعـوا على أعقابهم فأقاموا فى أموالهم وأهليهم وخلّو بين رسول الله - ﷺ - وبين خيبر[1].

واضح من رواية ابن اسحق أن هناك حلفاً عسكرياً بين يهود خيبر وبين غطفان، وأن هجومهم على المدينة قد بات وشـيكاً، ولما كان من عادته - ﷺ - نقل الحرب خارج حدود الدولة خرج ليـهود خيبر حتى يكسر شـوكتهم، فنقض المعاهدات من جانب يهود بنى قينقاع وبنى قريظة لم يكن ببعيد.

أخذ رسول الله - ﷺ - وجنوده يـفتتحون حـصون خيبر، الـواحد تلو الآخر، حتى انتـهوا إلى حـصنهم الوطيح والسُلالم، وكان آخـر حصون خـيبـر افتتـاحاً، وحاصرهم رسول الله ﷺ - يضع عشرة ليلة[2].

قال ابن اسحق: وحـاصر رسول الله - ﷺ - أهل خيبـر فى حصنيهم الوطيح والسُلالم، حتى إذا أيقـنوا بالهلكة سألوه أن يسيِّرهم وأن يـحقن دماءهم. فـفعل، وكان رسول الله - ﷺ - قد حاز جميع حصونهم، إلا ما كان من ذينك الحصنين، فلما سـمع بهم أهل فدَك قـد صنعوا ما صنعـوا بعثـوا إلى رسول الله - ﷺ - أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلّوا له الأموال ففعل. وكان ممن مشى بين رسول الله - ﷺ - وبينهم فى ذلك محيصة بن مسعود أخو بنى حارثة.

فلما نزل أهل خـيبر على ذلك سألوا رسول الله - ﷺ أن يعـاملهم فى الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها. فصالحهم رسول الله - ﷺ - على النصف على أنا إذا شـئنا أن نخرجكم أخـرجناكم. وعامل أهل فـدَك بمثل ذلك[3].

حدث ذلك فى وقت لم يكن المهـزوم يحصل فيه على قلامـة ظفر من ماله، بل كان يعتبـر فى عداد الأموات وتقسم كل تركته على المنتـصرين، ولكن الإسلام كان قد جـاء بقواعـد دولية جديـدة، عانت الكثيـر حتى استقر بـعضهـا فى الضمـير الإنسانى.

(1) انظر . سيرة ابن هشام جـ 4 ص 234، وصفوة السيرة جـ 3 ص144 وتاريخ الطبرى - أحداث السنة السابعة جـ 2 ص٤٤٤ .

(2) من رواية ابن اسحق - انظر المصادر السابقة

(3) المصادر السابقة

خامس عشر: فتح مكة:

كان فتح مكة فى شهر رمضان سنة ثمان[1]. وعن سبب الفتح يقول ابن اسحق: كان فى صلح الحديبية (وكان سنة ست) أنه من شاء أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل. فتواثبت خزاعة وقالوا: نحن ندخل عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن ندخل فى عهد قريش وعهدهم.

فلما كانت تلك الهدنة[2] اغتنمتها بنو الديل من بنى بكر، فأرادوا أن يغيروا على خزاعة لثأر كان لهم فى الجاهلية، فخرج نوفل بن معاوية الديلى فى بنى الديل، وهو يومئذ قائدهم ليس كل بنى بكر تابعه حتى وصل إلى خزاعة وهم على الوتير (ماء لهم) فأصابوا منهم رجلاً وتحاوزوا واقتتلوا، وأمدَّت قريش بنى بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى ساقوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك فقال نوفل بن معاوية الدِّيلى: لا إله اليوم يابنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم!.

فلما تحالفت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منها ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق (فى صلح الحديبية) بما استحلوا من خزاعة وكانوا فى عقده، وعهده خرج عمرو بن سالم الخزاعى، ثم أحد بنى كعب

---

(1) فى احداث هذا الفتح العظيم انظر سيرة ابن هشام. جـ 4 - ص 203 وما بعدها وصفوة السيرة النبوية لابن كثير جـ 3 ص228 وما بعدها، والسيرة النبوية لابن حبان ص 180 وما بعدها، وتاريخ الطبرى أحداث السنة الثامنة جـ 2 ص 453 وما بعدها.

(2) كانت قريش قد تعاهدت مع رسول الله ﷺ فى صلح الحديبية على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض وسوف نعرض لتفاصيل هذا الصلح فى موضع لاحق بهذا الكتاب إن شاء الله

حتى قدم على رسول الله - ﷺ - المدينة - وكان ذلك السبب فى فتح مكة - فوقف عليه وهو فى المسجد جالس بين الناس فقال.

لاهم إنى ناشدٌ محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]
فوالداً كنا وكنت ولدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصراً أعتدا ... وادعُ عباد الله يأتوا مدداً
فيهم رسول الله قد تجردا ... أبيض مثل البدر ينمى صعدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فقتلونا ركعاً وسجدا [2]

يقول: قد قتلونا وقد أسلمنا. فقال رسول الله - ﷺ - حين سمع دذلك: قد نصرت ياعمرو بن سالم.

إذن نقضت قريش المعاهدة، وحاربت من كان فى عهد رسول الله - ﷺ -، فكان لابد من تدارك هذه الفعلة بأسرع وقت، فمن ثم كان فتح مكة ونشر الإسلام بها، وإذا لم يحدث هذا بأسرع وقت، لتحالفت قبائل ضد قريش، ولتحالفت قبائل مع قريش، ولكانت حرباً ضروس، تشعل الجزيرة العربية ناراً.

تشعر قريش بالجُرم الكبير الذى ارتكبته بنقضها عهدها الذى عاهدت رسول الله - ﷺ - عليه، فتبعث أبا سفيان فى مهمة دبلوماسية إلى رئيس دولة الإسلام محمد ﷺ ليوكد على سريان المعاهدة، وأن هذا الذى حدث إنما هو حدث عارض يمكن تخطيه. ولكن لم يرد عليه رسول الله - ﷺ - ورفض كل من أبى بكر وعمر وعلى وفاطمة أن يلعبوا دور الوسيط الدبلوماسى، فيرجع أبو سفيان إلى مكة، وقد فشل فى مهمته. ثم يصدر القائد الأعظم محمد ﷺ أوامره إلى جيشه بالمسير إلى مكة، على أن يتم ذلك فى غاية السرية.

---

(1) الأتلد القديم.

(2) الأبيات كاملة فى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى

ما زلنا مع أحـداث هذا الفتح العظيـم، الذى كان لابد منه لدفع خطر مـشركى قريش عن دولة الإسلام، ولمنع حرب هى واقعـة لا محالة إذا لم يتدخل رسول الله - ﷺ - ومع الأحداث القادمة سنعرض للمواقف المحمدية المضيئة.

ذكـرنا أن رسول الله - ﷺ - قـد نبّه على قواتـه أن المسيـر إلى مكة يجب أن يحاط بالسرية الكامـلة، وفى الحقيقة كـان هدفه من ذلك هو المباغتة، تلك المبـاغتة التى تشل يد العدو عن القـتال، فلا يقع أصلاً، وهـذا ما أراده رسول الله - ﷺ - أراد أن تفتح مكة بلا نقطة دم، ولكن يعمد أحد أفراد الجيش، وهو حاطب بن أبى بلتعة إلى إفشاء السر للعدو المكى، فيكتب كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى عزم عليه رسول الله - ﷺ - من السـير إليهم، ويعطى الكتـاب لامرأة، ويعطيها مـبلغاً من المال على أن توصل الكتـاب إلى قريش فيـعلم رسول الله ﷺ بالخبـر ويُقبض على المرأة ومعها الكتاب قبل أن توصله إلى قريش.

فعل خطيـر أتاه هذا الجندى؛ فالدولة فى حالة حـرب، ومع ذلك يراسل العدو ويخبره بموعد الهـجوم، فهى جريمة خيانة عظمى جـزاؤها سواء فى النظم القانونية القديمة أو الحديثة القتل ولكن، هل قتله رسول الله ﷺ ؟

دعا رسول الله هذا الجندى (حـاطب) فقال: «**ياحـاطب ما حـملك على هذا؟**» فقال: يـارسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله مـا غيَّرت ولا بدَّلت، ولكننى كنت امـرءا ليس لى فى القوم من أصل ولا عـشيـرة، وكان لى بين أظهـرهـم ولد وأهل فصانعتهم عليهم.

انتهى حاطب من دفاعـه عن نفسه، فأصدر عمر بن الخـطاب الحكم عليه فقال: يارسول الله دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق.

فيـرد عليه نبـى الرحمة ويـقول: «**ومـا يدريك ياعـمـر لعل الله قـد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فـقال: اعملوا ما شئتم فقـد غفرت لكم**» وكـان حـاطب ممن شهد بدرا. نقول لمن يعـادى الإسلام : اقرأوا ، فهذا هو الإسلام الحـقيقى، ونقول لمن يزرعون بذور الإرهاب اقرأوا وتدبروا.

ضاقت الدنيـا بأبى سفيان، ولم يدر مـا يفعل، وزاد همه حين اقـتربت القوات

المحمدية من مكة فيدخل على رسول الله - ﷺ - وبعد مشاورات يُعلن إسلامه، ولما كان الرسول - ﷺ - يعلم بسيكولوجية أبى سفيان وحبه للفخر، فقد قال له: **من دخل دار أبى سفيان فهو آمن،** فرفع هذا من عزيمته، حتى إذا جاء قريش صرخ بأعلى صوته: يامعشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فقالوا: قاتلك الله!وما تغنى عنا دارك؟(فهى لن تسعهم) قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

يدخل رسول الله - ﷺ - مكة، وكان قد أعطى أوامره لامرائه من المسلمين ألا يقتلوا أحداً إلا من قاتلهم ، إعمالاً لقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**[1] ثم يقوم - ﷺ - على باب الكعبة ويقول: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو موضوع تحت قدمى هاتين إلا سدَانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها فى بطونها أولادها، يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا** رسول الله - ﷺ - : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[2] **يامعشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أنى فاعل بكم؟** قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، ثم قال: اذهبوا **اذهبوا فأنتم الطلقاء»** ثم أتى جميع الناس بمكة لبيعة رسول الله - ﷺ - على الإسلام، فبايع الرجال ثم بايع النساء.

مشهد أخير من مشاهد هذا الفتح العظيم، يقول ابن اسحق: كان رسول الله - ﷺ - بعث فيما حول مكة السرايا تدعوا إلى الله - عز وجل ولم يأمرهم بقتال(3)

(1) البقرة: 190 .

(2) الحجرات: 13

(3) وهذا يؤكد وجهة نظرنا من أن السرايا كانت تبعث كقاعدة لنشر الدعوة أو الاستطلاع، ولم تكن تقاتل الا استثناء فى حالة وقوع هجوم عليها انظر ما سبق وذكرناه عند الحديث عن سرايا رسول الله - ﷺ -

فبعث خالد بن الوليد داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، فوصل إلى بنى جذيمة فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقال رجل منهم: ويلكم يابنى جذيمة إنه خالد! والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحى أبداً. فأخذه رجال من قومه فقالوا: أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس. فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع الناس سلاحهم لقول خالد. فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم.

فلما وصل الخبر إلى رسول الله - ﷺ - رفع يديه إلى السماء ثم قال: **«اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»**.

وتذكر بعض الروايات أن خالداً قد قتلهم لأنهم لم يقولوا أسلمنا، لكنهم قالوا: صبأنا صبأنا.

على كل حال، لم يكن فعل خالد ليرضى رسول الله - ﷺ - حتى ولو لم يُسلم القوم، لأنه لم يعط أوامره بالقتال، فدعا - ﷺ - على بن أبى طالب فقال: «ياعلى اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك» فخرج علىّ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله - ﷺ - فدفع دية القتلى، وما أصيب لهم من الأموال، حتى إذا لم يبق شئ من دم ولا مال بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علىّ حين فرغ منهم: هل بقى لكم دم أو مال؟ قالوا: لا قال: فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله - ﷺ - مما لا يعلم ولا تعلمون. ثم رجع إلى رسول الله - ﷺ - فأخبره الخبر فقال: **«أقسطت وأحسنت»**.

والرسول - ﷺ - بفعله هذا يُعلّم المسلمين أنه لا قتال إلا من قاتل، ولا إكراه فى الدين، تطبيقاً للمبدأ القرآنى

سادس عشر: غزوة حنين:

ثلاث غـزوات مـتـصلة يغـزوها - ﷺ - دفـاعـاً عن دولة الإسـلام: حنين، وأوطاس، والطائف فسـببهم واحد، وكـانت البداية بعد فـتح مكة فى الخامس من شوال سنة ثمان، يقول ابن اسحق فى سيـاق الحديث عن غزوة حنين: ولما سمعت هوازن برسول الله - ﷺ - ومـا فتح الله عليـه من مكة جمعـها ملكُهـا مالك بن عوف النصْرى، فاجتمع إليه ثقيف كلها واجـتمعت نصر وجُشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال وهم قليل ولم يشهدها من قيس عيْلان إلا هؤلاء. وغاب عنها ولم يحضرها من هوازن: كعب وكِلاب، ولـم يشهدها منهم أحد له أسم، وفى بنى جُشَم دُرَيد بن الصِّمَة شيخ كبير (وكان فى الجاهـلية فارس مغوار) ليس فيه شئ إلا التيمُّن برايه ومـعرفته بالحرب، وكـان شيخاً مجرِّبـاً، وفى ثقيف سيِّدان لهم، وفى الأحـلاف قارب بن الأسـود، وفى بنى مـالك ذو الخِمَار سُبَيع بن الحارث وأخـوه أحمد بن الحارث، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النَّصْرى[1].

كل هذه الجمـوع اجتمـعت لقتال المسلـمين، وإصراراً من مـالك بن عوف على القتال وعدم الفرار، فقد أحـضر مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، حتى لا يفر أحد تاركـاً المعركة ورفض نصيـحة دُرَيد بن الصمة، الذى قـال له: هل يرد المنهزم شئ؟! إنهـا إن كانت لك لم ينفـعك إلا رجلٌ بسيـفه ورمـحه، وإن كـانت عليك فضحت فى أهلك ومالك[2].

وكعادة محمد - ﷺ -، ذلك القـائد العسكرى الفريد يرسل من يستطلع له أمر هذا الجيش، وأمـره أن يدخل بين أفراد الجـيش وكأنه منهم، وتم له مـا أراد، فلما علم عدتهم وجد أن السلاح، الموجود تحت يده غير كاف للقاء هذا الجمع، فذُكر له

(1) انظر سيرة بن هشام جـ 4 ص 237، وصفوة السيرة النبوية جـ 3 ص269 ، وتاريخ الطبرى أحداث السنة الثامنة جـ 2 ص462

(2) المصادر السابقة

أن عند صفوان بن أميه أدراعاً له وسلاحا فأرسل إليه وهو يومئذ مُشرك فقال: «ياأمية أعِرْنا سلاحك هذا نَلْقى فيه عدونا غداً» فقال صفوان: أغصباً يامحمد؟ قال: «بل عاريةٌ مضمونة حتى نؤديها إليك» قال: ليس بهذا بأس. وهنا يؤكد رسول الله - ﷺ - على المبدأ القرآنى الذى لم ينه عن التعامل مع غير المسلمين طالما لم يكن بيننا وبينهم قتال إعمالاً لقوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

يلتقى الجيشان، ويلوح النصر فى أول الأمر للمشركين، وفر بعض المسلمين، لكن رسول الله - ﷺ - لم يفر، بل أخذ يجمع صفوف المسلمين وينادى ويقول: **«أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»**[2] فننشط عزيمة المسلمين.

ومن ثم كان النصر للمسلمين، وانهزمت هوازن وتفرق جيشها فى أكثر من موضع كما سنرى حالاً.

سابع عشر: غزوة أوطاس:

وكان سببها أن هوازن لما انهزمت ذهبت فرقة منهم فيهم الرئيس مالك بن عوف النصرى فلجاوا إلى الطائف فتحصنوا بها، وسارت فرقة فعسكروا بمكان يقال له: أوطاس، فبعث رسول الله - ﷺ - سرية من أصحابه عليهم أبو عامر الأشعرى،

---

(1) الممتحنة 8,9 .

(2) صحيح البخارى - كتاب الجهاد - باب من صف أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر. وصحيح مسلم - كتاب الجهاد - باب فى غزوة حنين ونص الحديث قال رجل للبراء: يا أبا عمارة أفررتم يوم حنين؟ قال لا والله ما ولى رسول الله - ﷺ - ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسراً ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح، فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبنى نصر، فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطئون. فأقبلوا هناك إلى رسول الله - ﷺ - . ورسول الله - ﷺ - على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث يقود به. فنزل فاستنصر وقال «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» ثم صفهم

فيُقتل أبو عامر، وبأخذ الراية أبو موسى الأشعرى وهو ابن عمه، فقاتلهم ففتح الله وهزمهم الله عز وجل، وفيها قُتل دُرَيد بن الصِّمَّة[1].

ثامن عشر غزوة الطائف:

ذكرنا أن هناك فرقة من جيش ثقيف فرَّت إلى الطائف ولما قدموا الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها، ثم سار رسول الله - ﷺ - إلى الطائف حين فرغ من حنين، فحاصرهم سبع عشرة ليلة[2].

يبدأ رسول الله - ﷺ - بالسلم، فيبعث منادياً ينادى: من خرج إلينا فهو حر، فخرج من خرج، فأعتقهم - ﷺ - ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يرعاه ويهتم به، فانظر إلى الخُلق القرآنى وتأمل.

لم يستطع المسلمون اقتحام الطائف لقوة الحصون، ولشدة ما قاسى المسلمون من رميهم بالنّبل، فقال - ﷺ - : «**إنا قافلون غداً إن شاء الله**» قال أصحابه: ترجع ولم نفتحه؟ فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «**إنا قافلون غداً**» فأعجبهم ذلك، فضحك رسول الله - ﷺ -[3].

فلما رجع النبى - ﷺ - إلى الجعرانة أدركه وفد هوازن وقد أسلموا فأعتق أبناءهم ونساءهم كلهم، وذلك فى ذى القعدة سنة ثمان.

تاسع عشر: غزوة تبوك:

لم تذكر لنا كتب السيرة سبباً مباشراً لخروج رسول الله - ﷺ - فى تلك الغزوة بجيش يزيد عن الثلاثين ألفا، وكل ما ذكرته أنه - ﷺ - قد خرج فى هذا الجمع الغفير فى رجب سنة تسع لغزو الروم، وفى ذلك يقول ابن اسحق أقام الرسول -

---

(1) انظر: سيرة ابن هشام جـ 4 ص 247 وصفوة السيرة جـ 3 ص283، وتاريخ الطبرى أحداث السنة الثامنة جـ 2 ص465

(2) كما فى رواية ابن هشام وعند ابن اسحق بضع وعشرين ليلة انظر المصادر السابقة

(3) انظر المصادر السابقة، وكذلك صحيح البخاري كتاب المغازى باب غزوة الطائف. وصحيح مسلم كتاب الجهاد - باب غزوة الطائف

ﷺ - بالمدينة بعد منصرفه من الطائف ما بين ذى الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم(2).

ولكن ينبغى أخذ الرواية السابقة بشئ من الحذر فلا فيجب علينا أن نجعل الغزو مرادفاً للحرب والقتال ، خاصة وأن هذه الغزوة لم يقع بها ثمة قتال، ولما كانت الأحداث التاريخية كل لا يتجزأ، فعلينا الرجوع إلى سنة ثمان، وتحديداً فى جمادى الأولى من هذه السنة حيث بعث الرسول - ﷺ - سرية إلى الشام لنشر الدعوة وهى سرية بئر مؤتة(2).

أرسل رسول هذه السرية إلى أرض الشام بغرض نشر الدعوة وكان قوام السرية ثلاثة آلاف رجل وأميرهم زيد بن حارثة وإن أصيب فجعفر بن أبى طالب، وإن أصيب فعبد الله بن رواحة، وكأن رسول الله - ﷺ- يعلم أن هذه السرية ستتعرض لهجمة شرسة وهى فى سبيلها لنشر الدعوة بالشام، وإذا تساءلنا عن هذا الجمع الغفير الذى ضمته هذه السرية، فالإجابة سبق وأوردناها عند الحديث عن سرايا الرسول، وذلك أن هذه السرايا كثيراً ما كانت تلقى حتفها وهى فى سبيلها لنشر الدعوة، فمن ثم كان هذا العدد لحماية السرية.

تمضى السرية فى طريقها حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها «مشارف» ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة.

وتذكر كتب السيرة عدة جنود الروم بأنها بلغت مائة ألف وانضمت إليها المستعربة من لخم وجذام، وبلقين، وبهراء، وبلى فى مائة ألف.

---

(1) سيرة ابن هشام : جـ 4 ص 286 وصفوة السيرة جـ 4 ص4 وتاريخ الطبرى أحداث السنة التاسعة حـ 2 ص473 .

(2) فى خبر هذه السرية - انظر سيرة ابن هشام - جـ 4 ص 289 وما بعدها وصفوة السيرة جـ 3 ص194 وما بعدها، وتاريخ الطبرى أحداث السنة الثامنة جـ 2 ص45 وما بعدها.

وقد عمدنا إلى ذكر خيبر هذه السرية فى هذا الموضع ولم نذكرها مع جُملة السرايا إتماماً للفائدة ولا رتباطها الوثيق بغزوة تبوك.

التقى الجمعان واقتتلوا، فيُقتل الأمراء الثلاثة بترتيبهم السابق بيانه فيأخذ خالد بن الوليد الراية ويؤمِّر نفسه على السرية، والغريب أن المؤرخين اختلفوا فيما انتهت إليه هذه السرية، فالواقدى يقول: لما قتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد فلما أصبح غداً وقد جعل مقدمته ساقة وساقته مقدمة وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة، فاعتقد الروم أن هناك مدد لجيش المسلمين فرعبوا وانكشفوا منهزمين.

أما ابن اسحق فيذكر أن خالداً لما وجد هذه الجموع الكثيرة وضع خطة للانسحاب، وعندما رجع إلى المدينة أخذ المسلمين يحثون التراب على الجيش المنسحب ويقولون: يافُرَّار فررتم فى سبيل الله. فقال رسول الله - ﷺ -: «ليسو **بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله عز وجل**»[1].

وفى الحقيقة ما ذكره ابن اسحق هو الأقرب إلى العقل والمنطق، فجيوش الروم والعرب بلغت مائتى ألف، وجيش المسلمين ثلاثة آلاف، فكانت النسبة واحد إلى مائة، وتحقيق النصر للمسلمين - والحالة هذه - أمر شبه مستحيل.

ولنقف قليلاً أمام مقولة رسول الله - ﷺ -: «ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّار» فالرسول ﷺ - يرى وبحق - أن هذه السرية لم تفر من الجهاد[2] فقد أرسلت لا لقتال، وإنما للدعوة، ولما وجدوا أنه لا سامع لهم، وأن القوم قاموا لقتالهم، لم يكن أمامهم إلا الرجوع، ولو أن الرسول - ﷺ - كان قد أرسلهم للقتال - من أول الأمر - لثبتوا حتى قُتل آخر جندى منهم.

هذا الهجوم الشرس الذى تعرضت له سرية بئر مؤتة، لم يكن بالأمر الذى يُثنى

(1) يحاول ابن كثير أن يوفق بين وجهتى النظر، فيذكر أن هناك فرق من جيش المسلمين فرَّت أثناء المعركة، وهم الذين جعل المسلمون يحثون عليهم التراب، ويذكر أن باقى الجيش الذى صمد فى المعركة قد كُتب له النصر. وفى الحقيقة فإن تحليل ابن كثير لا يستقيم مع العقل، فجيش المسلمين فرت منه فرقة، وقُتل منه الكثير، فأصبح أوهن مما كان، فكيف يكتب له النصر؟! فى هذا التحليل لابن كثير انظر - صفوة السيرة النبوية جـ 3 ص201 .

(2) فالجهاد يكون بالكلمة كما هو بالسيف.

محـمد - ﷺ - عـن المضى فى دعوته، والخـروج بها إلى الروم، ومن ثم كـانت غزوة تبوك بعد مرور سنة على وقعة مؤتة.

كان يجب بعد وقعة مؤته - أن تطرأ بعض المتغيرات على أسلوب الدعوة، فرغم أن سرية مؤتة ضمت ثلاثة آلاف مجاهد، إلا أنهم تعرضوا للهجوم فرأى الرسول - ﷺ - أنه أولاً: عليه الخروج بنفسه، وثانياً: عليه أن يصحب معه من المسلمين أكبر عدد ممكن، حتى يفكر الـقوم ألف مرة قبل أن يشنوا أى هجوم، فـيكون هذا دافعاً لأن تسـمع آذانهم، وتتفكر عـقولهم، وتـصغى قلوبهم قـبل أن تعمل سـيوفـهم، فأخبرهم بذلك محمد - ﷺ - أن يكون خـيار الحرب هو الخيار الأخير لهم، ومن ثم يستطـيع المسلمون نشر الدعـوة لذا خرج مـحمد - ﷺ - النبى الـداعى القائد وبصحبته ثلاثين ألف مسلم، فهل تحقق له ما أراد؟!

تذكر لنا كتب السيرة والتاريخ أن الرسول - ﷺ - كان قد كتب كتاباً إلى قيصر الروم[1] وأنه كان على وشك أن يعلن إسلامه، لكنه خشى سلطة القساوسة، ولكنه (أعنى قيصر) لم يرد على الكتاب بالقـبول أو الرفض، ولكنه كان على الحياد وهذه تعتبر - إن جاز التعبير - شبه معاهدة.

ويقول ابن اسـحق: ولما انتهى رسول الله - ﷺ - إلـى تبوك أتاه يُحنَّه بن رؤبة صاحـب أيلة فصـالح رسول الله - ﷺ - وأعطاه الجـزية، وأتاه أهل جَرْباء وأذْرُح فأعطوه الجـزية وكذلك أتاه أكَيْدر بن عبد الملك، وهو من بنى كندة وكـان ملكها، فتصالح كـسابقيه، فأسفرت الغزوة عن إبرام عـدة معاهدات مع هؤلاء القوم، ولم تنشب أية معارك، وهذا دليل على أن هذه الغزوة إنما كانت جوله دبلوماسية، لمحمد - ﷺ - ، ولكنها كانت تحـتاج للتأمين الكافى، نظراً لما كان يلاقـيه المسلمون من صعاب، تصل فى كثير من الأحيان إلى حد القتال.

---

(1) سنعرض كتب الرسول - ﷺ - للملوك فى موضع مستقل من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

التناقض المزعوم بين حروب الردة ومبدأ حرية العقيدة

أولاً: حكم المرتد فى الإسلام:

إذا كان المبدأ القرآنى يقرر حرية العقيدة، لقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1] وقوله جل شأنه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2] إذا كان الأمر كذلك، فلماذا حارب الخليفة الأول أبو بكر الصديق المرتدين؟ ولماذا كان القتل جزاء لمن بدل دين الإسلام واتخذ له ديناً جديداً؟

قبل الإجابة على هذين التساؤلين، يكون حرياً بنا أن نعرض للحكم القرآنى فيمن ارتد عن دين الإسلام، ونبدأ بقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4] والآية الأولى تصف حال المرتد بأنه ضل الطريق القويم، والثانية تعاقبه عقاب أخروى، وهو بطلان الأعمال وفسادها، ومن ثم يكون خلوده فى النار. ويقول عز وجل: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

---

(1) البقرة: 256.

(2) الكهف: 29.

(3) البقرة: 108 .

(4) البقرة: 217.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾[1] والجزاء هنا اللعنة والخلود فى النار، إلا من تاب وأصلح، أما الذين ازدادوا فى الكفر بعد الإيمان، فمثل هؤلاء لن تقبل توبتهم ويتأكد هذا المعنى فى موضع آخر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[2] ويقول سبحانه وتعالى فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] وهنا يخاطب الله الذين آمنوا ويحذرهم من تبديل دينهم بأنه - سبحانه وتعالى - سيأتى بمن هو خير منه، ويفضلهم عليهم، وهو اسلوب من أساليب الترغيب.

ويقول عز وجل فى سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[4] وفى الآية عقاب لمن كفر بعد إيمانه بعدم الهداية والخسارة فى الاخرة، واستثنى من أُكره على النطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان.

وفى سورة المنافقون يقول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا

(1) آل عمران: 86 - 90.
(2) النساء: 137.
(3) المائدة: 54
(4) النحل 106 - 109

أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وهذه الآيات جدير بنا أن نقف معها قليلاً، ففيها كثير من النفائس تبين لنا موقف رسول الله - ﷺ - من هؤلاء المنافقين الذين آمنوا ثم كفروا، وحسبنا هنا ما ذكره ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات فى رواية سندها عروة بن الزبير وعمر بن ثابت الأنصارى، جاء فى الرواية: أن رسول الله - ﷺ - غزا غزوة المريسيغ وهى التى هدم رسول الله - ﷺ - فيها مناة الطاغية.. فاقتتل رجلان فى غزوة رسول الله - ﷺ - تلك أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز وهم حلفاء الأنصار، فاستعلى الرجل الذى من المهاجرين على البهزى، فقال البهزى: يامعشر الأنصار، فنصره رجال من الأنصار، وقال المهاجرى: يامعشر المهاجرين، فنصره رجال من المهاجرين، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شئ من القتال، ثم حجز بينهم فانكفأ كل منافق أو رجل فى قلبه مرض إلى عبد الله بن أبى بن سلول فقال: قد كنت ترجى وتدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع، قد تناصرت علينا الجلابيب، وكانوا يدعون كل حديث الهجرة بالجلابيب، فقال عبد الله ابن أبى

(1) المنافقون: 1 - 8

عدو الله والله لئن رجعنــا إلى المدينة ليخرجن الأعز منهــا (عبد الله بن أبى) الأذل (يعنى رسول الله - ﷺ -) فقال مالك بن الدخــشن وكان من المنافقين - ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا؟ فسمع بذلك عمر بن الخطاب، فأقــبل حــتى أتى رسول الله - ﷺ - فــقال: يارســول الله ائذن لى فى هذا الرجل الذى قد أفتن الناس أضرب عنقــه، فقال رسول الله - ﷺ -: **«أو قــاتله أنت إذا أمرتك بقــتله؟»** قال: نعم، والله لئن أمرتنى بقتله لأضربن عنقه . فقال رسول الله - ﷺ -: **«اجـلـس»** فأقبل أسيد بن حضيــر وهو أحد الأنصار ثم أحد بنى عبد الأشهل حــتى أتى رسول الله - ﷺ - فــقال:يارســول الله أئذن لى فى هذا الرجل الذى قد أفتن الناس أضــرب عنقه فقــال رسول الله - ﷺ -: **«أو قــاتـله أنت إن أمرتك بقتله؟»** قال: نعم، والله لئن أمرتنى بقتله لأضرب بالسيف تحت قرط أذنيه. فقــال رسول الله - ﷺ -: **«اجلـس»** ثم قال رســول الله - ﷺ - آذنوا بالرحيل، فهجر الناس فــسار يومه وليلته والغد حتى منع النهــار ثم نزل ثم هجر بالناس حتى صبح بالمدينة. . فلما قــدم رسول الله - ﷺ - المدينة أرسل إلى عمر فدعــاه، فقال له رسول الله - ﷺ -: **«أى عمر أكنت قاتله لو أمرتك بقتله؟»** فقال عمر: نعم. فقــال رسول الله - ﷺ -: **«والله لو قتلتــه يومئذ لأرغمت أنوف رجــال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه فــيتحدث الناس أنى قد وقعت على أصحابى فــأقتلهم صبراً»**(1) وفى رواية: **«دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**.

وفى تفسير نفس السورة يذكر ابن كثير أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله - ﷺ - فــقال يارسول الله إنه بلغنى إنك تريد قتل عبد الله بن أبى فــيما بلغك عنه فإن كنت فــاعلاً فمرنى به فــأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمــت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منــى، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى بين الناس.

(1) تفسير ابن كثير لسورة المنافقون

فأقـتل مؤمناً بكافـر فأدخل النار. فقـال: رسول الله - ﷺ - «بل تـتـرفـق به ونحسن صحبته ما بقى معنا»[1].

وباستقراء النصوص القرآنية والروايات السابقة يتضح لنا بجلاء أن القرآن لم يأت بعقوبة دنيوية على الكفر المجرد، ولكن كل ما قرره فى هذا الشأن عقوبات أخروية، ووعيد بعذاب النار مع بقاء باب التوبة مفتوح على مصراعيه، وجدير بالذكر أن كل الآيات التى أوردناها - باستثناء سورة النحل - نزلت بالمدينة المنورة، أى أن حكمها تقرر ليطبق فى المجتمع الإسلامى، وفى الحقيقة فإن هذا الحكم لم يختلف كثيراً عن الحكم الذى قـررته آيات سـورة النحل المكيـة التى نزلـت فى ظل حكم وثنى، إذن فالقاعدة القرآنية فى هذا الشأن ثابتـة، لا قتل لمرتد، ولا عقوبة على الكفر المجرد، وأكد هذه القاعـدة ما فعله رسول الله - ﷺ - من نهيه لعـمر بن الخطاب عن قتل عبد اللهبن أبى - رغم ثقـة رسول الله - ﷺ - فى نفاقه - وكـذلك من نهيه لأبنه (عبد الله بن عبد الله بن أبى) عن قتل أبيه، كل هذا يؤكد أنه لا يوجد قاعدة قرآنية تقول بحد المرتد كيف قـيل إذن، إن هناك حداً شرعياً يستلزم قـتل كل من كفر بعد إيمـان؟ لقد اتـضح بكل جلاء أن القـرآن الكريم لم يقـرر هذا «الحـد» بل إن آياته اقتصرت على عقاب جهنم التى هى حسب الكـافرين على ما تقدم بيانه، وتطبيقات النبى - ﷺ - الفـعلية وهو المسـئول الأول، والأخلص، والأجـدر ببيـان شريـعة القرآن، وتكرار قوله - ﷺ - إنه لو سرقت فاطمة بنت مـحمد لقطع محمد يدها، كل ذلك ينفى يـقيـناً أن يثـبت - وبخـاصـة على سند من القـرآن - حـد فى هذا الشأن[2].

---

(1) المصدر السابق.

(2) د. محمد بدر - الديمقراطية الآثينية وسيادة القانون فى التوارة والإنجيل والقرآن - القاهرة 1995 ص 407 - 409.

ثانياً: لماذا قال بعض الفقهاء بقتل المرتد:

والسؤال الآن، لماذا قال بعض فـقهاء المسلمين بقتل المرتد؟ فى الحقـيقة، نجد أن هذا الفقـه قد اعتـمد فى تدعيم هذا الرأى بما ورد فى كـتب السنة أن رسول الله - ﷺ - قال: **«من بدّل دينه فاقتلوه»**(1) والرواية فى موطأ الإمام مالك: **«من غير دينه فاضربوا عنقه»**(2).

بداية نقول: أن كثـيراً من العلماء يرى أن الحدود لا تثبت بحديث الآحاد؛ وأن الكفر ليس مـبيحـاً للدم، وإنما المبيح للدم هو مـحاربة المسلمين، والعـدوان عليهم ومحاولة فتنتهم عن دينهم(3).

ويعزز هذا الرأى الرواية الكاملة - والموصـولة - للحديث كما ورد فـى صحيح البخارى حيث يقول: حدثنا أبو النعمان مـحمد بن الفضل حدثنا نعمان بن زيد عن أيوب عن عكرمة، قال: أتى علىّ - رضى الله عنه - بزنادقة فـأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عـبـاس ، فقـال: لو كنت أنا لم أحـرقـهم، لنهى رسـول الله - ﷺ - (عن التعذيب بعذاب الله) ولقتلتهم لقول رسول الله - ﷺ: «من بدَّل دينه فاقتلوه»(4).

ومعلوم أن الزنادقـة: هم الذين يسرون الكفـر ويظهرون الإيمان، فـهم يظهرون عكس مـا يبطنون بغـية إثارة الفتن وزعـزعة الأمن الداخـلى فى البلد، فهـؤلاء لم يحرقهم على بن أبى طالب - رضى الله عنه - لمجرد كفرهم، ولكن لعظم خطرهم الذى يحـيق بالمسلمـين، وذلك الخطر يكمـن فى تبديـل الدين ، وهو يعنى - أى

---

(1) صحيح البخاري - كـتاب الجهاد - باب لا يعذب بعذاب الله، وكتاب استـتابة المرتدين والعائدين وقتالهم. باب حكم المرتد والمرتدة.

(2) موطأ مالك - كتاب الأقضية - باب القضاء فيمن ارتد عن الإسلام.

(3) الشيخ المرحوم محـمود شلتوت - شيخ الأزهر - الإسلام عقيدة وشـريعة - دار الشروق - القاهرة 1972 ص301

(4) صحيح البخارى - كتاب استتابة المرتدين والمعانديس - باب حكم المرتد والمرتدة.

التبديل - جعل الدين على غير ما هو عليه فى حقيقته، كأن يعفوا المسلمون من الزكاة، أو الصلاة، مما يؤدى إلى انقسام الجماعة، فهؤلاء بكفرهم وتبديلهم- معاً - هم الذين يقاتلون[1].

ويستقيم هذا الفهم إذا جُمع بين الحديث السابق وحديث عبد الله بن مسعود حيث قال: قال رسول الله - ﷺ - **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول إلا بأحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والمارق من الدين المفارق للجماعة»**[2].

فمن ناحية يقول الحديث: «لا يحل دم امرئ مسلم» فهو يتحدث عن المسلم ظاهراً، لأن الباطن لا يعلمه إلا الله، فلم يقل - ﷺ - لا يحل دم امرئ كفر بعد - إسلامه، فهذا الذى يُظهر عكس ما يُبطن يعلم ما يداخله عندما يجهر بقوله وتتكشف نيته، ومن ناحية أخرى تطلب الحديث توافر شرطين، يجب اجتماعهما معاً أولهما: المروق من الدين بتبديله وتغييره، وثانيهما: مفارقة الجماعة، بأن يعادى الدولة ويدبر لوقوع الفتن والانقسامات، أما إذا بدَّل دينه بأن اعتقد اعتقاداً معين وظل مسالماً للجماعة، فيكون له مالهم، وعليه ما عليهم، بمعنى أن يكون خاضع خضوع تام لقوانين الدولة، مثله فى ذلك مثل باقى المواطنين، فهنا لا يجوز قتله[3].

وبعد هذا العرض يتضح لنا التوافق التام بين السنة - عملية كانت أم قولية - والنصوص القرآنية فيما قررته من الاقتصار على العقوبة الأخروية لمن بدَّل دينه تبديلاً مجرداً ينأى عن أى مساس بأمن الدولة الإسلامية، فلكل أمرئ أن يعتقد ما

---

(1) انظر نفس المعنى - د. محمد بدر - مصدر سابق ص 413 .

(2) صحيح مسلم - كتاب القسامة - باب ما يباح به دم المسلم.

(3) قرب د. محمد بدر - مصدر سابق - ص 416.

يشاء ما دام هذا الاعتقاد - فى حالة فساده - يقتصر ضرره عليه، أما أن يهدد الدولة بأكملها فهنا يخرج المعتقد من الذاتية إلى فتنة قد تهدد وجود الدولة ككل، ومن ثم يكون لزاماً القضاء على بؤرتها قبل أن تحرق نيرانها الجميع.

ثالثاً: أبو بكر وحروب الردة:

وبعد عرض النظريتين - القرآنية والسنية - يكون حدى بنا أن نعرض لموقف الخليفة الأول أبو بكر الصديق من الذين بدلوا الدين وأرادوا الخروج على النظام الحاكم، وذلك لنرى مدى التطابق بين النظرية والتطبيق.

كان الوضع سيئاً للغاية، ويحتاج إلى قرار سريع وحاسم، وإلا انفلتت الأمور، ولاقتلعت العاصفة الدولة الوليدة من جذورها، فكل البقاع تقريباً أحرقتها نيران الفتنة، ويصور الطبرى فى تاريخه هذا الوضع فيقول: «لما فصل أسامة كفرت الأرض وتضرمت وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفا»(1) ويقول فى موضع آخر: «لما مات رسول الله - ﷺ - وفصل أسامة ارتدت العرب عوام أو خواص، وتوخى مسيلمة وطليحة فاستغلظ أمرهما واجتمع على طليحة عوام طيئ وأسد وارتدت غطفان إلى ما كان من أشجع وخواص من الأفناء فبايعوه، وقدمت هوازن رجلاً وأخرت رجلاً أمسكوا الصدقة إلا ما كان من ثقيف، ولفّها فإنهم اقتدى بهم عوام جديلة، والأعجاز وارتدت خواص من بنى سليم، وكذلك كسائر الناس بكل مكان»(2).

والأمر لم يقف عند هذا الحد - فقد أرسلت هذه القبائل الوفود إلى أبى بكر الصديق يعلنون عصيانهم- صراحة للسلطة الحاكمة، فكل قبيلة من هذه القبائل تريد الاستقلال عن الدولة الإسلامية، وتريد التخلص من أى خضوع للسلطة الفيدرالية

---

(1) تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبرى) أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة.

(2) المصدر السابق.

(المركزية) فى المدينة ممثلة فى الخليفة الذى تم اختياره، ومن أهم مظاهر الانفصال، استقلال كل قبيلة بمواردها المالية، تجمعها من حيث تشاء، وتصرفها حيث تشاء. وفى هذا يقول الطبرى: «أقام أبو بكر بالمدينة بعد وفاة رسول الله - ﷺ - وتوجيهه أسامة فى جيشه إلى حيث قتل أبوه زيد بن حارثة من أرض الشام، وهو الموضع الذى كان رسول الله - ﷺ - أمره بالمسير إليه.. وقد جاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة، فلم يقبل ذلك منهم وردهم»[1].

لم يقف الأمر عند هذا الحد وازدادت الأوضاع سوءً، فهاهى القبائل ترجع لأحلافها القديمة فاجتمع طيئ وأسد وغطفان على طليحة[2] وكان قد ادعى النبوة زمن رسول الله - ﷺ - وظهرت النزعة القبيلية مرة أخرى، تلك النزعة التى لو أطلق لها العنان لتمزقت الدولة شر تمزق، وتفصيل الخبر كما جاء فى تاريخ الطبرى: «أنه كان بين أسد وغطفان وطيئ حلف فى الجاهلية فلما كان قبل مبعث النبى - ﷺ - اجتمعت غطفان وأسد على طيئ فأزاحوها عن دارها، فكره ذلك عوف فقطع ما بينه وبين غطفان، وتتابع الحيان على الجلاء وأرسل عوف إلى الحيين من طيئ فأعاد حلفهم، وقام بنصرتهم فرجعوا إلى دورهم واشتد ذلك على غطفان، فلما مات رسول الله - ﷺ - قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال: ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بنى أسد، وإنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا فى القديم ومتابع طليحة، والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش وقد مات محمد وبقى طليحة فطابقوه على رأيه ففعل وفعلوا»[3].

وكان هناك تجمع آخر باليمامة حول مسيلمة الكذاب، وكان مسيلمة قد تنبأ بها -

(1) المصدر السابق.

(2) ذكر الطبرى جانباً مما كان يقوله طليحة لمريديه ونصه: «والحمام واليمام والصرد الصوام قدصمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام»

(3) المصدر اسلابق

أى ادعى النبوة فى حيـاة رسول الله - ﷺ - وكان أمره ضعيـفاً، ثم وفد إلى النبى - ﷺ - ورجع إلى قومه فشهد رجـال بن عنفوه لأهل اليمامة أن رسول - ﷺ - قد أشركه فى أمره فعظم فتنته عليـهم، واشتدت شوكته بعد وفاة رسول الله - ﷺ - وكان مسيلمة يشرع القوانين الجديدة - غير ملتفت إلى الحكومة الشرعية بالمدينة - وكان مما شرع لهم: أن من أنجب ولداً واحداً عـقباً لا يأتى امرأة إلى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد حـتى ينجبه، فكان قد حرم النسـاء على من له ولد ذكر، وأذاع تعديلاً فى فروض الصلاة قال فيه: أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما آتاكم به محمد - ﷺ - صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر(1).

وكذلك ادعت (سجاح بنت الحارث بن سويد) النبوة بعد موت رسول الله - ﷺ - بالجزيرة فى بنى تغلب، فـاستجـاب لها أبا الهذيل، وترك التنصـر، وظلت تبرم المعاهدات مع بعض القبائل لتغزو أبا بكر بالمدينة، وكانت تقاتل من يرفض التحالف معهـا، وقتلت منهم الكثيـر، ثم وجهت نظرها إلى اليمامـة لتقضى على مسـيلمة ليكون لها الأمر وحدها تمهيداً لتنفيذ الانقلاب العسكرى والإطاحة بالحكومة الشرعية بالمدينة برئاسـة أبى بكر الصديق، وعندمـا حذرها جنودها من قـوة مسيـلمة وأهل اليمامة، أخذت تسجع سجع الكهان، والخبر كما جاء فى تاريخ الطبرى: «واجتمع أهل رؤساء أهل الجزيزة قالوا لهـا: ما تأمرينا؟ فقالت: اليمامة، فـقالوا: إن شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد غلظ أمر مسيلمة، فقالت: (عليكم باليمامة، ودفوا دفيف الحمامـة فإنها غزوة صرامـة لا يلحقكم بعدها ملامـة) وبلغ ذلك مسيلمة فـهابها، فأهدى لها، ثم أرسل إليها يستأمنهـا على نفسه حتى يأتيها فنزل الجنود على الأمواه وأذنت له وآمنتـه فجـاءها وافداً فى أربعـين من بنى حنيـفة، وكـانت راسخـة فى النصرانيـة قد علمت من علم نصـارى تغلب؛ فقـال مسيلمـة: لنا نصف الأرض،

(1) انظر المصدر السابق

وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد رد الله عليك النصف الذى ردت قريش فحباك به وكان لهـا لو قبلت. فـقالت: لا يرد النصف إلا من حنف فاحـمل النصف إلى خيل تراها كالسَّهف. فقـال مسيلمة: سمع الله لمن سمع وأطمـعه بالخير إذا طمع، ولا زال أمره فى كل ما سر نفسه يجتمع، رآكم ربكم فحياكم ومن وحشة خلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار لا أشقياء ولا فجار يقومون الليل، ويصومون النهار لربكم الكبار رب الغيوم والأمطار[1].

ثم يذكر الطبـرى قصة زواج سجـاح ومسيلمة الكذاب فـيقول: «إن مسـيلمة لما نزلت به سجاح أغلق الحـصن دونها، فقالت له سـجاح: انزل ، قال: فنحى عنك أصحـابك، ففعلت فقـال مسيلمـة: اضربوا لها قبـة وجمروها لعلهـا تذكر الزواج ففعلوا، فلما دخلت القبة نزل مسيلمـة، فقال: ليقف هاهنا عشرة، وهاهنا عشرة، ثم دراسها فقال: ما أوحى إليك؟ فقالت: هل تكون النساء يبتدئن ولكن أنت قل ما أوحى إليك! قال: ألم تر إلى ربك كيـف فعل بالحبلى أخرج منها نسـمة تسعى من بين صفاق وحشى. قالت: وماذا أيضـاً؟ قال: أوحى إلى أن الله خلق النساء أفراجا وجعل الرجال لهن أزواجـاً فنولج فيهن قعسـاً إيلاجا ثم نخرجها إذا نشـاء إخراجا فينتجن لنا سخالاً إنتاجـاً. قالت: أشهد أنك نبى قال: هل لك أن أتزوجك، فآكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم»[2].

والأخبـار السابقـة لم نوردها لطرافتـها، ولكن ليـتكشف لنا كيف كـانت تحاك

---

(1) بتصرف من تاريخ الطبرى.

(2) المصدر السابق - وانظر: البداية والنهـاية لابن كثير جـ 6 -427 حيث يقول: «كـانت بنو تميم قد اختلفت اراؤهم أيام الردة، فمنهم من ارتد ومنع الزكاة، ومنهم من بعث بأمـوال الصدقات إلى الصديق، ومنهم من توقف لينظر فى أمره فبينما هم كذلك إذا قبلت سـجاح بنت الحارث التغلبية من الجزيرة، وهي من نصارى العرب، وقد ادعت النبوة ومـعها جنود من قومها ومن التف بهم وقد عـزموا على غزو أبي بكر الصديق، فلما مرت ببلاد بنى تميم دعتهم إلي أمرها فاستجاب لها عامتهم

المؤامرات هنا وهناك وكيف كانت تُجمع الجيوش، وكيف عُقدت الزيجات - بين السفلة - للقضاء على دولة الإسلام، فكل هذه الجموع اتفقت على هدف واحد وهو - بتعبيرات العصر الحديث - قلب نظام الحكم، وهذه الرؤية كانت واضحة لرئيس الدولة - أبو بكر الصديق - إذن فالردة لم تكن مجرد ردة دينية، فحتى مسليمة الكذاب لم ينكر نبوة محمد - ﷺ - بل كان يدعى أنه أشركه معه فى الأمر، وعلى هذا فالردة كانت عسكرية بحتة جيشت لها الجيوش، وكان من أوضح مظاهرها - وكما ذكرنا - الامتناع عن توريد الموارد المالية للدولة، لذا عزم أبو بكر - رضى الله عنه - على مقاومة هؤلاء (فقال له عمر بن الخطاب: كيف تقاتل الناس، وقد سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: **أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله** فقال: أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والذى نفس أبى بكر بيده! لو منعونى عقالاً أو عناقاً - كانوا يؤدونها إلى رسول الله - ﷺ - لقاتلتهم عليه حتى آخذها، فقال عمر: فلما رأيت شرح صدر أبى بكر لقتالهم علمت أنه الحق[1].

وفى الحقيقة لم يبدأ أبو بكر بمحاربة الخارجين على السلطة حتى بدأوا هم فى الهجوم على المدينة، بغية القضاء على الحكومة الشرعية، فبعدما أعلن أصحاب الانقلاب موقفهم صراحة لأبى بكر، وأنهم لن يذعنوا لحكومته، ولن يمدوا الدولة

---

(1) ابن حيان - السيرة النبوية وأخبار الخلفاء - ص 245 وننبه نظر القارئ أن الناس الذين عناهم رسول الله - ص بقوله: «أمرت أن أقاتل الناس» هم العرب، أى المواطنين فى الدولة التى قامت فى حياته؛ فمن استعمالات اللغة العربية أن تكون أداة التعريف «أل» للعهد؛ أى لما هو معهود للقارئ أو السامع فلا يعنى إذن استغراق الجنس الإنسانى، وهذا الاستعمال واضح كل الوضوح فى قول الله تعالى ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ سورة آل عمران 3، 173 فالناس الذين قيل لهم، غير الناس الذين قيل عنهم أنهم جمعوا، وهؤلاء جميعاً غير سائر الناس، الذين لا جمعوا ولا قالوا ولا قيل لهم د محمد بدر الديمقراطية الأثينية ص424

بأية أمـوال، بعد كل هذا لاحـظ هؤلاء قلة القوات - الموالـية لحكومـة أبى بكر - بالمدينة، فخططوا للقيام بالانقـلاب، وخلال ثلاثة أيام هجموا على المدينة، ويروى ابن الكثير الخبر عن محمد بن اسـحق فيقول: «فعزم الله لأبى بكر على الحق وقال: لو منعونى عـقالاً لجاهدتهم» فردهم - أى وفـود المرتدين - فرجعوا إلى عـشائرهم فأخبروهم بقلة أهل المدينة وطمعوهم فيها، فجعل أبو بكر الحرس على أنقاب المدينة وألزم أهل المدينة بحضـور المسجد وقـال: إن الأرض كافرة وقـد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ليلاً يأتون أم نهاراً وأدناهم منكم عـلى بريد، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، فاسـتعدوا وأعدوا، فما لبثوا إلا ثلاثا حتى طرقوا المدينة غارة وخلفـوا نصفهم بذى حُسى ليكونوا ردءاً لهم، وأرسل الحرس إلى أبى بكر يخـبرونه بالغارة، فـبعث إليهم أن الزمـوا مكانكم، وخرج أبو بكر فى أهل المسجد على النواضح إليهم فانفش العدو واتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حسى فخرج عليـهم الردء، فالتقوا مع الجمع فكان الفتح»[1] بعـد أن نجح أبو بكر فى رد الاعتـداء عن عاصمة المسلـمين - المدينة - كان عليه أن يتـخذ إجراءاً وقائيـاً حتى لا يتكرر ما حدث فـقد يشن المناهضون له هجـوماً آخر، ولكن هذه المرة سيكون هجوماً مكثفاً يشترك فيه الجميع، فهنا سيصعب رد هذا الهجوم مما يكون نذيراً بضـياع الدولة. قـرر أبو بكر أن يتـمثل هذا الإجـراء فى صورة دعـوة جديدة لكل من خالف ، عسى أن يرجعوا عـما هم فيه، ولكن هؤلاء الدعاة يجب أن تدعمهم قطع صغـيرة من الجيش تحسباً لوقوع أى هجوم مـحتمل، فكان الغرض الأول من هذه الوفود هو الدعوة - وهو نفس الهدف من سرايا رسول الله - ﷺ - كمـا سبق ورأينا - أما القتـال فلن يكون إلا فى أضيق الحدود ولإعـادة الأمور إلى نصابها، وقد أصدر أبو بكر الصديق بياناً لأمراء هذه الوفود قال فيه:

---

(1) البداية والنهاية جـ 6 ص 417

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله - ﷺ - لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام. وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سره وعلانيته، وأمره بالجد فى أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل، وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه لا يقبل من أحد شيئاً إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه، ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغنا وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم، ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير، والمنزل ويتفقدهم، ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة، ولين القول»[1].

كذلك كتب أبو بكر كتاباً واحداً إلى جميع القبائل المرتدة، يدعوهم فيه للعودة إلى الخضوع إلى النظام القانونى - الإسلام - الذى ارتضوه لهم، وبموجبه أصبحوا مواطنين فى الدولة الإسلامية، وأن يرجعوا تحت حكم الحكومة الشرعية التى هى امتداد لحكومة رسول الله - ﷺ - ولم يكن خطابه موجه إلى من لم يعتنق الإسلام أصلاً، إنما الخطاب موجه إلى من اعتنق الإسلام، وصار مواطناً، ثم خرج على

(1) تاريخ الطبرى - أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة.

قانون الدولة، وعمد إلى قلب نظام الحكم، والكتاب فى مـجمله كان غرضه تجديد الدعوة، وتجديد العـهد مع هؤلاء الخارجين، ذلك العهد الذى قطعـوه على أنفسهم فى حياة النبى - ﷺ - قال أبو بكر فى دعوته الجديدة:

«بسم الله الرحـمن الرحيم. من أبى بـكر خليفـة رسول الله - ﷺ - إلى من بلغـه كـتابى هذا من عـامة وخـاصة، أقـام على إسـلامه أم رجع عنه، سـلام على من اتبع الهدى، ولـم يرجع بعـد الهدى إلى الضلالـة، والعمى فإنى أحـمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، نقر بما جاء به ونكفر من أبى ونجاهده، أما بعد، فـإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسـراجاً منيراً، لينذر من كان حياً، ويحق القول على الكافـرين، فهـدى الله بالحق من أجاب إليه. وضـرب رسول الله - ﷺ - بإذنه من أدبر عنه حـتى صـار إلى الإسلام، ثم توفى الله رسـوله، وقـد نفذ لأمـر الله ونصح لأمته وقضى الذى عليه، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[2] وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[3] فمن كان إنما يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان إنما يعـبد الله وحده لا شريك له فـإن الله له بالمرصاد، حي قيـوم لا يموت، ولا تأخذه سنة، ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه يجزيه وإنى أوصيكم يتقوى الله وحظكم ونصـيبكم من الله، ومـا جاءكـم به نبيكم - ﷺ - وأن تهـتدوا بهـداه، وأن تعتصموا بدين الله فإن كل من لـم يهـده الله ضال، وكل من لـم يعافه مبتلى، وكل من

(1) الزمر: 30.

(2) الأنبياء 34

(3) آل عمران 144

لم يعنه الله مخذول فمن هداه الله كان مهتدياً ومن أضله كان ضالاً قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1] ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقر به، ولم يقبل منه فى الاخرة صرف، ولا عدل، وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام، وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره، وإجابة للشيطان قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2] وإنى بعثت إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحداً، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له، وأقر وكف وعمل صالحاً قبل ، منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك»[3].

ومن استقراء الأحداث التاريخية - فى شأن حروب الردة - وكتابى أبى بكر الصديق لأمرائه ولمانعى الزكاة يتضح لنا بجلاء أن هذه الحروب لم تكن ضد أناس رجعوا عن الإسلام إلى دين آخر ارتضوه لأنفسهم، حتى مسيلمة الكذاب، وسجاح لم تكن لديهم عقيدة راسخة لدعوة جديدة اعتنقوها، أو مبادئ آمنوا بصحتها، ولكن كان جل همهم السيطرة على العرب، وتقاسم الحكم، وكانت وسليتهما إلى ذلك ادعاء النبوة، على اعتقاد منهما أنهما قد يؤسسا دولة جديدة كما فعل - ﷺ - فمقارمة أبى بكر كانت مقاومة لمسلمين خرجوا على النظام القانونى - الذى جاء به القرآن- بامتناعهم عن سداد الضرائب المستحقة عليهم (الزكاة) التى تعتبر المصدر الرئيسى لموارد الدولة، ورغم كل ذلك لم يبدأ أبو بكر فى المقاومة إلا بعد هجومهم على عاصمة الدولة الإسلامية، على اعتقاد منهم أن الظروف مهيأة لغزوها والقضاء على النظام الحاكم، فكان لزاماً على أبى بكر أن يشن حربين، أولتهما دفاعية، لدرء

(1) الكهف: 17.

(2) فاطر: 6.

(3) تاريخ الطبرى.

الخطر عن العاصمة التى لو سقطت فى أيديهم لسقطت الدولة بأثرها، وثانيتهما وقائية لمنع أى جيش من جيوش المتحالفين من الوصول إلى المدينة، وذلك لأن جيوش التحالف ستكون من القوة مما قد يتعذر معه مقاومتها وتلك الحرب الوقائية لم تعتمد على القوة العسكرية بقدر ما كانت حرب نفسية، نلمسها فى عهد أبو بكر للأمراء وكتابه للقبائل المتمردة، فهو يذكرهم بعهدهم لرسول الله - ﷺ - ذلك العهد الذى قطعوه على أنفسهم، وخضعوا بموجبه للنظام القانونى للدولة الإسلامية، بكل ما يكفله لهم من حقوق، وما يحملهم به من التزامات، فرجع أكثرهم إلى جادة الصواب، وأبت الأقلية، فمن ثم كان إجبارهم - باعتبارهم مواطنين - على الخضوع لمنع الفتن، وحتى يستقيم أمر الدولة، فكان له ما أراد.

وعلى ذلك لم يخرج الخليفة الأول أبو بكر الصديق عن القواعد الدولية التى قررها النظام القرآنى، وأهم هذه القواعد: أنه لا إكراه فى الدين، والدين آنذاك هو النظام القانونى للدولة الإسلامية، ثم أنه جادلهم بالتى هى أحسن، وآخيراً كانت حربه دفاعية - على نحو ما أسلفنا - وكانت بالقدر الكافى لرد الاعتداء، ولو كان هؤلاء المرتدين - إن جاز التعبير - كانوا قد ارتدوا عن الدين الإسلامى فحسب، لم يكن ثمة مقاومة لأبى بكر لهم، ولكنهم خرجوا عن الدين - وهو النظام القانونى - وزعزعوا أركان الدولة، لذا تحقق فيهم الشرطان الموجبان للمقاومة باستعمال القوة، وهما - وكما ذكرنا فى موضع سابق - المروق من الدين ومفارقة الجماعة، لذا لم نقرأ فى كتب التاريخ أن أبا بكر قد أمر بقتل شخص فرد لمجرد تبديل دينه، لأنه على يقين تام أن تبديل الدين الإسلامى بصورة مجردة إنما هو عقابه آخروى محض.

الباب الثالث

معاهدات الرسول صلى عليه السلام وكتبه

كان محمد - ﷺ - وهو فى سبيله إلى نشر الدعوة الإسلامية لتعم الآفاق، ولتصل إلى أبعد مدى ممكن لها، كان فى كل هذا يهتدى بنور النظرية القرآنية - والتى سبق عرضها - وقد سبق ورأينا كيف طبق هذه النظرية تطبيقاً دقيقاً فيما يخص مسألة الحرب، فكانت حربه حرباً دفاعية بحتة، لم يهدف منها إلى نشر الدعوة، فالدعوة التى يعلو صوتها بين ناس محاطين بالسيوف، لابد وأن يخبو صوتها وتندثر، لأن من يعتنقها - والحالة هذه - لن يعتنقها إيماناً واعتقاداً وإنما كرها وإجباراً.

لكل ذلك قامت استراتيجية محمد - ﷺ - لنشر الدعوة - على اتباع المبادئ التى جاءت بها النظرية القرآنية، مبدأ حرية العقيدة، ومبدأ المجادلة بالتى هى أحسن، وذلك لتحقيق هدفين متوازيين أولهما: تجنب نشوب أى حرب، وثانيهما: تأليف القلوب وزرع بذرة الإسلام بداخلها لتضرب بجذورها فى أعماقها ليستقر بها الإسلام إيماناً واعتقاداً.

وقد اتبع محمد - ﷺ - فى هذا وسيلتين، تمثلت الأولى فى عقد المعاهدات، والثانية إرسال الكتب إلى الملوك تحمل فى متونها الدعوة إلى الإسلام، وسنلقى الضوء على كلتا الوسيلتين فى فصل مستقل.

الفصل الأول
معاهدات الرسول صلى الله عليه وسلم

لعبت المعاهدات التى أبرمها محمد - ﷺ - دوراً هاماً فى نشر الدعوة الإسلامية وإرساء دعائمها، ولم تكن معاهدات الرسول - ﷺ - على نمط واحد من حيث الشكل فمنها ما اتسم بالطابع الدولى - وهى الأكثر، ومنها أتخذ الشكل الداخلى كالوثيقة التى سطر فيها - ﷺ - أول دستور لدولة الإسلام، والتى حددت شكل الدولة ومعالمها.

أما من حيث الموضوع فأكثرها كان يهدف إلى تقوية الأواصر والعلاقات بين القبائل التى كانت تنضم حديثاً إلى الدولة الإسلامية فكانت هذه المعاهدات تؤكد لهذه القبائل أنها جزء من دولة الإسلام، لها ما لدولة الإسلام، وعليها ما عليها.

ومنها ما كان يهدف إلى حقن دماء المسلمين وتجنيبهم الحرب بعقد الهدنة مع القبائل المحاربة، ولعل أوضح مثال على هذا النوع هو صلح الحديبية.

وسنعرض للمعاهدات التى أبرمها محمد - ﷺ - كل فى بند على حدة.

أولاً: بيعة العقبة الأولى:

لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى مالم تكن نالته فى حياة عمه أبو طالب[1]، ومن ثم كان لابد أن يبحث رسول الله - ﷺ - عن مكان آمن يصلح أن يكون مركزاً للدعوة، يأمن فيه على نفسه الكريمة وعلى الجموع الذين يبث فيهم دعوته، فاتجه نظره إلى الطائف، فخرج إليهم وحده يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى.

(1) فى بعض صور هذا الإيذاء راجع ما ذكرناه فى الباب السابق

لم تستحب ثقيف لدعوة النبى - ﷺ - إياهم وأهانوه أشد إهانه، فقعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مرَّ جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضوخهما بالحجارة حتى أدموه، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء.

كان محمد - ﷺ - على يقين بأن هذه الدعوة لن ينتشر نورها فى الأفاق إلا فى مكان آمن، فيقرر العودة إلى مكة ويغيّر استراتيجية دعوته، فكان يعرض نفسه فى المواسم، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل، ويخبرهم أنه نبى مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبلغ عن الله ما بعثه به، فكان يقول لهم: **«لا أكره أحداً منكم على شئ، من رضى منكم بالذى أدعوه إليه فذلك، ومن كره لن أكرهه، إنما أريد أن تحرزونى فيما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى، وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء»**[1].

فلم يقبله أحد منهم، وما يأتى أحد من القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه.

فلما أراد الله عز وجل، إظهار دينه وإعزاز نبيه خرج رسول الله - ﷺ - فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم، فبينما هو عند العقبة إذ لقى رهطاً من الخزرج فقال لهم:

من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج؛ قال: **أمن موالى يهود؟**

قالوا: نعم. قال: **أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟** قالوا: بلى.

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

كان اليهود مع الخزرج ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكان الخزرج أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكان إذا كان بينهم شئ، قالوا

---

(1) صفوة السيرة النبوية لابن كثير - جـ 2 ص84

لهم: إن نبياً الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله - ﷺ - أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض تعلمن والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة، والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله - ﷺ - راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا[1].

كان عددهم ستة رجال، جميعهم من الخزرج هم:

من بنى النجار: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عُدس وعوف بن الحارث بن رفاعة.

ومن بنى سواد: رافع بن مالك بن عجلان، وقضبة بن عامر بن حديدة.

ومن بنى حرام: عقبة بن عامر بن نابى.

ومن بنى عبيد: جابر بن عبد الله بن وئاب.

حتى هذه اللحظة لم تُبرم المعاهدة الأولى بين رسول الله - ﷺ - والأنصار، فلما قدموا المدينة على قومهم ذكروا لهم رسول الله - ﷺ - ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق داراً من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله - ﷺ -

وفى العام التالى حضر من الأنصار إثنا عشر رجلاً - كان منهم من أسلم فى العام السابق - فلقوه بالعقبة، وهى العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله - ﷺ - على بيعة النساء، وذلك قبل أن يأذن الله بقتال من قاتل المسلمين.

يقول عبادة بن الصامت عن تفاصيل هذه المعاهدة: كنت فيمن حضر العقبة

---

(1) تاريخ الطبرى- أحداث ما قبل الهجرة جـ 1 ص 344

الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً فبايعنا رسول الله - ﷺ - على بيعة النساء قبل أن تفترض الحرب على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا، وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة. وإن غشيتم شيئاً من ذلك، فأخذتم بحده فى الدنيا، فهو كفارة له وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم[1].

وأسماؤهم؛ منهم من بنى النجار ثلاثة أنفس: أسعد بن زرارة وهو أبو أمامة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث بن رفاعة.

ومن بنى زريق بن عامر: رافع بن مالك بن العجلان، وذكوان بن عبد قيس بن خالدة.

ومنهم القوافل : عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم، وأبو عبد الرحمن بن يزيد بن ثعلبة حليف لهم من بلى.

ومن بنى سالم بن عوف: عباس بن عبادة بن نضلة.

ومن بنى حرام: عقبة بن عامر بن ناجى، وقطبة بن عامر بن حديدة.

ومن بنى عبد الأشهل بن جشم: أبو الهيثم بن التيهانى واسمه مالك، وعويم بن ساعدة.

يعود هذا الجمع إلى المدينة، ولم ينس رسول الله ﷺ أن يدعمهم بداعية يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، فبعث معهم مصعب بن عمير، وكان يسمى بالمدينة المقرئ، وكان منزله على أسعد بن زرارة.

أبرمت معاهدة العقبة الأولى، فكانت خطوة تمهيدية للمعاهدة الثانية، تلك المعاهدة التى قامت بموجبها دولة الإسلام.

---

(1) المصدر السابق.

ثانيا: بيعة العقبة الثانية:

كانت بيعة العقبة الثانية قبل عام واحد من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، حيث قامت دولة الإسلام.

يرجع مصعب بن عمير إلى مكة، ومعه جمع من الأنصار، بعضهم من المسلمين، والبعض الآخر مازالوا أهل شرك، ويروى لنا كعب بن مالك أحداث هذه المعاهدة التاريخية فيقول: ثم خرجنا إلى الحج ووعدانا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ فيها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من سادتنا أخذناه، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبًا[1].

وهنا نلحظ الذكاء السياسى الفطرى للأنصار، فهم حريصون على ضم ذوى الشرف منهم للخضوع للنظام القانونى لدولة الإسلام المستقبلة، حتى تكون دولتهم الجديدة بمنأى عن نشوب أى حروب أهلية، تعكر صفو الأمان الداخلى المفترض أن تعيش الدولة الوليدة بين جنباته.

يضيف كعب بن مالك: فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا حتى اجتمعنا فى الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً[2] ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء ابنة عمرو بن عدى بن ناجى إحدى نساء بنى سلمة، وهى أم منيع[3].

(1) سيرة ابن هشام جـ 2 ص67 وما بعدها.

(2) فى رواية سبعون رجلاً، ويرجع هذا إلى أن العرب كثيراً ما تحذف الكسر.

(3) المصدر السابق. وكذلك تاريخ الطبرى - أحداث ما قبل الهجرة جـ 1 ص346 ، وصفوة السيرة جـ 2 ص102

وهذه الرواية ترد بشدة على من يظهرون الإسلام بأنه مجافيًا لحقوق المرأة مهدداً لها، فها هى المرأة فى الإسلام تشارك فى الحياة السياسية - والدولة لم تزل فى مهدها - فى عصر كانت المرأة فى أحسن حالاتها تعتبر مخلوق من الدرجة الثانية.

مازلنا مع رواية كعب بن مالك حيث يقول: فلما اجتمعنا فى الشّعْب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزة من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه فمن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدَعُوه، فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده[1].

والرواية السابقة توحى بأن محمداً ﷺ إنما كان جل همه هو البحث عن الحماية والأمن، وهذا غير حقيقى، فمحمد إنما كان يبحث عن الأمن والحماية لكن للدعوة وليس لشخصه الكريم، فدعوة مُطاردة، يُعَذَّب من يعتنقها من الضرورى أن تلقى حتفها فى مهدها، لذا كان من الطبيعى أن يبحث محمد ﷺ عن تربة خصبة تضم فى طياتها هذه الدعوة الكريمة، ويحضرنى هنا رأى الدكتور الفاضل حسين مؤنس، ولوجاهة هذا الرأى - والذى اتفق معه فيه - أورده كاملاً كما كتبه، يقول سيادته:

ودع عنك ما تذكره الروايات من أن العباس بن عبد المطلب كان هو الذى خرج مع محمد ﷺ للقاء وفد أهل يثرب ممن اجتذبتهم الدعوة المحمدية عندما تحدث إليهم محمد ﷺ فى العقبة الأولى. فما كان العباس - وهو إذ ذاك مشرك - بالذى يتحدث باسم محمد ﷺ، ولا يستقيم بحال أن يقال إن العباس تحدث باسم بنى

---

(1) المصادر السابقة.

هاشم قوم محمد ﷺ، فـما كانت دعوة الإسلام عصبيـة، ثم إن محمداً كان أعلى مقـاماً ومكانة فى بنى هاشم من العـباس بن عـبد المطلب، فكيف يتـحدث الأدنى باسم الأعلى؟ وإذا كـان ولابد من رجل أو ناس من بنى هاشم فـأين حمـزة، وهو كان أكبر مقاماً من العبـاس، وعندما أسلم حمزة ارتجت قريش كلها لإسلامه. هذه إضافـات لحقت السـيرة أيام بنى العـباس، وهى كـانت بعض وسائلهم فى إضـفاء الشرعية على خلافتهم.

ويضيف سيادته: والأقـرب إلى العقل أن يتحدث محمد رسـول الله عن محمد رسول الله، وهذا هو الذى حدث، ويستوقف نـظرنا أن محمداً ﷺ، وهو الباحث عن قوم يقـيم فيهـم وبهم الدعوة، يتحـدث إلى أولئك الناس حديث السـيد الذى يعرف ما يريد، فهو لا يطلب الحماية أو المأوى إنما هم أهل يثرب أنفسهم هم الذين سمعوا إلى قول الرسول ﷺ وأطاعوه[1].

وتساند هذه الوجهة من النظر ما سبق وذكرناه عند الحديث عن غزوة بدر، حيث أن رسول الله ﷺ رفض ادعـاء العبـاس الإسلام، ولـم يرض منه إلا بالـفداء، وفى سياق هذه الأحداث لـم يذكـره له العباس أنه كان ممن شد أزره فى بيعـة العقبة لعل هذا يشفع له، ومن ثم يتضح لنا بجلاء أن الرواية السابقة - ونقصد الجزء المذكور به العباس - إنما هى رواية مدسوسة.

نعود إلى رواية كعب بن مالك حيث يقول: فقلنا له (يقـصد العباس) قد سمعنا ما قلت فـتكلم يا رسول الله، وخذ لنفـسك، وربك ما أحببت. فـتكلم رسول الله ﷺ فتـلا القرآن، ودعـا إلى الله، ورغب فى الإسلام، ثم قـال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

فأخـذ البراء بن مـعرور يده، ثم قـال: والذى بعثك بالحق لنمـعنك مما نمنع منه

(1) د. حسين مؤنس - دستور أمة الإسلام (دراسة فى أصـول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين - القاهرة - الهيئة العامة للكتاب 1998 ص37,36

أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن، والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر[1].

سبق ورأينا الحس السياسى المرهف للأنصار وهم يدعون أشرافهم لاعتناق الإسلام، رغبة منهم فى حفظ الأمن الداخلى، والآن نجدهم ينظرون إلى علاقاتهم الخارجية، تلك العلاقات التى ستتقطع أوصالها بمجرد خضوعهم للنظام القانونى الإسلامى، فنرى أبو الهيثم بن التَّيهان يقاطع بيعة البراء لرسول الله ﷺ ويقول: يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: **«بل الدم الدم، الهدم الهدم، أنتم منى، وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»**[2].

يؤكد لهم محمد ﷺ أنه لن ينقطع عنهم أبداً، وسيظل معهم إلى النهاية، ويؤكد رسول الله عهده للأنصار، مرة أخرى عندما افتتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو وقد أحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟

فلما فرغ من دعائه قال: **«ماذا قلتم؟»** قالوا: لا شئ يا رسول الله. فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال رسول الله ﷺ: **«معاذ الله! المحيا محياكم والممات مماتكم»**[3].

ببيعة الأنصار رسول الله ﷺ يكونوا قد ارتضوه لهم قائداً ورئيساً، ويضرب لنا محمد ﷺ أروع مثل فى الحكم الديمقراطى، فيُشكل أول برلمان فى دولة الإسلام،

---

(1) سيرة بن هشام جـ 2 ص71 ، وصفوة السيرة جـ 2 ص102 ، وتاريخ الطبرى جـ 1 ص346 .

(2) المصادر السابقة. ويذكر ابن اسحق أن المراد بالرجال - فى الرواية السابقة - اليهود، أى يهود المدينة، ويعلق الدكتور حسين مؤنس على هذا فيقول: وهو تكلف لا معنى له، لأن المراد إذا أخذنا الكلام مأخذه السهل المنطقى: أننا يارسول الله سندخل معك الآن فى اتفاق شامل يلغى اتفاقاتنا مع غيرنا من الناس، فهل نحن إذا فعلنا ذلك وانتصرت بنا هل تتركنا ونعود إلى قومك؟ انظر دستور أمة الإسلام - ص 40. مصدر سابق.

(3) سيرة ابن هشام - جـ 4 ص 42

برلمان منتخب لا بالتعيين، كان الانتخاب حراً، لم يتدخل فيه محمد ﷺ، ولم يعين أحد أعضاؤه، بل ترك لهم الأمر، فهم أحراراً فيمن يختارونه، ويرتضونه ممثلاً لهم.

كانت المبادرة من محمد ﷺ، فها هو يقول للأنصار: **«أخرجوا إليّ منكم إثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء»**.

كان البرلمان صغيراً - اثنى عشر عضواً - فالدولة لم تزل صغيرة بعد، كان الانتخاب سريعاً أعلن الأنصار بعدها أسماء نوابهم، فكانوا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، تشرفوا بأنهم كوّنوا أول برلمان فى أمة الإسلام، وهم:

من الخزرج: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبدالله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن خيس.

ومن الأوس: أسيد بن حضير بن سماك، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر[1].

لم تنته أحداث المعاهدة بعد، فها هو العباس بن عبادة بنَ نضْلة الأنصارى يريد أن يشدد على البيعة حتى يتأكد للقوم ماهم مقبلون عليه، فيقول: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم.

قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى فى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على تهلكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والأخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟

(1) قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولا يعدون رفاعة. انظر سيرة ابن هشام - جـ 2 ص71

قال: «الجنة».

قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه.

أبرمت المعاهدة، وبالهجرة تكتمل لدولة الإسلام عناصرها الثلاث: الإقليم، والشعب، والسيادة لتأخذ الدعوة المحمدية اتجاهاً جديداً يرمى إلى تأمين حدود الدولة والدفاع عن أمنها الخارجى - كما بيّنا فى الباب السابق - ويرمى كذلك إلى زيادة رقعة الدولة عن طريق البعثات الدبلوماسية والتى تمثلت فى إرسال الرسل بالكتب إلى الملوك والرؤساء، أو عقد المعاهدات بنفسه الشريفة، كما سبق وأوضحنا عند حديثنا عن غزوتى الأبواء والعشيرة.

ثالثاً: أول وثيقة دستورية فى دولة الإسلام:

يصل رسول الله ﷺ إلى أرض دولة الإسلام، تلك الدولة التى ارتضته لها قائداً ورئيساً، كانت المهام الملقاة على عاتقه مهامٍ جسام، فالدولة التى ستعلن عن نفسها لن تلقى قبولاً ولا اعترافاً من المجتمع الدولى، فعدم الاعتراف هذا إنما يدل على أن كل الكيانات المحيطة بها أعداء لها، مما سيعرضها لكثير من الهجمات العسكرية والمؤامرات السياسية على نحو ما أسلفنا فى الباب السابق.

كان محمد ﷺ على يقين بأن المواجهة العسكرية واقعة حتماً، ولم يرهبه هذا كثيراً، فركز كل اهتمامه على بناء الدولة من الداخل، فالدولة لو صلحت من الداخل ستكون قادرة على الصمود أمام أى عدوان خارجى، وذلك لوحدة الكلمة ووحدة الهدف، وعلى العكس من ذلك، لو شاب الدولة أى فساد داخلى - أياً كان نوعه - فسوف تنهار أمام أوهن عدوان من الخارج، وذلك لتفرق الكلمة وتباين الأهداف.

دولة جديدة، تتعدد بها الطوائف، لا شك أنها معادلة صعبة، فهناك أوس، وهناك خزرج، هناك مسلمين أنصار، وهناك مهاجرين، وهناك وثنيين، وهناك يهود، كيف تذاب كل هذه الطوائف لتخرج لنا فى النهاية دولة واحدة؟ يظهر هنا ذكاء محمد ﷺ السياسى والاجتماعى، فيرى أنه لابد له من اتخاذ خطوتين

أوليتين، ، وهو فى سبيل ارساء قواعد الدولة الجديدة، أولتهما: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وثانيتهما: وضع دستور لهذه الدولة يساوى بين مختلف الطوائف والأعراق، ويبيِّن حقوق وواجبات كل مواطن فى الدولة.

1 - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان لابد من هذا التآخى، فالمهاجرين دخلاء على المدينة، صحيح أنهم يجمعهم مع الأنصار دين واحد، وكذلك كانت هناك ثمة علاقات بين مكة والمدينة قبل الإسلام، لكن الأمر جد تغيّر، فالإقامة ستكون دائمة، والوطن سيكون واحداً، وقد تهيج العصبية فى أى وقت فيحدث ما لا يحمد عقباه، وذلك لأن الأنصار منهم من لم يسلم بعد، فماذا لو وقع خلاف بين أحد هؤلاء وبين المهاجرين؟[1]، ستنقسم نواة الدولة، وتتهدم قواعدها وهى مازالت فى طور البناء، لذا كان لابد من معاهدة المؤاخاة.

وبالفعل، آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال: «تآخوا فى الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال: «هذا أخى».

وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وعم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد، وجعفر بن أبى طالب (ذو الجناحين) ومعاذ بن جبل أخوين[2].

وكان أبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجى أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين[3]، وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين[4]، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين،

(1) وقع حدث قريب من هذا الفرض، وقد فصلناه عند الحديث عن حروب الردة.

(2) قال ابن هشام: كان جعفر يومئذ غائباً بأرض الحبشة، ويضيف ابن كثير إنه قدم أول سنة سبع، فكيف يؤاخى بينه وبين معاذ بن جبل أول مقدمه عليه السلام إلي المدينة؟ ويجيب ابن كثير على التساؤل فيقول: اللهم إلا أن يقال إنه أرصد لأخوته إذا قدم حين يَقْدم انظر - صفوة السيرة لابن كثير جـ 2ص159 .

(3) ويقال كان الزبير وعبد الله بن مسعود أخوين.

(4) وفى رواية أن رسول الله ﷺ أخى بين أبى عبيدة بن الجراح وبين أبى طلحة

وعثمـان بن عفان وأوس بن ثابت بن منذر البـخارى أخوين، وطلحة بـن عبد الله وكعب بن مالك أخوين، وسعيد بن زيد وأُبى بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين، وأبو حـذيفة بن عتبة وعـباد بن بشر أخوين، وعـمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان العبسى حليف عبد الأشهل أخوين[1]، وأبو ذر الغفارى (برير بن جنادة) والمنذر بن عمرو أخوين، وحاطب بن أبى بلتـعة وعويم بن ساعدة أخوين، وسلمان الفارسى وأبو الدرداء أخويـن، وبلال بن رباح (مؤذن الرسول) وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمى أخوين.

وبعد هذه المؤاخاة يقول رسول الله ﷺ للأنصار: **«إن أخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم»** فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ **«أو غير ذلك؟»** قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: **«هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»** قالوا: نعم[2].

بهذه المؤاخـاة أصبح المسلمون يشكلون نـسيجاً واحـداً بدولة المدينة، لكن هناك باقى الطوائف؛ بطون الأنصـار - من أسلم منهم ومن ظل على شركه - واليـهود، فكل هؤلاء مواطنين داخل الدولة الجديدة، ومن ثم كان وضع الدستور.

2 - نص الوثيقة الدستورية:

قال ابن اسـحق[3]: وكتب رسول الله ﷺ كتـاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحـيم، هذا كتاب مـحمد النبى ﷺ، بين المؤمـنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجـاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون

(1) ويقال: كان عمار وثابت بن قيس بن شماس أخوين

(2) صفوة السيرة النبوية لابن كثير - جـ 2 ص160

(3) سيرة ابن هشام - جـ 2ص120 وما بعدها

الناس، المهاجرون من قريش على رِبْعتهم[1] يتعاقلون بينهم[2]، وهم يَفْدون عانيهم[3] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى[4]، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحا[5] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل.

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسيعة[6]، ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله،

(1) ربعتهم. حالهم التي جاء الإسلام وهم عليها.

(2) المعاقل. الديات

(3) العانى: الأسير

(4) معاقلهم الأولى الديات المتفق عليها فى الجاهلية

(5) المفرح قال ابن هشام المفرح المثقل بالدين والكثير العيال. قال الشاعر

إذا أنت لم تبرح تؤدى أمانة ... وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

(6) الدسيعه العظيمه

إلا على سواء وعـدل بينهم، وإن كل غازية[1] غزت معنا يعقب بعـضها بعضا، وإن المؤمنين يبئ[2] بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً،ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط[3] مؤمناً قتلاً عن بينة، فإنه قود[4] به إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا القيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقـر بما فى هذه الصحـيفـة وآمن بالله واليوم الآخر، أن يـنصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصـره أو أواه، فإنه عليه لعنة الله وغضبه يوم الـقيامة، ولا يؤخذ منه صرف[5] ولا عدل[6]، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهـود ينفقون مع المؤمنـين ما داموا مـحاربين، وإن يهود بنى عـوف أمة مع المؤمنين، لليهـود دينهم، وللمسلمـين دينهم، مواليهم وأنفـسهـم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[7] إلا نفسه وأهل بيته.

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بـنى عوف، وإن ليهود بنى الحارث مثل ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عـوف، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهـود بنى عوف، وإن ليهود بنى ثعلبة مـثل ما ليهود بنى عـوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهـل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كـأنفسهم، وإن لبنى الشطيبة مثل مـا ليهود بنى عوف، وإن

(1) الغازية: الفرقة التى تخرج فى الغزوة.

(2) يبىء: يمنع.

(3) اعتبط: قتل بلا حق.

(4) قود: قصاص.

(5) صرف: توبة.

(6) عدل فداء

(7) قال ابن هشام: يوتغ: يهلك، أو قال: يفسد

البر دون الإثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره.

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وإن يهود الأوس، ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ».

3 - تحليل لبعض بنود الوثيقة:

يحتاج تحليل كافة البنود التى نصت عليها هذه الوثيقة القيمة إلى مؤلف مستقل، لذا سنركز هنا على أهم بنود الصحيفة ذات الصلة ببحثنا، وبداية نقول أن هذا الدستور لم يوضع بأسلوب المنحة، بمعنى أن هذا الدستور لم يمنحه محمد - ﷺ

- إلى الأمة، ولكن كان على يقين أن أمر أى أمــة لا ينصلح إلا إذا كان لها دستور يحدد حقوق وواجبــات كل فرد من أفراد الجماعة، فديباجــة الدستور تقول: «هذا كتاب من مــحمد - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمــين» وليس إلى المؤمنين والمسلمين، وهذا دليل على أن هذا الدستــور لم يوضع إلا بعد جلسات دارت فــيها الكثــير من المناقشات، خــاصة وأنه قد ضم عدة طوائف، بعــضها أسلم وبعضــها ظل على ما يعتقد[1].

لم توضع هذه الوثيقة لتــعالج وضعاً مؤقتــاً، بمعنى إننا لا نستطيع أن نقول، أن هذا الدستور إنما هو دستور مؤقت، فهذا الدستور كان من أهم سماته الاستمرارية، ولو أن المسلميــن ظلوا سائرين على هديه لتــبدل الحال غــير الحال، ولا نقــصد هنا استمرارية النصوص بحرفيتها، ولكن استمراريتها بالقواعد العامة التى أرستها، تلك القواعد التى تستطيع أن تستنبطها بمــجرد قراءة الوثيقة بشئ من التأنى، والدليل على هذه الاستــمرارية هذا النص: «ومن تبــعهم، فلحق بهم، وجــاهد معهم» فــهؤلاء ستســرى عليهم نفس أحكام الدستور، وسيــتحملون بنفس الواجبــات، وسيحظون بنفس الحــقــوق، لكن لماذا؟ يجــيب عليــنا باقى النص «إنهم أمــة واحــدة من دون الناس»فالجميع يتساوون، ولا تمييز بينهم إلا بالتقوى. وهذا إرساء لمبدأ المساواة.

قد يتساءل الــبعض عن نوع دولة الإسلام التى نشأت بالمدينة؟ فى حقــيقة الأمر، كنت من الرافضــين بشدة إقحــام المصطلحات الحديثــة فى تحليلى لأى من الأحداث التاريخــية الإسلاميــة، لكن بإمعان النظر وجــدت أن الإسلام قد عرف الكثــير من المصطلحات الحديثة، سياسية واقتصادية واجتماعية. الخ، وإن لم يكن الإسلام قد عرف هذه المصطلحات بأسمائها، فإنه بلا شك عرفها بمضمونها، فى وقت كان هذا المضمــون خافيــاً على كل أو معظم الكيــانات السياســية القائمــة آنذاك، ونعود إلى تساؤلــنا عن نوع دولة الإسلام بالمدينة، هل كــانت دولة بسيطــة أم دولة اتحاد؟ وإذا

---

(1) انظر د حسير مؤسر دستو امه الإسلام ص 120

كانت دولـة اتحاد، فمـا هو نوع هذا الاتحاد، هل هو اتحـاداً كونفـيدراليـاً أم اتحاداً فيدراليا[1]؟

تقول الوثيـقة: «المهاجرون من قـريش على ربعتهم.. وبنو عوف على ربعـتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى.. وبنو ساعدة، وبنو الحارث..الخ» ومعنى على ربعتهم، ينظمون أمورهم على الطريقـة التى اتفقوا عليها، ومـعنى هذا أن الدستور ترك لهم مساحة كبيرة بالنسبة لشئونهم الداخلية ينظمونها كما يشاؤن طالما أنها لا تتعارض مع ما جاء بـه الدين الجديد، أما بالنسبـة للشئون الخارجـية - وخاصة الحـرب - تقول الوثيقـة، وهى تخاطب هنا اليـهود باعتـبارهم أحد الكيـانات المكونة للدولة: «وإن اليهود ينفـقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» وفى مـوضع آخر: «وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيـفة» ومعنى هذا أن هذه الكيانات السياسـية تختفى فى معالجة الدولة لشئونها الخارجية، وهذا يجرنا إلى نتيجة مؤداها أن الدولة هنا إنما هى دولة مركـبة، وتحـديداً هى دولة فيدراليـة، تنازلت فيـها القبـائل عن سيـادتها الخارجـية، واحـتفظت بجزء من سـيادتهـا الداخلية، ونشأ عـن هذا الاتحاد الدولة الفيدرالية الجديدة، دولة الإسلام.

وتضرب الوثيقـة أكبر مثل فى التضامن الإجـتماعى، فالمجتمع كـالجسد الواحد

---

(1) الاتحاد الكونفـدرالى أو التعاهدى ينشأ بين دولتين أو أكـثر على الدخول فيـما بينها فى ارتباط يخـتلف قوة وضعفاً من حالة إلى أخرى، مع احتفاظ كل منها بشخصـيتها الدولية وبكامل سيادتها الداخلية والخارجية، فلا ينشأ عن هذا الاتحاد «دولة» فـوق الدول الأعضاء، وإنما تبقى شخصيـة كل دولة داخلة فيه، ومن أمثله هذا النوع جامعة الدول العربية.

أما الانحاد الفيدرالى أو المركـزى، فهو أقوى الاتحادات، ويعنى أن دولتين أو أكثر قد اتحـدتا مع بعضها لتكوين دولة جديدة واحدة تسـمى بالدولة الاتحادية أو الفيدرالية، بـحيث تتنازل الدول المتعاقدة عن: كل سـيادتها الخارجية، وجزء مهم من سيارتها الداخلية

كل هذا عكس الدولة البـسيطة، فـسيادتها كلهـا موحدة فى يد هـيئة واحـدة هى الدولة، ولها دستـور واحد، ويخضع الأفراد فيها السلطة واحدة، كما يعتبر كل أقاليمها إقليما واحداً

انظر د محمد مرعى حيرى الوجير فى النظم السياسيه القاهرة 1980 · ص 70 وما بعدها

يجب أن يظل كل جزء من أجزائه سليماً معافاً، تقول الوثيقة: «وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل».

والمفرح هو المثقل بالدين والكثير العيال، وواجب الجماعة حياله هو أن تعطيه فى حدود المتعارف عليه لكى يفتدى نفسه إن كان أسيراً بين قومه الأولين، أو يؤدى دينه إن كانت عليه دية (عقل)[1].

وتؤكد الوثيقة الدستورية على حرية العقيدة، ذلك المبدأ القرآنى الذى يستبين لنا فى قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2] وفى ذلك تقول الوثيقة: «لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم»، فلا إجبار لأحد على اعتناق الإسلام، فمجتمع المدينة كان به المسلم والمسيحى واليهودى، بل والوثنى، كل هؤلاء كانوا متساوون فى حقوقهم السياسية، لم ينقص منها شئ، وفى ذلك تقول الوثيقة - مخاطبة اليهود بالذات حيث كانوا يمثلون نسبة كبيرة من عدد السكان: «وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم».

وبعد، انظر إلى مدى التحضر الذى جاء به هذا الدين، نعم، إن هذا الدين ألقى بضيائه على كل المجتمعات البشرية، فمن شاء سار خلف نوره واهتدى، ومن شاء عاش فى الظلمات التى يحسبها نورا، وارتضى حياة (الوطاويط) وهذا الخيار الأخير هو ما ارتضته اليهود، فبعد الموادعة، وبعد المساواة بينهم وبين المسلمين فى الحقوق السياسية، واعتبار الوطن وطناً واحد يسع الجميع، رجعوا فنقضوا العهود والمواثيق، فتارة حاولوا قتل محمد - ﷺ - وتارة يحشدون الحشود لمحاربته على نحو ما أسلفنا، ويبدو أن هذا سيكون حالهم إلى أن تقوم الساعة، فلا تنتظروا منهم خيراً، فلو كان بهم خيراً لأبقى عليهم الرسول - ﷺ - بالجزيرة العربية، فتأمل.

---

(1) د. حسين مؤنس - دستور أمة الإسلام - ص 133

(2) البقرة 256

رابعاً: صلح الحديبية وبيعة الرضوان[1]:

استتب الأمر لرسول الله - ﷺ - بالمدينة، فقد وفقه الله تعالى، ومكنه من أعدائه، فكان ينتقل من نصر إلى نصر، والأهم من ذلك أنه أمن - إلى حد ما - شر اليهود الذين كانوا يثيرون الفتن، ويؤلبون عليه الأعداء من حين إلى آخر، كل هذا كان حافزاً لمحمد - ﷺ - لزيارة بيت الله الحرام معتمراً فى جمع من أصحابه، فاتخذ القرار فى ذى القعدة سنه ست.

خرج رسول الله - ﷺ - للعمرة ومعه ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم من العرب، ويرى ابن اسحق أن من خرج مع رسول الله - ﷺ - سبعمائة رجل، وذلك على أساس أنه ساق معه الهدى سبعين بدنة، وكل بدنة عن عشرة نفر، فيكون المجموع سبعمائة.

وفى الحقيقة لا تناقض بين الروايتين، وذلك أنه لا يلزم أن يُهدى كل من خرج مع رسول الله - ﷺ - ولا أن يُحرم كلهم أيضا، فقد ثبت أن رسول الله - ﷺ - بعث طائفة منهم فيهم أبو قتادة ولم يحرم أبو قتادة حتى قتل ذلك الحمار الوحشى فأكل منه هو وأصحابه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لما خرج النبى - ﷺ - بالهدى، وانتهى إلى ذى الحليفة، قال له عمر: يارسول الله ، تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع؟! فبعث النبى - ﷺ - إلى المدينة فلم يدع فيها سلاحاً إلا حمله. وعلى هذا يكون من أحرم بالعمرة سبعمائة ، والسبعمائة الآخرين خرجوا بالسلاح تحسباً لوقوع أى هجوم مفاجئ من قريش.

خرج رسول الله - ﷺ - حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فأخبره أن قريش قد استعدت لحربه، وأنهم قد عاهدوا الله ألا تدخل مكة، فقال رسول الله: «**ياويح قريش!! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين**

---

(1) فى خبر هذا الصلح انظر - سيرة بن هشام - جـ 3 ص214 وما بعدها، صفوة السيرة النبوية لابن كثير جـ 4 ص126 وما بعدها، السيرة النبوية لابن حبان ص 158 وما بعدها وتاريخ الطبرى أحداث السنة السادسة جـ 2 ص427 وما بعدها

سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة».

الرسول - ﷺ - لا يريد أن يدخل حرباً جديدة مع قريش، وهذا قرار قد اتخذه ورسخ فى قرارة نفسه، فها هو يسلك طريقاً أخرى غير طريق قريش منعاً لأية مصادمات، ويقول: **«لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»** سلك رسول الله - ﷺ - طريقاً وعراً، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى، فأمر رسول الله - ﷺ - الناس، فقال: **«اسلكوا ذات اليمين»** فساروا فى طريق تخرجهم على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، فلما رأت خيل قريش أن المسلمين قد خالفوا عن طريقهم رجعوا راكضين إلى قريش.

1 - بُديل بن ورقاء وخزاعة يلعبون دور الوسيط:

لما أطمأن رسول - ﷺ - أتاه بديل بن ورقاء (الخزاعى) فى رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله - ﷺ - مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة. سألته خزاعة ما الذى جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يامعشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، ترفض قريش الوساطة وتأخذهم الحمية، ويقولون: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب.

2 - قريش تبعث مكرز بن حفص:

يبدو أن الأمر كان يقلق قريش حيث إنه كان يساورهم شك فى أن محمد - ﷺ - قد جاء معتمراً فقط ولم يجئ لحرب، فأخذوا يرسلون الرسل الواحد تلو الآخر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هم يريدون تحقيق نصراً سياسياً على محمد - ﷺ - بأن يمنعوه من زيارة البيت وفى هذا إظهاراً لقوتهم، فبدأوا بمكرز بن حفص

بن الأخيف أخا بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله - ﷺ - مقبلاً قال: «هذا رجلٌ غادر» فلما انتهى إلى رسول الله - ﷺ - وكلمه قال له رسول الله - ﷺ - نحواً مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله - ﷺ -.

3 - قريش تبعث الحليس بن علقمة:

بعثت قريش الحليس بن علقمة إلى رسول الله - ﷺ - وكان يومئذ سيد الأحابيش[1] وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله - ﷺ - قال: **«إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه»** فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده وقد أكل أو باره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله - ﷺ - إعظاماً لما رأى فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس فإنما أنت إعرابى لا علم لك. فغضب الحليس عند ذلك، وقال: يامعشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له، والذى نفس الحليس بيده لتخلُّن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنَّ بالأحابيش نَفْرة رجل واحد، فقالوا له: كف ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

4 - عروة يحاول تهدئة الموقف:

أراد عروة بن مسعود الثقفى أن يهدئ الموقف، فقريش تنحَّت عنها الأحابيش وهم قوة لا يستهان بها، ومع ذلك لم تزل قريش على عنادها، فقال لهم عروة: يامعشر قريش، إنى قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد «وكان عروة لسُبَيْعَة بنت عبد شمس» وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى أتى رسول الله - ﷺ - فجلس بين يديه ثم قال: يامحمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى قومك لتحاربهم، إنها قريش قد خرجت معها العُوذُ المطافيل، قد لبسوا جلد

---

(1) الأحابيش: من حالفوا قريش وليسوا منها، وحُبشى جبل بأسفل مكة يقال: به سمى أحابيش قريش.

النمـور، يعـاهدون الله لا تدخلهـا عليـهم عنوة أبدا، وأيم الله لكأنى بهـؤلاء قـد انكشفوا عنـك غداً(يعنى أن أصحاب محـمد - ﷺ - سيفـرون إذا قامت حرب) وكان أبو بكر الصديق خلف رسول الله - ﷺ - قاعد فـقال بعصبية: امْصُص بظر اللات أنحن ننكشف عنه؟ فقال عروة: من هذا يامحمد؟ قال:«هذا ابن أبى قحافة» قال: أمـا والله لولا يُدُ كانـت لك عندى لكافأتك بهـا، ولكن هذه بها، ثم جـعل يتناول لحيـة رسول الله - ﷺ - وهو يكلمه، والمغـيرة بن شعـبة واقف على رأس رسول الله - ﷺ - فى الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله - ﷺ - ويقول: اكـفف يدك عن وجه رسول الله - ﷺ - قـبل أن لا تصل إليك، فيـقول عروة: ويحك! ما أفظك وأغلظك فتبسم رسول الله - ﷺ - ، فقال له عروة: من هذا يامحمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»، قال:أى غُدَر، . وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس(1).

فأخبـره رسول الله - ﷺ - أنه لم يأت يريد حرباً، فقـام من عند رسول الله - ﷺ - وقد رأى ما يصنع به أصـحابه، فرجع إلى قريش فقـال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت علـى كسرى وقيصـر والنجاشى، والله ، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه كـما يعظم أصحاب محمد محـمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدَلَّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا بأمره، وإذا توضأ كـادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلمـوا عنده خفضوا أصـواتهم، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، فانظروا رأيكم.

٥ - قريش تستمر فى عنادها:

ما زال رسول الله - ﷺ - يحـدوه الأمل فى دخول مكة لقضاء العمرة، فـيقرر أن يرسل أحد أصـحابه، فيختـار خراش بن أمية الخـزاعى فبعثـه إلى قريش بمكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب ليـبلغ أشرافهم عنه إنه لم يُات لقتال إنما جاء معتمراً، فعقروا جـمل رسول الله - ﷺ - وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله - ﷺ - .

---

(1) أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامـه قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغـيرة، فودى عروة بن مسعود المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر

لم تكتف قريش بذلك، فبعثوا أربعين رجلاً منهم، أو خمسين رجلا، وأمروهم أن يطيفـوا بعسكر رسول الله - ﷺ - لـيصيبـوا لهم من أصحـابه أحدا، إلا أنهم فشلوا وتم أسـرهم، فعفا عنهـم رسول الله - ﷺ -، وخلّى سبيلهم، وقـد كانوا رموا فى عسكر رسول الله - ﷺ - بالحجارة والنبل. فـإلى هذا الحد كان محمد - ﷺ - يجعل الخيـار العسكرى فى مؤخرة الحلول، ويحاول دائمـاً إطفاء نار الحرب حتى لو أشعلها أعداؤه.

6 - الرسول يرسل عثمان إلى مكة:

فى محاولة جديدة من جانبه يفكر محمـد - ﷺ - فى إرسال مبعوثاً دبلوماسياً ذا شأن ليقوم بدور الوسيط، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جـاء له، فقال: يارسول الله، إنى أخاف قريـشاً على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كـعب أحدٌ يمنعنى، وقد عـرفت قريش عدواتى وغلظتى عليـها، ولكنى أدلك على رجل أعز بهـا منى عثمـان بن عفان، فدعـا رسول الله - ﷺ - عثمان بن عفـان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قـريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

خرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحـمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلّغ رسالـة رسول الله - ﷺ - فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله - ﷺ - ما أرسله به، فقـالوا لعثمـان حين فرغ مـن رسالة رسول الله - ﷺ - إليـهم: إن شئت أن تطوف بالبيـت فطف، فقال: مـا كنت لأفعل حتـى يطوف به رسول الله - ﷺ - واحتبسـته قريش عندها، فبلغ رسول الله - ﷺ - والمسلمين، أن عثـمان بن عفان قد قُتل.

7 - بيعة الرضوان:

ذيوع الخبر بأن عثـمان قد قُتل قلب كل الأمور رأس على عقب، فقـريش بقتلها رسول رسول الله - ﷺ - أو على الأقل احـتجازه يعد انتهاك من جانـبها للأعراف الدولية التى استقرت فى ضمير الجـماعة الدولية آنذاك، والتى تقضى بعدم التعرض

للرسل بأى شكل من الأشكال، وفى نفس الوقت جاء موقف قريش مناقضاً لموقف رسول الله - ﷺ - الذى سبق وأن أعاد اليهم رجالهم الذين هاجموا معسكر المسلمين، كل هذا جعل محمد - ﷺ - يُغيّر استراتيجيته تجاه قريش، فقريش بفعلتها هذه تكون رافضة لمبدأ السلام، ولا تريد إلا الحرب، فيصدر محمد - ﷺ - أوامره بشن حرب فورية وبلا تراخ، فيقول: **«لا نبرح حتى نناجز القوم»** وينادى منادى النبى - ﷺ - أيها الناس، البيعة البيعة، فيسيروا إلى رسول الله - ﷺ - وهو تحت شجرة سُمَرة، ويبايعوه، وذلك قول الله تعالى: **﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾**[1].

ويروى جابر بن عبد الله شطراً من أحداث هذه البيعة فيقول: بايعنا رسول الله - ﷺ - وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهى سُمَرة فبايعناه غير الجد بن قيس الأنصارى اختبأ تحت بطن بعيره وبايعناه - ﷺ - على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت.

ويروى سلمة بن الأكوع شطراً آخر من الأحداث فيقول: دعا النبى - ﷺ - الناس للبيعة فى أصل الشجرة فبايعته فى أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان فى وسط الناس قال: **«بايع ياسلمة»**، قلت: قد بايعتك يارسول الله، فى أول الناس، قال: «وأيضاً»، ورآنى النبى - ﷺ - أعزل فأعطانى حجفة أو درقة، ثم إن رسول الله بايع الناس حتى إذا كان فى آخرهم، قال: **«ألا تبايع ياسلمة؟»** قلت: يارسول الله قد بايعتك فى أول الناس وأوسطهم، قال: «وأيضاً»؛ فبايعته الثالثة فقال رسول الله - ﷺ - : **«فأين الدرقة، والجحفة التى أعطيتك»** قلت: لقينى عمى عامر أعزل فأعطيته إياها فضحك رسول الله - ﷺ - وقال: **«إنك كالذى قال الأول اللهم ابغنى حبيباً هو أحب إلى من نفسى»**.

كان كثيراً من المسلمين عُزّل بلا سلاح، ومع ذلك بايعوا رسول الله - ﷺ - على عدم الفرار، وعلى الثبات فى المعركة، فإما النصر وإما الشهادة، ومن المؤكد أن خبر هذه البيعة وتأهب محمد - ﷺ - للحرب قد وصل إلى قريش، فكان أول ما

(1) الفتح: 18

فعلته هو إعلانهم أن عثمـان بن عفان حى لم يمت، ورأت أنه من الأفضل اللجوء إلى الطرق السلمية لحل هذا النزاع.

8 - كتابة المعاهدة:

كان هدف قريش من إبرام مـعاهدة الصلح مع محمد - ﷺ - هدفـاً مزدوجاً، فمن ناحية تـتجنب الدخول فى حرب مع المسلمين، فهى حـرب لا تستطيع قريش التنبؤ بعواقبها ومن ناحية أخرى، كان جل هم قريش منع محمد - ﷺ - وأصحابه من دخول مكة فى هذه السنة، حـيث أن السماح له بالدخول سيكون إقـراراً ضمنياً من جانب قـريش بقوة مـحمـد - ﷺ - العسكرية، تلك القـوة التى ستـسمح له بدخول مكة فى أى وقت يشاء.

تختـار قريش سُهَيْل بن عـمرو ليفـاوض محـمد - ﷺ - ويبرم مـعه مـعاهدة الصلح، وتضع له الخطوط العريضة التى يجب عليه الاتفاق عليها، فنقول له: أئت محـمداً فصالحـه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامـه هذا، فوالله لا تُحَدِّث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

يذهب سهيل إلى رسول الله - ﷺ - فلما راه مقبلاً قال: **«قد أراد القوم الصلح حين بعـثوا هذا الرجل»** فلما انتهى سهـيل بن عمرو إلى رسول الله - ﷺ - تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح.

ثم دعـا رسول الله - ﷺ - عليـاً بن أبى طالب، فـقال: «اكـتب بسم الله الرحـمن الرحيم»، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله - ﷺ - :«اكتب باسـمك اللهم» فكتـبها، ثم قـال:«اكتب هذا مـا صالح عليـه محـمد رسول الله سـهيل بن عـمرو» فقـال سهيل: لو شـهدت أنك رسـول الله لـم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله - ﷺ - :«اكتب هذا ما صالح عليه محـمد بن عبـد الله سهيـل بن عمرو، اصطلحـا على وضع الحرب عن الناس عـشر سنين، يأمن فـيهن الناس، ويكف بعـضهم عن بعض، علـى أنه من أتى محـمداً من قريش بغيـر إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قـريشاً ممن مع محمـد لم يرده عليه، وأن بيننا عيبـة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال وأنه من أحب أن يدخل فى عقـد محمد

وعهـده دخل فيـه، ومن أحب أن يدخل فى عقـد قريش وعـهدهم دخل فـيه، وأنك ترجع عنا عـامك هذا فـلا تدخل عـلينا مكة، وأنه إذا كـان عـام قـابل خـرجنا عنك فدخلتـها بأصحـابك فأقمت بهـا ثلاثا معك سلاح الراكب السـيوف فى القُرب، لا تدخلها بغيرها».

فلمـا فـرغ من الكتـاب أشـهـد على الصلح رجـال من المسلمـين ورجـال من المشركين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبى وقـاص، ومحمد بن مسلمة، ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك، وعلى بن أبى طالب، وكان هو كاتب الصحيفة.

وفور إبرام هذه المعاهدة تواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله - ﷺ - وعهـده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عـقد قريش وعهـدهم، ومعنى هذا أن هذه المعاهدة أصبحت ملزمة لخزاعة ولبنى بكـر كما هى ملزمة للمسلمين ولقريش، ولا يحق لأى طرف أن ينقضها.

9 - عدم ارتياح أصحاب رسول الله - ﷺ - لنصوص المعاهدة:

كان أصحاب رسول الله - ﷺ - قـد خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح ودخول مكة لرؤية رآها رسـول الله - ﷺ - فلما رأوا مـا رأوا من الصلح والرجـوع، وما تحمَّل عليـه رسول الله - ﷺ- فى نفسه، دخل الناس شئ من الشك، وكـثر بينهم الجدل، فهم بين مؤيد ومعارض، فـمن ارتضى منهم إبرام المعاهدة كان ذلك امتثالاً منه لأمر رسول الله - ﷺ - ومن رفض كـان يرى أن المعاهدة فيها جور كـبير على حقوق المسلمين، فأولاً منعتهم قريش من دخول مكة لقضاء العمرة فى عامهم هذا، وثانياً أتعبهم النص الخاص بحق اللجؤ السيـاسى، والذى جاء فيه: «من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده إليه».

فى الحقـيقة لم يلتفت مـحمد - ﷺ - لهذه الأوجـه من النقد؛ فهو مـفاوض جيد، ويعلم ما يريد، بل وأعطانا - ﷺ - أكبر درس فى فن التفاوض، فعلمنا أن نخرج بأقل الخسـائر وأعظم المكاسب، والخسارة الوحيـدة لمحمد - ﷺ - فى هذه المعاهدة تمثلت فى رجوعه وعدم السمـاح له بدخول مكة، وهذا قد يحمل فى طياته

عدم الاعـتـراف بقـوة المسلمين العسكـرية، لكن من ناحية أخـرى كان مـجرد إبرام المعاهدة مع محمد - ﷺ - اعترافـاً ضمنياً من قريش بدولة الإسلام الوليدة، وهذا أول مكسب لمحـمد - ﷺ - والمكسب الثـانى لمحـمد - ﷺ - ولقـريش تمثل فى وضع حد للحـرب، وفى حقن دماء المسلمين إذ كـانت الحرب المزمع خوضهـا غير محسوبة العـواقب، فالمسلمين إنما أتوا لقضاء العمـرة ولم يأتوا لخوض الحرب، أما النص الخاص بحق اللجـوء السياسى - والسـابق بيانه - فإنه لن يضـر المسلمين فى شئ، بل سيعود علـيهم بالنفع، فمن سيلجأ من المسلمين إلى قـريش فهو منافق لا نفع منه، وبفراره إلى قريش يكون قد فعل خيـرا، أما من سيردهم محمد - ﷺ - إلى قريش، فهؤلاء سـيعملون على نشر الإسلام داخل مكة من ناحـية، ومن ناحية أخرى سيرهقون قـريشاً كثيراً بمقاومتهم لهم، وهذا ما حـدث بالفعل، فعندما ذهب أبو بصير عُتبة بن أُسيد إلى رسـول الله - ﷺ - مسلماً رده إلى قريش إعمالاً لنص المعاهدة، فما كان من هذا إلا النزول بالعيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قريش الذى كانوا يأخذون إلى الشام، واجتمع مـعه سبعون رجلاً ممن يسرى نص المعاهدة فى حقهم، فذاقت قريش منـهم الويل، فأرسلت قريش إلى محمد - ﷺ - يناشدونه بالله وبالرحم لما أرسل إليهم من يأتيه، فـمن أتاه فهو آمن، فآواهم رسول الله - ﷺ - فقدموا عليه المدينة. فكان نصراً سياسياً جديداً لمحمد - ﷺ - وهنا ظهر لمن عارضه أنه كان حاد البصر، بعيد النظر يعلم جيداً ما يريد.

كان إبرام مـحمـد - ﷺ - لهذه المعاهدة تطبـيقـاً واضحاً لما جـاءت به النظرية القرآنيـة فى الحرب، فالحـرب فى الإسلام - كمـا أوضحنا سلفـاً - إنما هى حرب دفاعـية، يُلجأ إليـها إضطراراً، وطالما طلب العدو الصلح وجنح للـسلم فهنا يجب الرجـوع إلى الأصل وترك الاستـثناء بوضع أوزار الحرب واللجـوء إلى التـفاوض، يقـول الله تعـالى: **﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**(1).

---

(1) الأنفال61

10 - الحديبية وكامب ديفيد:

رأينا كيف عـمد محمـد - ﷺ - إلى التفاوض مع مشـركى مكة للوصول إلى أهداف توخاها، وكيف رأى ببعد نظره أن هذه المعاهدة فيها الخير الكثير للمسلمين، وأن أصحابه لم يشعروا بالارتياح تجاه هذه المعاهدة لأسباب ذكرناها، إلا أنهم عرفوا - فيمـا بعد - أنه - ﷺ - لم يكن يبـغ إلا الخيـر لهم، وأن ما فـعله كان عـين الصواب.

كما رأينا كـيف أن محمداً - ﷺ - قد قدَّم العـديد من التنازلات للوصول إلى هدفه الرئيسى؛ وهو الحصـول على ما يريد بالسلم لا بالحرب، ومن التنازلات التى قدمها - ﷺ - عدم اعتراضه على موقف سهيل بن عمرو فى طريقة صياغة ديباجة المعاهدة، فكتب باسمك اللهم بدلاً من بسم الله الرحمن الرحيم، وكتب محمد بن عبد الله بدلاً من محمد رسول الله - ﷺ - ثم أخَّر دخـوله مكة عاماً كاملاً، وبعد ذلك قَبِلَ أن يرد من أتى إليه من مكة مسلماً وألا ترد قريش من أتى من عنده، كل هذه قدمـه رسول الله - ﷺ - حقناً لدماء المسلمـين طالما أنه سيحـصل فى النهاية على ما يريد، ولا ضرر إذا تأخر دخوله مكة لقضاء العمرة عاماً أو أكثر.

كل ما سـبق كان قريباً للواقع الأليـم الذى عاشه المسلمون والعـرب إبان دخول الرئيس الراحل محـمد أنور اسلادات فى مـفاوضات مع الجـانب الإسرائيلى، لحل مشكلة سيناء بـصفة خاصة، ووضع حد لـلصراع العربى الإسرائيلى بصفـة عامة، تلك المفاوضات التى انتهت بإبرام معاهدة السلام بكامب ديفيد عام 1979.

انهـالت الاتهامـات على السـادات وعابـوا عليه زيارته لإسـرائيل وخطابه أمـام الكنيست الإسرائيلى، وعندمـا دعا السادات باقى الأطراف العربية للدخـول معه فى التفاوض رفضوا، ووصموه بالخيانة والعمالة، إلا أنه استمر فى التفاوض وانتهى إلى توقيع معـاهدة كامب ديفيد، وأعاد أرض سـيناء على مراحل، واشمئز كـثيرون من المعاهدة فلماذا نقدم التنازلات؟ لماذا لا تعود سيناء فوراً وبلا تأخير؟ هذه التساؤلات كانت محل انتقـادات، فالسادات لم يفعل هذا إلا لحقن دماء شـباب المصريين، بل والعرب، فالقدرة العسكرية - بعد حرب التـحرير - فقدت الكثير من عناصر القوة

والمنطقة عـانت كثيـراً من ويلات الحرب، فلمـاذا لا نعيش فى سلام، خـاصة وأن وقت التفاوض كـان مناسباً ليحصل كل طرف عربى فى النزاع على مـا يريد بعد ما ذاقت اسرائيل مرارة الهزيمـة، لكن هيهات، رفضوا التفـاوض، ورفضوا المعاهدة، وجمَّدوا عضـوية مصر بجامعة الدول العـربية، ونقلوا مقر الجامـعة من القاهرة إلى تونس، وكأن مصر ومـعها السادات - قد نطقت بكلمة الكفـر فى دخولها فى هذا التفـاوض الذى حصلت بمقتضـاه على ما كانت تريده لو كانت قـد أطالت الحرب، ولكنهـا جنحت إلى السـلام هذا السـلام الذى حقن دمـاء آلاف المسلمـين، ولكن كثيرون لم يفهموا ما يحـدث، ولم يتدبروا آيات القران، ولم يتفهموا ما بين سطور السيرة النبـوية العطرة، فانتهى فكرهم الضحل إلى ضرورة اغتـيال الرئيس السادات وقد فعلوا.

كان على هؤلاء أن يقرأوا قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(1) ولو كانوا ردوا الأمر إلى الله لعرفوا أن الحرب فى الإسلام دفاعية، وأن الله أمرنا بالجنوح إلى السلم: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(2).

وإذا كانوا قـد ردوا الأمر إلى الرسول لكانوا عـرفوا أن محـمداً - ﷺ - ذهب بنفـسه إلى المشـركـين لإبرام المعاهـدات معطهم، مـثلمـا حدث فى غـزوتى ودان والعشـيرة على نحو مـا أسلفنا، ولتفَهمـوا أن محمـداً - ﷺ - قدم التنازلات فى صلح الحـديبيـة من أجل حـقن دماء المسلمـين، وأنه التـزم بنصوص المعـاهدة ولم ينقضها حتى نقضتها قـريش كما ذكرنا فى سياق الحديث عن فتح مكة. لكن هؤلاء لم يقرأوا، وإن كانوا قد قـرأوا فإنهم لم يتفهموا، حـتى مرت بهم السنين، وأخذوا هم الذين يلهثون خلف إسرائيل - بعدما جف عرق الهزيمة وزالت آثارها - يلهثون للتفـاوض، يلهثون كـى تحفظ لهم إسرائيل العـهود، ولكن أين كنتم وقت أن قـيد الذئب؟!

---

(1) النساء 59

(2) الأنفال 61

نقول لهـؤلاء ولمثلهم اقرأوا القـرآن والسيرة بتـدبر واستخـرجوا منهمـا كنوزهما الدفينة التى لا تفنى ولا تبلى، اقرأوا وتمعنوا قبل أن تحكمـوا، حتى لا يفوتكم خير كما فاتكم.

خامسا: الرسول -صلى اله عليه وسلم- يعقد صفقة سلاح مع احد المشركين:

ذكرنا فى موضع سـابق كيف اجتمعت هوازن وثقـيف ونزلوا بحنين لشن حرب على المسلمين، وكانت هذا الوقعة سنة ثمان(1).

قرر محـمد - ﷺ - أن يلقى القوم ويحاربهم، وأخذ ينظم صـفوفه ولكنه لحظ أن هناك نقصـاً فى السلاح، وأنه من الخطورة أن يدخل فى حـرب ضد هذا الحلف وهناك نقصاً فى عـتاده، فذُكر له أن عند صـفوان بن أمية أدراعاً وسـلاحاً فأرسل إليه، فقال. ياأبا أمية (وهو يومئذ مشرك): **أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً،** فقال له صفوان: أغصباً يامحمد؟ قال: **بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك**. قال: ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح، وقيل أن رسول الله - ﷺ - سأله أن يكفيه حملها(2).

أول ما يجذب انتباهنا فى هذا الحدث أن صفوان بن أمية كان مشركاً، ومع ذلك لم يتحرج محمد - ﷺ - أن يعقد معه صـفقة السلاح طالما أن فيها خير المسلمين، وفى هذا رد على من يحرم التعامل مع غير المسلمين - باختلاف معتقداتهم - تحت أى ظرف من الظروف، نقول لمثل هؤلاء لوطبقنا هذا الاجتهاد ما استطعنا عبور قناة السويس واسـتعادة سـيناء ، بعدما حـصلنا على السلاح الروسى، ونكرر مـا سبق وذكرناه إقرأوا السيرة العطرة على مهل، وستجدوا بين سطورها الكثير.

سادسا: عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لصاحب أيلة:

ذكـرنا أن رسول الله - ﷺ - قـد خرج إلى تبـوك سنة تسع، وذكـرنا أن هذه الغزوة كانت جولة دبلوماسية لمحمـد - ﷺ - وإنها كانت تحتاج إلى التأمين الكافى

(1) انظر غزوة حنين

(2) انظر سيرة ابن هشام جـ 4 ص239 ، وتاريخ الطبرى أحداث السنة الثامنة جـ 2 ص 463

لدرء أى هجوم محتمل على المسلمين[1] ومن المعاهدات التى أبرمهـا محمد - ﷺ - خلال هذه الجولة معاهدته مع صـاحب أيلة، يقول ابن اسحق: ولما انتهى رسول الله - ﷺ - إلى تبوك، أتاه يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله - ﷺ - وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فـأعطوه الجزية، فكتب لهم رسول الله - ﷺ - كتاباً.

فكتب ليحنة بن رؤبة:

«بسم الله الرحـمن الرحيم: هـذه أمنة من الله ومحـمد الـنبى رسول الله ليـحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيـارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله، وذمة مـحمد النبى، ومن كان معـهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر،فـمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بحر أوبر»[2].

وبهذا العـهد يكون محمـد - ﷺ - قد أمَّن لهم طريقهم فى البر وفى الـبحر، والعهد لم يشملهم وحدهم، بل شمـل من كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن، فكل هؤلاء لا يجـوز منعهم من سلوك أى طـريق من بر أوبحر، ويقع على عـاتق المسلمين حمايتهم.

سابعاً: معاهدة الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع ثقيف:[3]

رأينا فى القسم الخاص بغزوات الرسول - ﷺ - كـيف اجتمعت هوازن وثقيف لمحاربة المسلمين بحنين، وما أعقبه من حصار الرسول - ﷺ - لثقيف بالطائف ثم انصرافه - ﷺ - عنهم[4].

فلما انصرف عنهم رسـول الله - ﷺ - اتَّبع أثره عروة بن مسعود الـثقفى حتى

---

(1) ارجع إلى غزوة تبوك.

(2) سيرة بن هشام جـ 4 ص123

(3) انظر سيرة بن هشام جـ 4 ص301 وما بعدها، وصفوة السيرة - جـ 4 ص45 وما بعدها، وتاريخ الطبرى أحداث السنة التاسعة حـ 2 ص471 وما بعدها

(4) ارجع إلى غزوتى حنين والطائف.

أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله - ﷺ -: «إنهم قاتلوك» فرسول الله - ﷺ - كان يعرف أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم منذ دعاهم إلى الإسلام قبل الهجرة، فقال عروة: يارسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم.

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام، رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف على علّيّة له، وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله فتزعم بنو مالك أنه قتله رجل منهم، وتزعم الأحلاف أنه قتله رجل منهم.

بعد مقتل عروة أخذت الهيئة العليا لثقيف تتشاور لمدة شهر، ولمسوا الواقع المحيط بهم، فرأوا أن العرب قد أسلمت كلها، وأنهم ليس لهم طاقة بحربهم، وكان قرارهم النهائى أن يرسلوا إلى رسول الله - ﷺ - رجلاً، كما أرسلوا عروة بن مسعود، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وعرضوا ذلك عليه فأبى أن يفعل، وخشى أن يُصنع به - إذا رجع - كما صُنع بعروة، فقال لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك، فيكونوا ستة، فبعثوا معه: الحكم بن عمرو بن وهب بن مُعتِّب، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن مُعتِّب، ومن بنى مالك: عثمان بن أبى العاص، وأوس بن عوف، ونُميْر بن خَرشَة، فخرج بهم عبد ياليل، فكان هو رئيس الوفد، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود، لكى يشغل كل رهط منهم إذا رجعوا الطائف رهطه.

كانت ثقيف فى مفاوضاتها معاندة أشد ما يكون العناد، فأول ما سألوا رسول الله - ﷺ - سألوه أن يدع لهم الطاغية وهى اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله - ﷺ - ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها ولو للحظة واحدة، وقد أخبروا رسول الله - ﷺ - أنهم يريدون ذلك حتى يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم ويكرهون أن يُرَوِّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام.

وسألوه - ﷺ - أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال

رسول الله - ﷺ -: **«أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه»** فقالوا: يامحمد، فسنؤتيكها وإن كانت دناءة».

فكاتبوه على ذلك، واستأذنوه أن يسبقوا رسله إلى ثقيف، فلما جاءوا تلقوهم فسألوهم: ما وراءكم؟

فأظهروا الحزن وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف، يحكم ما يريد، وقد دوّخ العرب، قد حرم الربا والزنا والخمر، وأمر بهدم الربَّة (اللات).

فنفرت ثقيف وقالوا: لا نطيع لهذا أبدا.

فتأهبوا للقتال وأعدوا السلاح، فمكثوا على ذلك يومين أو ثلاثة كانت بهم حيرة، هل يقبلون هذا من رجل فظ غليظ يفرض على الناس هذا الدين بالسيف، أم يقاوموه ويحاربوه وهم قوم عناد، ولكن أعضاء الوفد الذى قدم من عند رسول الله - ﷺ - قام بحل المشكلة، وأخبروهم بالحقيقة، فقالوا: وجدناه - ﷺ - أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم، وقد بورك لنا فى مسيرتنا إليه وفيما قاضيناه عليه، فافهموا ما فى القضية واقبلوا عافية الله.

قالوا: فلما كتمتمونا هذا أولاً؟ قالوا: أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان. فأسلموا مكانهم.

وهذه الواقعة وإن دلت إنما تدل على أمر غاية فى الأهمية وهو أن الإسلام لا يمكن - كما يدعى الغرب - أن يكون قد انتشر بالسيف، فثقيف لم تكن لتسلم إذا وجدت من هذا النبى - ﷺ - غلظة، أو إكراه لهم فى أمرهم، حتى ولو كان لديهم اقتناع كامل بصدقه وبسماحة الدين الذى يدعو إليه - وبمجرد أن عرفوا حقيقة الأمر أسلموا مكانهم عن اقتناع تام وبلا أى إكراه حتى إن المغيرة بن شعبة ومعه من أرسله رسول الله - ﷺ - عندما قاموا بهدم أصنام ثقيف لم يتدخل أحد ولم يقاوم بل تركوا الباطل يهوى ليقوم الحق مقامه.

وجاء فى معاهدة رسول الله التى أبرمها معهم: [1].

1 - بسم الله الرحمن الرحيم.

---

(1) د. مصطفى الشكعة - البيان المحمدى - الدار المصرية اللبنانية ط1 - 1416 هـ - 1995م - ص 245, 244 وقد نقله من كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة - للدكتور محمد حميد الله - دار النفائس ص 283 .284

2 – هذا كتاب من محمد النبى رسول الله – ﷺ – لثقيف.

3 – إن لهم ذمة الله الذى لا إله إلا هو، وذمة محمد بن عبد الله النبى، على ما كتب لهم فى هذه الصحيفة.

4 – إن واديهم حرام محرم لله كله، عضاهه وصيده وظلم فيه أو إساءة[1].

5 – وثقيف أحق الناس بوج، ولا يعبر «طائفهم» ولا يدخله عليهم أحد من المسلمين يغلبهم عليه، وما شاءوا أحدثوا فى طائفهم من بنيان أو سواه بواديهم.

6 – ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يستكرهون بمال ولا نفس[2].

7 – وهم أمة من المسلمين، يتولّجون من المسلمين حيث ما شاءوا، وأين ما تولجوا ولجوا.

8 – وما كان لهم من أسير فهو لهم، هم أحق الناس به حتى يفعلوا به ما شاءوا.

9 – وما كان لهم من دِين فى رهن فبلغ أجَلُه فإنه لياط مبرأ من الله وما كان من دين فى رهن وراء عكاظ فإنه يقضى إلى عكاظ برأسه[3].

10 – وما كان لثقيف من دَين فى صُحُفهم اليوم الذى أسلموا عليه الناس فإنه لهم.

11 – وما كان لثقيف من وديعة فى الناس أو مال أو نفس غنمها مودعها أو أضاعها، ألا فإنها مؤداة.

12 – وما كان لثقيف من نفس غائبة أو مال فإن له من الأمن ما لشاهدهم، وما كان لهم من مال بليّة فإن لهم من الأمن مالهم بوج[4].

---

(1) عضاهه العضاه أعظم الشجر، أو كل ذى شوك بو ج   و ج واد بالطائف

(2) لا يحشرون لا يكلفون بالجهاد. ولا يعشرون: أى لا يدفعون ذكاة.

(3) اللياط الربا

(4) لية جبل بالطائف

13 - وما كان لثقيف من حليف أو تاجر فإن له مثل قضية أمر ثقيف.

14 - وإن طعن طاعن على ثقيف أو ظلمهم ظالم، فإنه لا يطاع فيهم فى مال ولا نفس، وإن الرسول ينصرهم على من ظلمهم والمؤمنون.

15 - ومن كرهوا أن يلج عليهم من الناس فإنه لا يلج عليهم.

16 - وإن السوق والبيع بأفنية البيوت.

17 - وإنه لا يؤمَّر عليهم إلا بعضهم على بعض؛ على بنى مالك أميرهم، وعلى الأحلاف أميرهم.

18 - وما سقت ثقيف من أعناب قريش فإن شطرها لمن سقاها.

19 - وما كان لهم من دين فى رهن لم يلط فإن وجد أهله قضاءً قضوا، وإن لم يجدوا قضاء فإنه إلى جمادى الأولى من عام قابل. فمن بلغ أجله فلم يقضه فإنه قد لاطه.

20 - وما كان لهم فى الناس من دين فليس عليهم إلا رأسه.

21 - وما كان لهم من أسير باعه ربه فإن له بيعه، وما لم يبع فإن فيه ست قلائص: نصفان حقاق وبنات لبون كرام يسمان.

22 - ومن كان له بيع اشتراه فإن له بيعه.

ومن استقراء بنود هذه المعاهدة نستطيع أن نعرف الكثير عن النظام السياسى فى الإسلام، فالبند الثالث عشر والذى جاء فيه«وما كان لثقيف من حليف أو تاجر فإن له مثل قضية أمر ثقيف» هذا النص يدل على سريان هذه المعاهدة على كل حلفاء ثقيف، ولهم أن يستفيدوا من نصوصها كما استفادت منها ثقيف، وكانت هذه وسيلة غير مباشرة لنشر الإسلام.

والبندين الرابع عشر «وإن الرسول ينصرهم على من ظلمهم والمؤمنون» والسابع عشر: «وإنه لا يؤمَّر عليهم إلا بعضهم على بعض»هذان البندان لهما أكبر دليل على أن الإسلام لم يحرم إقامة الدويلات الصغيرة، لتستقل بشئونها وتنظمها بالصورة الملائمة لظروفها، فلم يطلب منا الإسلام - وها هو الرسول - ﷺ - يوضح لنا -

أن تخضع كل الدول الإسلامية لحكم فرد، وأكثـر ما طلبه منا الإسلام أن نتحد بأى صورة كانت، سواء كان اتحاداً فيدرالياً كما سبق لنا الحديث عن أول دستور فى دولة الإسلام، أو أن نتـحد عند نشوب هـجوم على إحدى الدول الإسـلامية، فـها هو رسـول الله لا يؤمر على ثقـيف إلا بعـضهم على بـعض، وفى نفس الوقت يدافع عنهم إذا وقع عليهم عدوان «وإن الرسـول ينصرهم على من ظلمهم والمؤمنون» وإذا طبقنا ما قال به الرسول - ﷺ - لأصبحنا قوة عظمى فى هذا العالم، ولعل حرب 1973 قريبة، فقد شارك كل عربى بكل ما يملك، وكانت النتيجة مذهلة، فهل نحن ننسى أم نتناسى؟ فلنقرأ ولنتذكر، ولنطبق، والله معنا.

ثامنا: عهده - صلى الله عليه وسلم- لنصارى نجران[1]:

كانت سنة تسع من الهـجرة تسمى سنة الوفود؛ فلما افـتتح رسول الله - ﷺ - مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت وفدت إليه العرب من كل مكان، وكان من بين هذه الوفود وفد نصارى نجران.

وكان السبب فى قدوم وفد نجران على رسول الله - ﷺ - أنه كان قد كتب لهم كتاباً يدعـوهم فيه إلى الإسلام، فلمـا أتى الأسقف الكتاب فقـرأه فظع به وذعر به ذعراً شديداً، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شُرَحْبيل بن وداعة - وكان من همدان - ولم يكن أحد يُدعى إذا نزلت معضلة قبل شـرحبيل هذا، ولا حتى السيد ولا العاقب صاحبا نجران.

فدفع الأسقف كتاب رسول الله - ﷺ - إلى شُرحبيل فقرأه، فقال الأسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟ فقـال شرحبيل قد علمت ما وعد الله إبـراهيم فى ذرية إسماعيل من النبوة، فما تؤمن أن تكون هذا هو ذاك الرجل؟ ليس لى فى النبوة رأى ولو كان أمراً من أمور الدنيا لأشـرت عليك فيه برأى وجهدت لك. وظل الأسقف يسـتشير ذوى الرأى فلم يزيدوا شيئاً عن قول شرحبيل

(1) انظر: البداية والنهاية لابن كثير جـ 5 ص 70 وما بعدها، وصموة السيرة النبوية لابن كثير جـ 4 ص84 وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم لابن كثيـر - تفسير الآية الحاديه والستين من سورة آل عمران، وزاد المعاد لابن القيم جـ 1ص398 .

ويجتمع رأى أهل نجران على أن يبعثوا إلى رسول الله - ﷺ - وفداً على رأسه شرحبيل بن وداعة الهمدانى، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحى، وجبار بن فيض الحارثى ليأتوهم بخبر رسول الله - ﷺ -.

بدأت المفاوضات فسألهم وسألوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا: ما تقول فى عيسى، فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبياً أن نسمع ما تقول فيه. فقال رسول الله - ﷺ - : **«ما عندى فيه شىء يومى هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله فى عيسى»** فأصبح الغد وقد أنزل الله تعالى هذه الآيات: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾**[1] فلما أصبح رسول الله - ﷺ - الغد بعدما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملاً على الحسن والحسين فى خميل له وفاطمة تمشى عند ظهره للملاعنة تنفيذاً لأمر الله تعالى.

فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يَردُوا ولم يَصْدُوا إلا عن رأيى وإنى والله أرى أمراً ثقيلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً متقوياً فكنا أول العرب طعن فى عينه وردَّ عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وأنا أدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأى يا أبا مريم، فقال: رأيى أن أحكِّمه، فإنى أرى رجلاً لا يحكُم شططا أبداً، فقالا له: أنت وذاك.

فتلقى شرحبيل رسول الله - ﷺ - فقال: إنى قد رأيت خيراً من ملاعنتك، فقال: «وما هو؟» فقال: حُكمك اليوم إلى الليل، وليلتك إلى الصباح، فمهما

(1) آل عمران 59:61

«ثم نبتهل» أى نلتعن «فنجعل لعنة الله على الكاذبين» أى منا ومنكم بأن نقول اللهم العن الكاذب فى شأن عيسى

حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله - ﷺ -. «لعل وراءك أحداً يُثَرِّب[1] عليك؟» فقال شرحبيل: سل صاحبيّ. فقالا ما يرد الوادى ولا يصدر إلا عن رأى شرحبيل.

فرجع رسول الله - ﷺ - فلم يلاعنهم، وعقد معهم معاهدة، والأرجح أن المعاهدة لم تتضمنها وثيقة واحدة، بل كانت فى أكثر من وثيقة، وإليك نص الوثيقة الأولى من المعاهدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب محمد النبى رسول الله - ﷺ - لنجران، إن كان عليهم حكمه فى كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء ورقيق، فأفضل عليهم، وترك ذلك كله على ألفى حُلة، فى كل رجب ألف حلة، وفى كل صفر ألف حلة، يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً من كل صنف من أصناف السلاح، يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد أو غدرة».

أما الوثيقة الثانية فكانت للأسقف أبى الحارث ولأساقفة نجران بعده:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبى للأسقف أبى الحارث ولأساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم وكل ما تحت أيديهم من قليل وكثير جوار الله ورسوله، لا يغيَّر أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته، ولا يغيَّر حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا ما كانوا عليه من ذلك، جوار الله ورسوله أبداً ما أصلحوا ونصحوا عليهم، غير مبتلين بظلم ولا ظالمين. ولا يفتنوا عن دينهم مالم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا ربا».

وشهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بنى نصر، والأقرع بن حابس الحنظلى، والمغيرة بن شعبة.

وأهم ما فى هذه المعاهدة هو إقرار مبدأ حرية العقيدة، فكل قس وكل راهب يبقى على حاله، فلا هدم لبيع ولاصوامع ولا إجبار لأحد على الدخول فى

---

(1) يثرب يلوم

الإسلام، وقد ذكر ابن اسحق أن وفد نجران لما دخلوا المسجد النبوى فى تجمُّل وثياب حسان، وقد حانت صلاة العصر فقاموا يصلون إلى المشرق فقال رسول الله - ﷺ - «دعوهم» فانظر إلى أى مدى وصلت سماحة الإسلام، ودرجة التحضر التى جاء بها هذا الدين، فقد سمح لهم الرسول - ﷺ - بالصلاة فى المسجد النبوى، ولم يغضب، وكل هذا إعمالاً للمبدأ القرآنى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1].

تاسعا: عهد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لبنى الحارث بن كعب[2]:

بعث رسول الله - ﷺ - خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم.

هذا الخبر رواه ابن اسحق، ولنا عليه تعليق؛ فإخباره أن رسول الله - ﷺ - قد أمر خالداً أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام قبل أن يقاتلهم. . .إلخ: نقول هذا الخبر لا يتفق أبداً مع ما تقول به النظرية القرانية فى الجهاد والحرب ولا مع السبيل الذى كان يتبعه محمد - ﷺ - فرأينا أن القرآن قد أمر المسلمين بأن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، ورأينا أن الرسول - ﷺ - وقد كان خلقه القرآن - قد اتبع كل ما جاء به القرآن وطبقه على أرض الواقع، ولا يمكن أن يكون الرسول - ﷺ - قد أبرم أمراً يخالف ما جاءت به النظرية القرانية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد سبق ورأينا عند الحديث عن سرايا رسول الله - ﷺ - وبالأخص سرية على بن أبى طالب إلى اليمن، رأينا كيف أن خالداً ظل يدعوهم إلى الإسلام ستة أشهر، ولم يستجب له أحد، فأرسل رسول الله - ﷺ - علياً وأمر خالد بالعودة، ولم يأمره بقتل أحد رغم مرور أكثر من ستة أشهر وهو يدعوهم مرة واثنتان وعشرة، ولم يقاتلهم، وهذه السرية - كما ذكرنا - كانت فى شهر رمضان من السنة

---

(1) البقرة 256.

(2) انظر - سيرة بن هشام جـ 4 ص337 وما بعدها، وصفوة السيرة لابن كثير جـ 4 ص 120 وما بعدها، والبداية والنهاية لابن كثير جـ 5 ص99 وما بعدها، وتاريخ الطبرى - أحداث السنة العاشرة جـ 2 ص 481 وما بعدها

العاشرة، أى بعد بعث خالد إلى بنى الحارث، فلماذا لم يأمر خالد بقتالهم كما أمره بقتال بنى الحارث؟ أغلب الظن أن هناك جزء من هذه الرواية دخل فيه اجتهاد ابن اسحاق أو من نقل عنه.

نعود إلى باقى الخبر: خرج خالد حتى قدم عليهم، وأخذ خالد يدعوهم إلى الإسلام، فأسلموا ولم يقاوموا، فكتب خالد كتاباً لرسول الله - ﷺ - يعلمه الخبر، فكتب له رسول الله - ﷺ - يأمره بالقدوم إلى المدينة ومعه وفد بنى الحارث.

فأقبل خالد إلى رسول الله - ﷺ - وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب، فلما قدموا على رسول الله دار بينهم حوار طويل ذكره ابن اسحاق أذكر منه ما قاله لهم رسول الله - ﷺ -: **«لو أن خالداً لم يكتب إلىَّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم»**.

لنا هنا تعليق آخر على هذا الخبر، فكما كررنا أكثر من مرة أن رسول الله - ﷺ - لم يكن أبداً ليخالف النصوص القرانية، وقد أمره الله تعالى: بأن يجادل الكفار بالتى هى أحسن، يقول تعالى: **﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾**[1] فكيف يأمره الله سبحانه وتعالى بمجادلة الكفار بالتى هى أحسن، ويُغلظ الرسول - ﷺ - على من جاءه مسلما؟ هذا التناقض يدعونا إلى رفض هذه الرواية.

كان وفد بنى الحارث يضم كل من: قيس بن الحصين بن يزيد ذى الغصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجل، وعبد الله بن قريظ الزيادى، وشداد بن عبد الله القنانى، وعمر بن عبد الله الضبابى وقد أمَّر رسول الله - ﷺ - عليهم رجل منهم (قيس بن الحصين) وكان هذا نهجه - ﷺ - وهو فى سبيله لتكوين دولة الإسلام الفيدرالية ثم كتب - ﷺ - لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها

(1) النحل 124

ويعلمهم السُنة ويأخذ صدقاتهم، فكتب له كتاباً وعهداً وأمره فيه أمره، وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(1) عهداً من رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن.

أمره بتقوى الله فى أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوه والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويُعلِّم الناس القرآن ويفقههم فى الدين، وأن ينهى الناس فلا يمسّ أحد القرآن إلا وهو طاهر، وأن يخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم، ويلين لهم فى الحق ويشتد عليهم فى الظلم، فإن الله حرم الظلم ونهى عنه فقال: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾(2) وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويستألف الناس حتى يتفقهوا فى الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه وما أمره الله به، والحج الأكبر الحج، والحج الأصغر العمرة.

وأن ينهى الناس أن يصلى الرجل فى ثوب واحد صغير إلا أن يكون واسعاً بين طرفيه على عاتقيه، وينهى أن يحتبى الرجل فى ثوب واحد ويُفضى بفرجه إلى السماء، ولا ينقض شعر رأسه إذا عفى فى قفاه، وينهى الناس أن كان بينهم هيج أن يدعو إلى القبائل والعشائر، وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى العشائر والقبائل فليعطفوا بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له.

ويأمر الناس بإسباغ الوضوء، وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين وأن يمسحوا رءوسهم كما أمرهم الله عز وجل وأمروا بالصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود وأن يغلس بالصبح وأن يهجر بالمهاجرة حتى تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس فى الأرض مُبدرة، والمغرب حين يُقبل الليل لا تؤخر حتى تبدو النجوم فى السماء، والعشاء أول الليل.

---

(1) المائدة 1

(2) هود 19

وأمره أن يأخذ من المغانم خُمس الله ما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار سقى العين وفيما سقت السماء العُشر، وما سقى الغَرْب[1] فنصف العشر، وفى عَشر من الإبل شاتان وفى عشرين أربع شياه، وفى أربعين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة جَذع أو جذعة، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة فإنها فريضة الله التى افترض على المؤمنين، فمن زاد فهو خير له.

ومن أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً من نفسه فدان دين الإسلام، فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يغيَّر عنها، وعلى كل حالم ذكر أو أنثى أو عبد دينار واف أو عوضه من الثياب، فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله ورسوله، ومن منع ذلك فإنه عدو الله ورسوله والمؤمنين جميعاً.

صلوات الله على محمد، والصلاة والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

إلى هنا ينتهى نص هذا العهد، ويلاحظ أن معظم بنوده قد تركزت على توضيح تعاليم الإسلام التى سيسير عليها الداعية عمرو بن حزم وهو فى سبيله إلى نشر الدعوة بين أهل اليمن وتفقيههم فى الدين، أما الجانب السياسى فى هذا العهد فيبدو جلياً فى إقرار مبدأ حرية العقيدة فلا يجبر أحد على اعتناق دين الإسلام، فإسلامنا لا يعرف نظام محاكم التفتيش الأندلسية، ويتضح إقرار هذا المبدأ فى قوله: «ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يغير عنها» فلكل شخص الحرية الكاملة فى أن يعتقد ما يشاء فالثواب له والإثم عليه، ولا يستطيع أحد الادعاء بأن مبدأ حرية العقيدة منسوخ فى الإسلام إعمالاً لرأى ضعيف فى الفقه يقول بنسخ قول الله تعالى: ﴿لا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2] فإن هذا العهد الذى ذكرناه حالاً هو آخر عهود رسول الله - ﷺ - ولم يأت رسول الله - ﷺ - بفعل يؤكد عكس هذا، حتى لو ظهر حديث هنا أو هناك يثير فى الذهن القول بالنسخ فإنه لا يمكن العمل به، وذلك لأن الأدنى (الحديث) لا يمكن أن ينسخ الأعلى (القرآن الكريم) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن آيات الله تعالى لا يمكن أن يلحقها النسخ، والله أعلم.

---

(1) الغرب الدلو. (2) البقرة. 256.

الفصل الثانى

كتب الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الملوك

اتسمت رسالة الإسلام بالعالمية، فمداها لم يقتصر على حيز جغرافى معين، أو على عنصر بشرى دون الآخر، وبمعنى آخر لم يرسل محمد - ﷺ - برسالة الإسلام ليبلغها فى شبه الجزيرة العربية فقط، ولم يرسل ليبلغ رسالته للعرب ويتجاهل ما عداهم، فهى ليست رسالة عرقية، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] ويقول جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[2] ومن ثم كان لزاماً على محمد - ﷺ - تنفيذاً لأمر ربه - أن ينطلق بهذه الرسالة خارج حدود الجزيرة العربية، وأن ينشر تعاليمها فى الآفاق، ولكن كان عليه - ﷺ - أن يختار الوقت المناسب، فهو لا يأمن رد فعل من يصل كتابه إليه، وقد سبق ورأينا كيف تعرض الكثير من الدعاة للهجوم والقتل أثناء قيامهم بنشر الدعوة، على كل حال وجد محمد - ﷺ - الفرصة سانحة بعد أن استتب له الأمر بالمدينة عقب إبرامه لمعاهدة الحديبية، تلك المعاهدة التى تم فيها الاتفاق على مهادنة قريش ووقف القتال لمدة عشر سنين، وهنا بدأ محمد - ﷺ - يبث رسله إلى الملوك، حاملين إليهم الدعوة إلى الشريعة السمحة، فأرسل حاطب بن أبى بلتعة من لخم حليف بنى أسد إلى المقوقس، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى، ودحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر، وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى، وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى.

وسنعرض لهذه الكتب باعتبارها إحدى الوسائل السلمية لنشر الدعوة، على أن نعرض أولاً لكتاب رسول - ﷺ - ليهود خيبر يدعوهم إلى الإسلام عقب دخوله المدينة.

---

(1) الأنبياء 107.

(2) سبا: 28.

أولاً ـ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر:

كان اليهود أعلم الناس بنبوة محمد ﷺ، فهو موجود فى كتبهم بأوصافه واسمه والزمن الذى يبعث فيه، وكان رسول الله ﷺ يحدوه الأمل فى إسلام هذه الشريحة الكبيرة التى ـ إن حسن إسلامها ـ ستكون قوة لا يستهان بها إلى جانب الأنصار من الأوس والخزرج، ولعل هذا الأمل ترسخ فى نفس محمد ﷺ عقب إسلام عبد الله بن سَلاَم، وكان من أحبار اليهود وعلمائهم، ويروى عبد الله بن سَلاَم قصة إسلامه عقب وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة فيقول:

لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له، فكنت مسرًا لذلك، صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقُباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل بها، وعمتى خالدة ابنة الحارث تحتى جالسة، فلما سَمْعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كَبَّرْت، فقالت لى عمتى تحين سمعت تكبيرى: خيَّبك الله!! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت، فقلت لها: أى عمة هو الله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعِثَ بما بعث به، فقالت: أى ابن أخى، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم، فقالت: فذاك إذًا.

ثم خرجت إلى رسول لله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامى من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن يهود قوم بهت وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنه، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامى فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى، فأدخلنى رسول الله - ﷺ - فى بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم قال لهم: «أى رجل الحصين بن سلام فيكم؟» قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبْرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يامعشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوارة باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بى، فقلت لرسول الله - ﷺ - ألم

أخبـرك يارسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غـدر وكذب وفجور؟ وأظهـرت إسلامى وإسلام أهل بيتى وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها[1].

ولا عجب فى إنكار اليهود لنبوة محمد - ﷺ - فقد أنكروا من قبل نبوة عيسى عليه السـلام، فيروى ابن اسحـاق أن نفراً منهم أتوا رسول الله - ﷺ - فـسألوه: عمن يؤمن به من الرسل ، فقال - ﷺ -: **«نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسـحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى مـوسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون»** فلما ذكر عـيسى ابن مريم جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى بن مريم، ولا بمن آمن به[2].

على كل حال، يكتب رسول الله - ﷺ - كتاباً إلى يهود خيبر يدعوهم فيه إلى الإسلام، أملاً منه فى أن يرجع أحبارهم إلى جـادة الصواب، وينطقون كلمة الحق، وجاء فى نص الـكتاب: **«بسم الله الرحمن الرحـيم، من محمـد رسول الله - ﷺ - صاحب مـوسى وأخيه، والمصـدق لما جاء به موسى، ألا إن الله قـد قال لكم يامعـشر أهل التوارة، وإنكم لتجدون ذلك فى كتابكم: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيـظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ الـلَّهُ الَّذِيـنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3] وإنى أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قـبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذى أيبس البحـر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعـمله إلا أخبرتمونى هل تجـدون فـيمـا أنزل الله عليكم أن تؤمـنوا بمحمـد، فـإن كنتم لا تجـدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم قد تبين الرشد من الغى، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه»**[4].

---

(1) سيرة ابن هشام: جـ 2ص122 .

(2) المصدر السابق جـ 2 ص178 .

(3) الفتح: 48 : 29.

(4) سيرة ابن هشام: جـ 2 ص157

فى هذا الكتاب تطبيق كامل لما جاءت به النظرية القـرآنية من مبادىء فيما يخص الدعوة، وأول هذه المبـادىء المجادلة بالتى هى أحسن فهـا هو رسول الله - ﷺ - يذكرهم أولاً بنبيـهم، وأنه أخيه، وأنه يصدق بما جاء به مـوسى، وبعد ذلك يقول لهم: «إنى أنشدكم الله» فلا يوجـد أسلوب أدق وأعذب من هذا فى الدعوة إلى الله عز وجل، أما المبـدأ الثانى الذى يتضح لنا جليـاً من هذا الكتاب فيتمـثل فى حرية العقيدة ويتضح من قوله - ﷺ -: «فلا كره لكم» ولم يقل سأقاتلكم وسأقتلكم إذا لم تؤمنوا بى، فالإسلام ينبذ العنف ولا يلجأ إلى القـوة إلا للدفاع فقط، كما سبق وأوضحنا فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

ثانيا: كتابه - صلى الله عليه وسلم إلى قيصر:

بعث رسول الله - ﷺ - هذا الكتاب مع دحيـة الكلبى، وكان فيه: «**بسم الـله الرحمن الرحيم، من محمـد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهـدى، أمـا بعـد، فإنى أدعـوك بدعـوة الإسـلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجـرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**[1] و: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[2،3]

وهذا الكتاب يدل على التـزام محمد - ﷺ - بما جاءت به النظريـة القرآنية فى

(1) إثم الأريسـيين: الأريسيـون هم الأكـارون اى الفلاحـون والزارعون؛ ومـعناه أن عليك إثم رعـاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب، ولأنهم الأسرع إنقياداً فإذا أسلم أسلموا، وإذا امـتنع امتنعوا، ومن هذا المعنى قـول الله تعالى ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (العنكبوت 13). (2) آل عمران: 64.

(3) انظر - زاد المعاد جـ 2 ص 46 وتاريخ الطبرى - أحداث السنة السادسة - جـ 2 ص 437 ، والبداية والنهاية - جـ 4 ص 362، وصفوة السيرة - جـ 3 ص 219 ، وصحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة آل عمران - باب : قل ياأهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء، وصحـيح مسلم - كتاب الجهاد - باب كتاب النبي - ﷺ - إلي هرقل يدعوه إلي الإسلام. وانظر كذلك: الاكتفاء فى مغازى الرسول والثلاثة الخلفاء - لأبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسي - جـ 2 ص 4 .

الجهاد، فلم يقل - ﷺ - إلى هرقلٍ فقط، بل أتـى بنوع من الملاطفة فقال: «عظيم الروم» أى الذى يعظمونه ويقدمونه، وقـد أمر الله تعالى بإلانة القول لمن يُدعى إلى الإسلام فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيـلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾[2].

ومن الطريف أن يحضر أبو سفيان بن حرب واقعة وصول كتاب رسول - ﷺ - إلى هرقل قيصر الروم، وكان هذا قبل أن يسلم، يروى أبو سـفيان خبر هذه الواقعة فيـقول: «أنطلقت فى المدة التى كانـت بينى وبين رسول الله - ﷺ -[3] فـبـينا أنا بالشام إذ جىء بكـتاب من رسول - ﷺ- إلى هرقل، وكـان دحية الكـلبى جاء به فدفعـه إلى عظيم بُصرى[4] فدفعه عظيم بصـرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل ههنا أحـد من قوم هذا الرجـل الذى يزعم أنه نبى؟ قـالوا: نعم. فدعـيت فى نفـر من قريش، فـدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فـقال: أيكم أقرب نسـباً من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فـقلت: أنا، فأجلسـونى بين يديه، وأجلسوا أصـحابى خلفى، ثم دعا بترجمانه، فقال له: قل لهم: إنى سائل هذا عن الرجل الذى يزعم أنه نبى؛ فإن كذبنى فكذبوه، فـقال أبو سفيان: وأيم الله لولا مـخافة أن يؤثر على الكذب لكذبت، ثم قـال لترجـمانه: سله كـيف حسبـه فيكم؟ قلت: هو فـينا ذو حسب، قال: فهل كان من آبائه ملك؟قلت: لا، قـال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقـول ما قال؟ قلت: لا، قـال: ومن يتبعـه أشراف الناس أم ضعـفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قـال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: لا بل يزيدون. قال: هل يرتد أحـد منهم عن دينه بعـد أن يدخل فـيـه سَخطة له؟ قلت: لا، قـال: فـهل قاتلتمـوه؟ قلت: نعم قال: فكيف كان قتـالكم إياه؟ قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً، يصـيب منا ونصيب منه. قال: فهل يغـدر؟ قلت: لا، ونحن منه فى مدة

(1) النحل 125.

(2) طه 44,20.

(3) يعنى مدة الصلح يوم الحديبية.

(4) عظيم بُصرى: وهى مـدينة حوران ذات قلعة وأعـمال قريبـة من طرف البرية التى بالشام والحـجاز، والمراد بعظيم بصرى أميرها

(صلح الحديبية) لا ندرى ما هو صانع فيها. فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه. قال: فهل قال هذا أحداً من قبله؟ قلت: لا فقال هرقل لترجمانه: قل له: إنى سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث فى أحساب قومها، وسألتك: هل كان فى أبائه ملك؟ فزعمت أن لا فلو كان من آبائه ملك لقلت: رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاوهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب ليكذب على الله، وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، . وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فلو قال هذا القول أحد قبله لقلت: رجل أئتم بقول قيل قبله. قال: بما يأمركم؟ قلت: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف، قال: إن يكن ما تقول فيه حقاً فإنه نبى، ولقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أنى أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمى، ثم دعا بكتاب رسول الله - ﷺ - فقرأه، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، فقلت لأصحابى حين خرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة[1]، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله - ﷺ - أنه سيظهر حتى أدخل الله علىَّ الإسلام»[2].

---

(1) امِر امر ابن ابي كبشة: أمر بفتح الهمزة وكسر الميم اى عظم وأما قوله: ابن أبي كبشة فقيل: هو رجل من خزاعة كان يعبد الشعرى ولم يوافقه احد من العرب فى عبادتها فشبهوا النبي - ﷺ - به لمخالفته إياهم فى دينهم كما خالفهم أبو كبشة.

(2) انظر فى حديث أبي سفيان: تاريخ الطبرى - جـ 2 ص 337 ، البداية والنهاية جـ 4 ص 364 ، وصفوة السيرة جـ 3 ص 216 ، وصحيح مسلم وصحيح البخاري كما هو موضح بالمصادر السابقة، وانظر كذلك السيرة النبوية لابن حبان ص 165 ، والاكتفاء فى مغازى رسول الله - جـ 2 ص 5 وما بعدها.

بعد ذلك خلا هرقل بدحية الكلبى وقال: إنى لأعلم أن صاحبكم نبى مرسل، وأنه الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا، ولكن أخاف الروم على نفسى ولولا ذاك لاتبعته، ولكن اذهب إلى ضغاطر الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم وانظر ماذا يقول، فجاء دحية وأخبره مما جاء من رسول الله - ﷺ - إلى هرقل وبما يدعوا إليه، فقال ضغاطر: صاحبك والله نبى مرسل: نعرفه بصفته ونجده فى كتابنا باسمه، ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداء ولبس ثياباً بيضاً ثم أخذ عصاه وخرج على الروم وهم فى الكنيسة فقال للروم: إنه قد أتانا كتاب من أحمد يدعوا فيه إلى الله، وأنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وضربوه حتى قتلوه، فرجع دحية إلى هرقل وأخبره الخبر، قال: قلت لك: إنا نخافهم على أنفسنا فضغاطر كان والله أعظم عندهم وأحوز قولاً منى[1].

كانت الهيمنة فى هذه الفترة ولفترات طويلة بعدها لرجال الدين، الذين كان فى إمكانهم حشد الجيوش لمحاربة هرقل نفسه، ولولا هذا النفوذ اللامحدود لأسلم هرقل ولا تبعه كثيرون، ولتبدل الحال غير الحال، فرغم أن رجال الدين كانوا على يقين بصدق رسالة محمد - ﷺ - إلا أنهم فضلوا الحفاظ على نفوذهم، ذلك النفوذ الذى كانوا سيفقدونه حتماً لو نطقوا بكلمة الإسلام، فكانت كلمتهم فى هذا الموقف واليهود سواء.

أراد هرقل أن يخرج من هذا الموقف بأقل الخسائر، فكتب إلى رسول الله - ﷺ - إنى مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله - ﷺ - : «كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية» وقسم الدنانير[2].

ثالثا: كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى(*):

١ - الهجرة إلى أرض الحبشة:

ذكرنا فى موضع سابق شدة ما لاقاه المسلمين من تعذيب وتنكيل إبان دعوة

(1) تاريخ الطبرى جـ 2ص438 ، وسيرة ابن حبان ص 168.

(2) زاد المصادر -جـ 1 ص40 .

* النجاشى لقب لكل من ملك الحبشة، وقيصر لقب من ملك الروم وكسري لقب لكل من ملك من ملوك الفرس، وخاقان لكل من ملك الترك، ومن ملك القبط فرعون، ومن ملك اليمن تبع ، ومن ملك حمير القيل بفتح القاف، ويقال: أن القيل أقل درجة من الملك. انظر صحيح مسلم بشرح النورى جـ 7 ص 21.

الرسـول - ﷺ - بمكة، فلمـا وجـد الـرسـول - ﷺ - هذا البـلاء الذى يحـيط بأصحابـه، والذى أدى إلى فتنة بعضهم سـمح لهم باللجوء السياسى، فـقال لهم: **«لو خرجـتم إلى أرض الحبشـة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحـد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»**[1].

فكان هذا أول لجوء سياسى فى الإسلام، وكـان فى رجب فى السنة الخامسة من البعثة، وقـد حاولت قريش منع المسلمين من هذه الهجـرة بكل ما أوتيت من قوة، ولكنهم لم يدركوا هدفهم.

وتروى لنا أم سلمة زوج النبى - ﷺ - جانباً من أحداث هذه الهجرة فتقول: لما نزلنا أرض الحـبشة جـاورنا بها خـير جار النجـاشى، أمنًّا على ديننا، وعـبدنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جليدين، وأن يهـدوا للنجاشى هدايا مما يُستطرف من متاع مكة.. ولم يتركوا من بطارقـته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثـوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وقالوا لهـما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فـيهم، ثم قدما إلى النجاشى هداياه، ثم سـلاه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم[2].

بدأ عمرو وعبـد الله بن ربيعة فى تنفيذ المهمة، ودعا الـنجاشى المسلمين، فتكلم جعفر بن أبى طالب وقال خيراً، ثم تلا عليه جزءاً من سورة مريم فبكى النجاشى، وتفشل أول محاولة لتسليم المهاجرين.

يحاول عمرو مـحاولة أخرى، فيخبر النجاشى إنهم يقـولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً، ويسألهم النجاشى: ماذا تقولون فى عـيسى بن مريم؟ فيقول جعفر بن أبى طالب: نقول فـيه الذى جاءنا به نبـينا - ﷺ -: هو عبد الله ورسـوله وروحه وكلمته ألقـاها إلى مريم العذراء البتـول، فضرب النجاشى بيـده إلى الأرض فأخذ

---

(1) سيرة ابن هشام - جـ 1 ص164 .

(2) سيرة ابن هشام -- جـ 1 ص 161 وما بعدها.

منها عـوداً ثم قال: والله مـا عدا عيـسى ابن مريم مـا قلت هذا العود، فـتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله[1].

يجدد النجاشى عهده للمهاجرين فيقول: اذهبوا فأنتم شيوم (آمنون) بأرضى، من سبَّكم غرم، ثم قام برد الهدايا.

كان الـنجاشى - فى هذا الموقف - أشـجع من هرقل، حيث لم يـهتز لغـضب رجال الدين ولم يلتفت لغضبهم، وكاد أن يعلن إسلامه أمامهم، ولكن يبدو أنه آثر الانتظار حتى تهدأ الأمـور، فأسلم بقلبه ولم يعلنها بلسـانه أو كان ينتظر أن يدعوه أحد إلى اعـتناق هذا الدين الجديد، وقـد يُقال: لماذا لم يدعوه أحـد من هاجر إلى الحبشـة؟ والجواب على ذلك غاية فى البساطة، فـمن ناحية خشى المهاجـرون هيبة النجاشى، فـهم قد يخسرون كل شىء إذا ثار عليـهم، ومن ناحية آخـرى كان أمر الرسول - ﷺ - لهم هو طـلب اللجود السيـاسى فقط وليس دعـوة النجاشى إلى الدين الجديد، وهذا المطلب الأخير هو الذى طلبه محمد - ﷺ - من النجاشى فى كتابه إليه على ما سنرى حالاً.

2 - نص الكتاب:

بعث رسول الله - ﷺ - عـمرو بن أمـية الضـمرى إلى النجاشى بـكتاب وهذا نصه:

«بسم الله الرحـمن الرحيم، من مـحمـد رسـول الله إلى النجاشى الأصـحم ملك الحبشـة، سلم أنت، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو المـلك القدوس السلام، المؤمن المهيمن، وأشـهد أن عيسى بن مـريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مـريم البتول الطيبة الحـصينة، فحملت بعيسـى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كـما خلق آدم بيده، وأنى أدعـوك إلى الله وحده لا شـريك له، والموالاة على طاعتـه، وأن تتبـعنى وتؤمن

(1) المصدر السابق.

بالذى جاءنى، فـإنى رسول الله، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عـز وجل، وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

لم يكن دور عمرو بن أمية رسول رسول الله مجرد دوراً سلبياً أو هو لم يرتض أن يكون دوره مجـرد تسليم الكتاب دون أن يلعب دوراً إيجابيـاً فى هداية النجاشى إلى نور الحق، فدار بينهما هذا الحوار:

قال له عمرو: يـا أصحمة![2] إن على القول وعليك الاستـماع، إنك كأنك فى الرقـة علينا، وكأنا فى الثـقة بك منـك، لأنا لم نظن بك خيـراً قط إلا نلناه، ولم نخفـك على شىء قط إلا أمناه، وقد أخـذنا الحجـة عليك من فيك، الإنجـيل بيننا وبينك شاهد لا يُرَد، وقـاض لا يجور، وفى ذلك موقع الحز وإصـابة المفصل وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى كـاليهود فى عـيسى بن مريم، وقـد فرق النبى - ﷺ - رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر.

فقال النجاشى: أشهـد بالله أنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى يراكب الحـمار، كبشارة عـيسى براكب الجمل، وأن العيـان ليس بأشفى من الخبر[3].

3 - كتاب النجاشى إلى رسول الله -ﷺ-:

ثم كتب النجاشى جواب كتاب النبى - ﷺ - :

«بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسـول الله من النجاشى أصحمة. سلام عليك يانبى الله ورحـمة الله وبركـاته، من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعـد: فقد بلغنى كتابك يارسـول الله، فيما ذكرت من أمـر عيسى،

---

(1) انظر زاد المعاد - جـ 2 ص47 ، وتاريخ الطبرى - احداث السنة السادسة - جـ 2 ص438 ، والسيرة النبوية لابن حبان - ص 168، والاكتفاء فى مغارى الرسول - جـ 2 ، ص 12.

(2) أصحمة: هو اسم النجاشى الذى ملك الحبشة آنذاك، ومعناه بالعربية عطية.

(3) زاد المعاد - جـ 2ص48 .

فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقاً[1] إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لك رب العالمين، وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يارسول الله»[2].

ليس بغريب أن يكون كتاب رسول الله - ﷺ - إلى أصحمة النجاشي بهذه العذوبة، وهذا اللين، فالرجل آوى المسلمين وقت شدتهم، وقام بحمايتهم، ورفض تسليمهم إلى قريش، فكان من الطبيعي أن يكتب الكتاب بهذه الصورة، فبدأه - ﷺ - بتحية النجاشي «سلم أنت» و «إني أحمد إليك الله.» لأن الرسول - ﷺ - كان على علم تام بأن الرجل رقيق المشاعر، يخلو قلبه من التعصب الأعمى، يسمع الرأى الآخر، ولا يأخذ عقائده مأخذ المسلمات، كل هذا فطن إليه محمد - ﷺ - منذ أرسل أصحابه إلى أرض الحبشة، وحتى بعثه لعمرو بن أمية إليه ليدعوه إلى الإسلام.

4 - الخلاف حول إسلام النجاشي:

يرى كثير من الباحثين أن النجاشي قد أسلم بمجرد تسلمه كتاب رسول الله - ﷺ - وفى هذا يقول الدكتور مصطفى الشكعة[3]: «أما النجاشي الذى نحن بصدده هنا فاسمه «أصحمة» وإن كانت بعض المصادر قد ذكرته باسم الأصحم، إن «أصحمة» لم يكد يتسلم كتاب رسول الله - ﷺ - الذى يحمله إليه الصحابى الجليل عمرو بن أمية الضمرى حتى سارع إلى إعلان إسلامه، والإيمان بالله ربا واحداً لا شريك له، وبمحمد نبياً صادقاً ورسولاً هادياً، وسجل أصحمة إسلامه فى كتاب حافل بالمودة، مترع بدفء الإيمان، بعث به رداً على دعوة الرسول الله - ﷺ له بالإسلام.

(1) الثفروق: علاقة ما بين النواة والقشر.

(2) انظر زاد المعاد جـ 2 ص49 ، وتاريخ الطبرى - جـ 2ص 339 ، والسيرة النبوية لابن حبان ص 169

(3) البيان المحمدي - مصدر سابق - ص 124، 125

ويضيف الدكتور مصطفى الشكعة: لقد فزع المستشرقون المحدثون من إسلام النجاشى، فلم يجرأوا على إنكاره، وإنما مالوا إلى استبعاد أن يسلم بهذه السرعة، وقد ساقوا هذا الاستبعاد على سبيل الاستنتاج لا على سبيل التقرير، وأوردوا فى ذلك حججاً واهية، واستنتاجات مريضة.

ويضيف سيادته: وإذا كان مثل هذه الافتراءات على ثوابت الأحداث الإسلامية غير مستغربة من كثير من هذه الطائفة من الدراسين الغربيين، فإن الأدهى من ذلك والأمرّ أن تصدر هذه الترهات من دارسين مسلمين نقلاً عن المستشرقين، وبدون الرجوع إلى المصادر الثبتة، والمراجع العربية الصادقة، الأمر الذى دفع بكاتب مسلم مجاهد هو اللواء محمود شيث خطاب أن يعطى هذا الأمر عناية خاصة، فأصدر كتيباً قيماً بعنوان «إسلام النجاشى» يرد فيه على بحث بعنوان «الرسائل التى بعث بها النبى إلى ملوك الدول المجاورة» نشرته مجلة الفيصل العدد 55 فى المحرم 1402 هـ وفيه تورط كاتبه نقلاً عن المستشرقين فى إنكار إسلام النجاشى، وبالتالى إنكار الكتاب الذى أعلن فيه اعتناقه الإسلام رداً على كتاب رسول الله - ﷺ - إليه. انتهى كلام الدكتور مصطفى الشكعة.

بداية نقول - فى الرد على كل ما سبق - أن إسلام النجاشى «أصحمة» قولاً واحداً - لا جدال فيه، ولا سبيل إلى إنكاره، وهذا النجاشى هو الذى صلى عليه النبى حين مات، فعن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - نعى للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه فخرج بهم إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - صلى على أصحمة النجاشى فكبر عليه أربعاً. وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ -: **«مات اليوم عبد لله صالح أصحمة»** فقام فأمنا وصلى عليه[1] وبالطبع، فالرسول - ﷺ - لن يصلى على غير مسلم، وفى هذا دليل قاطع على أن النجاشى قد أسلم، ودليل كذلك على أن النجاشى الذى صلى عليه الرسول - ﷺ - هو نفسه النجاشى «أصحمة» الذى دعاه

(1) صحيح البخارى: كتاب الجنائز - باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه، وباب التكبير على الجنازة أربعاً، وصحيح مسلم: كتاب الجنائز - باب فى التكبير على الجنازة.

- ﷺ - إلى الإسلام، ولا يمكن الأخذ بحديث قتادة عن أنس «أن النبى - ﷺ - كتب إلى كسرى، وإلى قيصر وإلى النجاشى، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبى - ﷺ -»[1] وذلك لأن هناك روايتين فى صحيح مسلم خاليتين من العبارة الأخيرة «وليس بالنجاشى الذى صلى عليه النبى - ﷺ -» وهنا يوجد شك، ومن السهل الانتقال منه إلى اليقين، ففى رواية جابر ذكر أن النجاشى الذى صلى عليه الرسول - ﷺ - اسمه «أصحمة» وفى المصادر التاريخية التى ذكرت كتاب رسول الله - ﷺ - إلى النجاشى ذكرت أن اسمه «أصحمة» أو «الأصحم»، فلن ندع كل هذه الروايات ونأخذ برواية وحيدة شككت فى صحتها روايتين عن نفس الرواى (عن أنس عن قتادة» وإن اختلف من نقل عنه، فالرواية التى تساندها باقى الروايات وتساندها الوقائع التاريخية هى الأولى بالقبول.

هذا من ناحية إسلام النجاشى، أما من ناحية توقيت إسلامه، فنجد أن كثيراً من الباحثين - مسلمين أو مستشرقين - قد انتهوا إلى أن النجاشى لم يكد يتسلم كتاب رسول الله - ﷺ - حتى سارع بإعلان إسلامه. ،هذه النتيجة جعلت المستشرقين يشككون فى إسلام النجاشى أو يتعجبون من إسلامه بهذه السرعة. نقول بداية لهؤلاء الباحثين أنهم وقعوا فى خطأ مرجعه أنهم قد تناولوا هذه الواقعة وتدراسوها، وقاموا بتحليلها بصورة مجردة عن باقى الوقائع، ولو أنهم قد نظروا إلى هذه الواقعة فى سياق واحد مع غيرها من الوقائع التى تخص موضوع البحث لما انتهوا إلى هذه النتيجة، وقد نبهنا إلى هذه المنهجية فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب.

والآن لكى نصل إلى الحقيقة علينا أن نرجع - فيما يخص الموضوع - إلى نقطة البداية، وهى أن الإسلام قد دخل الحبشة - مع من هاجروا إليها - فى السنة الخامسة من البعثة، وبعض هؤلاء المهاجرين أقام بالحبشة حتى السنة السابعة من الهجرة إبان فتح خيبر، فجعفر بن أبى طالب قدم على رسول الله - ﷺ - يوم فتح

---

(1) صحيح مسلم - كتاب الجهاد - باب كتب النبى - ﷺ - إلي ملوك الكفار يدعوهم إلي الإسلام.

خيبر، فقبَّل رسول الله - ﷺ - بين عينيه، والتزمه، وقال: «ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[1] هذا وقد قدم مع جعفر خمسة عشر رجلاً من مهاجرى الحبشة.

وبعملية حسابية بسيطة نجد أن هؤلاء المهاجرين وصلوا إلى أرض الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة، والرسول - ﷺ - استمرت دعوته بمكة ثلاث عشرة سنة، وكتاب الرسول - ﷺ - إلى النجاشى كان بعد صلح الحديبية، ووصول فوج المهاجرين ومعهم جعفر بن أبى طالب كان فى السنة السابعة من الهجرة، أى أن هؤلاء المهاجرين قد مكثوا بالحبشة حتى وصول الكتاب - قرابة أربع عشرة سنة، وفى خلال هذه الفترة ناقشهم النجاشى مرات ومرات فى أمور دينهم، وعن كل ما يتعلق برسالة محمد - ﷺ - لعل أقوى هذه المناقشات والمناظرات تلك التى جرت بعد وصول عمرو بن العاص إلى الحبشة ليرد هؤلاء المهاجرين إلى قريش، وفى هذه المناظرة قال النجاشى - عقب سماعه آيات من سورة مريم- وقد انتابته حالة من البكاء: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[2] وقال فى عيسى ما قال به القرآن.

وهذه الواقعة تبرز لنا بوضوح أن النجاشى كان مهيأ تمام التهيؤ لاعتناق الإسلام، فهو على يقين أن هذا النبى هو الذى بشر به عيسى عليه السلام، وأن صفته مذكورة فى الإنجيل، لذلك فمن الأرجح إنه - والوضع كما سلف بيانه - قد أسلم قبل أن يصل إليه كتاب رسول الله - ﷺ - بسنوات، ولكنه لم يشأ أن يعلن إسلامه حتى لا ينقلب عليه شعبه، وإنه كان يتحين الفرصة لإعلان إسلامه أمام الجميع، وقد جاءت له الفرصة عند وصول كتاب رسول الله - ﷺ - ولم يتوان عن استغلالها وأعلن إسلامه أمام الجميع، وكاد أن يفقد مُلكه فى هذه اللحظة بل وكان هو على استعداد أن يفقده فى سبيل إعلان كلمة الحق ويروى لنا ابن اسحاق لحظة إعلان النجاشى- إسلامه أمام الجميع فيقول:

(1) سيرة ابن هشام - جـ 3 ص172 .

(2) سيرة ابن هشام - جـ 1 ص173 .

اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقت ديننا، وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فهيأ لهم سفناً؛ وقال: اركبوا فيها، وكونوا كما أنتم، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعل الكتاب فى قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة وصفّوا له، فقال: يامعشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتى فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما لكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم فى عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن الله، فقال النجاشي ووضع يده على قبائه (حيث يوجد الكتاب): هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئا، وإنما يعنى ما كتب، فرضوا، وانصرفوا فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له(1).

ونستطيع أن نخرج من هذه الرواية بعدة نتائج:

- مدى الشجاعة التى كان يتحلى بها النجاشى، وموقفه هذا جاء مغايراً تماماً لموقف هرقل الذى آثر السلامة، ولم يشأ أن يقف فى وجه رجال الدين.
- إن النجاشى عندما وقف فى وجه هؤلاء المتمردين - وهم كثر - لم يكن وحده، ولكن كان معه من يناصرونه، ويقفون بجانبه إيماناً منهم بعدالة القضية التى يدافع عنها، ومعنى ذلك أنهم مسلمون، وهذا إن دل إنما يدل على أن النجاشى قد أسلم - ومن فترة طويلة - قبل أن يصل إليه كتاب رسول الله - ﷺ -، بل وكان معه الكثير من الأنصار المسلمين الملتفين حوله وكانوا على أتم الاستعداد أن يبذلوا دمائهم حتى يبقى الإسلام بالحبشة، وعلى ذلك فإسلام النجاشى - ومن معه - لم يكن وليد اللحظة التى قرأ فيها كتاب الرسول - ﷺ - وهذا يزيل تعجب المستشرقين، ولينقلوا تعجبهم إلى موضع آخر.

(1) سيرة ابن هشام - جـ 1ص175

- إن النجاشى (أصحمة) هو النجاشى الذى استقبل المسلمين وقت أن هاجروا إلى الحبشة، وهو نفسه الذى تسلم كتاب رسول الله - ﷺ - وهو الذى صلى عليه رسول الله - ﷺ - واستغفر له، ولا شك فى هذا.

وأخيراً ننبه - وسنظل ننبه - بضرورة أخذ الروايات التاريخية بمنتهى الحذر، ولا نأخذها مأخذ الحقائق المسلَّم بها، فالكتب التاريخية لم ولن تكن أبداً كتباً منزلة، وبالتالى ليس لزاماً علينا أن نأخذ ما جاء بها بلا تحليل ولا مناقشة، وعلينا عند تحليل أى واقعة من تلك الوقائع التى جاءت بها كتب التراث، علينا ألا نحللها بصورة مجردة، ولكى ينبغى علينا تحليلها فى سياق باقى الوقائع، فالتاريخ كل لا يتجزأ ويجدر بنا أن نشير - كما سبق وأشرنا - إنه عند تناول أحداث السيرة المحمدية العطرة يجب علينا أن نضع أمام أعيننا أحكام القرآن الكريم، وأى حدث فى السيرة يتنافى مع ما جاء به القرآن فيجب أن نبحث فى سبب تلك المغايرة، فإن لم نجد سبب، فعلينا طرح الحدث برمته، منعاً من الوقوع فى تناقضات تاريخية أو شرعية.

رابعا: كتابه صلى عليه وسلم إلى المقوقس:

المقوقس هو لقب لملك مصر والإسكندرية، واسمه جريج بن مينا القبطى، وقد بعث رسول الله - ﷺ - إليه بالكتاب مع حاطب بن أبى بلتعة، وهذا نصه(1):

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم القبط ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(2).

وبعد أن أنزل المقوقس حاطباً فى منزله، بعث إليه وقد جمع بطارقته وقال: إنى

(1) زاد المعاد - جـ 2 ص50 ، والاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء - جـ 2 ص14 .

(2) آل عمران: 64.

سائلك عن كلام أحب أن تفهم عنى، أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى؟ قال: بلى هو رسول الله، قال: فماله كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ فقال حاطب: عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟ قال: بلى، قال حاطب: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه، ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه إلى السماء الدنيا؟ فقال المقوقس: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم.

فقال حاطب: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى (يقصد فرعون) فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك. فقال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعك إلى دين الله، وهو الإسلام الكافى به الله فقد ماسواه، إن هذا النبى دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوارة إلى الإنجيل، وكل نبى أدرك قوماً فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبى، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به، فقال المقوقس: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء، والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبى - ﷺ - فجعله فى حق من عاج، وختم عليه، ورفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله - ﷺ-:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك» ولم يزد على هذا ولم يسلم[1].

(1) انظر - صفوة السيرة النبوية - جـ 3 ص224 ، وزاد المعاد: حـ 3 ص51 .

والجاريتـان أحداهما مـارية القبطيـة، وقد أسلمت فى الطريق قـبل الوصول إلى رسول الله - ﷺ - وقد تسرى بها رسول الله - ﷺ - وولدت له ابنه إبراهيم، أما الأخرى فهى سيرين، وقد وهبـها رسول الله - ﷺ - لحسان بن ثابت، فولدت له عبـد الرحمن بن حـسان، أمـا البغلة دُلدُل فـقد عـاشت إلى زمن معـاوية بن أبى سفيان.

وبنظرة سريعـة على هذا الكتاب نجد أنه جاء مطابقـاً لكتاب رسول الله - ﷺ - الذى بعث به إلى قيصـر، وأنه جاء مليئاً بالقول اللين والموعظة الحسـنة، وموافقاً لما جاءت به النظرية القرآنية فى شأن الدعـوة ، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيـلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] ويقـول جل شأنه فى شإن الدعوة لأهل الكتاب خاصة: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] ومن الجميل أن نرى رسول رسـول الله - ﷺ - (حاطب بن أبى بلتعة) يلتزم بنفس النـهج المحمدى، وناظر المقـوقس وخاطبه بلين الخطاب، حـتى قال له المقوقس: أنت حكيم قد جاء من عنـد حكيم، وهذا يوضح لنا مدى دقة رسول الله - ﷺ - فى اخـتـيـار رسله، وكل ذلك جـعل المـقـوقس لا يملك إلا أن يرد رداً حسناً، ويُحمِّـل حاطب بن أبى بلتـعة بالهدايا إلى رسـول الله - ﷺ - وهو على يقين أنه نبى مـرسل، ولكن نظرته الضيقة جـعلته لا ينظر إلا لكرسى الملك، وكل همه أن يظل هذا الكرسى ثابتاً لا يهـتز من تحته، منتهجاً فى ذلـك نفس نهج قيصر الروم.

خامسا: كتاب النبى - صلى الله عليه وسلام إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى:

كان الغساسنة - ملوك العرب بالشام - يديـنون بالنصرانية ، وكانوا حرباً لرسول الله - ﷺ - ولم يكونوا يديرون شـئـون إمـارتهم بصـورة مسـتـقلة؛ وإنما كـانت

---

(1) النحل: 125.

(2) العنكبوت: 46.

سيادتهم ناقصة نظراً لتبعيتهم السياسية لقيصر الروم، وإن شئنا الدقة لقلنا أنهم كانوا معينون من قبل قيصر لإدارة شئون الإمارة، وكانوا دائموا التأليب لقيصر على رسول الله - ﷺ - ، ويودون لو أنه أرسل جيوشه لمحاربته، أو على الأقل كان لديهم الرغبة فى استصدار أمر منه لمحاربة الرسول - ﷺ - وكان هو على علم بذلك، لذا سنجد أن كتابه لهم كان به شيء من الخشونة على عكس ما كان يكتب به لأهل الكتاب.

بعث رسول الله - ﷺ - كتابه إلى المنذر بن الحارث بن أبى شمر الغسانى مع شجاع بن وهب، وكتب فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر : سلام على من أتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك»(1).

نجد أن عبارات الكتاب قد جاءت لينة، مثلها فى ذلك مثل باقى الكتب التى بعث بها - ﷺ - إلى أهل الكتاب، ولم تظهر الخشونة إلا فى الجملة الأخيرة من الكتاب «يبقى لك ملكك» وهى جملة توضح عظمة السياسة المحمدية، فالحارث بن أبى شمر كان على عداء تام مع أمة الإسلام آنذاك، وكان موقفه على ما أوضحنا سلفاً؛ فوجد محمد - ﷺ - أن هذا الرجل لا يصلح معه أسلوب الترغيب وحده، ولكن يجب أن يكون بجانبه ما يرهبه، فأعلمه بهذه الجملة القصيرة أن المسلمين قادرون على أن يبيدوا له ملكه، فإن لم يُسلم فعلى الأقل يتقى المسلمون شره.

ويروى لنا شجاع بن وهب قصته مع هذا الكتاب فيقول:

فانتهيت إليه (يعنى الحارث بن أبى شمر) وهو فى غوطة دمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف لقيصر، وهو جاء من حمص إلى إيلياء، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إنى رسول رسول الله - ﷺ - إليه، فقال لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه - وكان رومياً اسمه مرى - يسألنى عن رسول الله - ﷺ - وكنت أحدثه عن رسول الله - ﷺ - وما يدعوا إليه،

(1) تاريخ الطبرى آحداث السنة السادسة جـ 2 ص 438 ، وزاد المعاد - جـ 2 ص 50 . والاكتفاء فى مغازى الرسول - جـ 1 ص 24

فيرق حتى يغلب عليه البكاء، ويقول: إنى قرأت الإنجيل، فأجد صفة هذا النبى بعينه، فأنا أؤمن به وأصدقه، فأخاف من الحارث أن يقتلنى وكان يكرمنى، ويحسن ضيافتى، وخرج الحارث يوماً فجلس فوضع التاج على رأسه، فأذن لى عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله - ﷺ - فقرأه ثم رمى به، فقال: من ينتزع منى ملكى، وقال: أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته، علىّ بالناس، وأمر بالخيل أن تنعل. ثم قال: أخبر صاحبك بما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره خبرى، فصادف قيصر بإيلياء وعنده دحية الكلبى قد بعثه إليه رسول الله - ﷺ -، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه: أن لا تسر إليه واله عنه ووافنى بإيلياء، ورجع الكتاب وأنا مقيم، فدعانى وقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غداً فأمر لى بمائة مثقال ذهب، ووصلنى حاجبه مرى بنفقة وكسوة، وقال: اقرأ على رسول الله منى السلام، واخبره أنى متبع دينه. قال شجاع: فقدمت على النبى - ﷺ - فأخبرته، فقال: «باد ملكه»، وأقرأته من مرى السلام، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله - ﷺ: «صدق»(1).

سادسا: كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى:

وكسرى هذا هو أبرويز بن هرمز آنوشروان، ومعنى أبرويز المظفر، وكان مجوسياً يعبد النار.

كان حامل الكتاب إلى كسرى هو عبد الله بن حذافة السهمى، ونص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر: ﴿مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(2) أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس(3).

---

(1) زاد المعاد - جـ 1 ص559 . (2) يس : 70 .

(3) انظر- زاد المعاد- جـ 2 ص46 ، وتاريخ الطبرى جـ 2 ص439 ، وصفوة السيرة - جـ 3 ص221 ، والاكتفاء فى مغازى الرسول - جـ 2 ص10

فلما قرىء الكتاب عليه مزقه، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ -، فقال: «مزق الله ملكه».

نرى أن الكتاب فى محتواه لم يختلف كثيراً عن كتب رسول الله - ﷺ - السابق ذكرها، فعلى الرغم من أن كسرى لم يكن من أهل الكتاب، ولم يعتقد فى وحدانية الله سبحانه وتعالى وربوبيته، إلا أن محمداً - ﷺ - ألان له الخطاب، إعمالاً لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] فخاطبه - ﷺ - بعظيم فارس، وجاء الكتاب برمته على درجة عالية من الدبلوماسية، إلا أن كسرى كان فظاً غليظ القلب، فلم يجد نور الإسلام له منفذاً إلى هذا القلب الذى ختم الله تعالى عليه؛ فأبى إلا أن يعيش فى الظلام الحالك متعبداً فى بيوت النار، تلك النار التى أحرقت له قلبه حتى غدا لا يفقه الخطأ من الصواب، فتكبَّر وتجبَّر.

لم يكتف كسرى بهذا، ولكنه كتب إلى «باذان» عامله على اليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به.

فبعث باذان قهرمانه ويدعى بابويه - وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس - وبعث معه رجل من الفرس يقال له: خرخسره، وكتب معهما إلى رسول الله - ﷺ - يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: أئت هذا الرجل، وكلمه، وأتنى بخبره، فخرجا حتى قدما على رسول الله - ﷺ - فكلمه بابويه، فقال: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثنى إليك لتنطلق معى، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت مهلكك، ومهلك قومك، ومخرب بلادك، فقال لهما: **ارجعا حتى تأتيانى غداً**، وأتى رسول الله - ﷺ - الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله، فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدرى ما تقول؟! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا؛ أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك؟ قال: **نعم أخبراه ذلك عنى، وقولا له: إن دينى**

(1) النحل: 125.

وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء، ثم أعطى خرخسره منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإنى لأرى الرجل نبياً كما يقول ولننظرن ما قد قال فلئن كان هذا حقاً ما فيه كلام، إنه لنبى مرسل وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا.

فلم ينشب بإذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: «أما بعد فإنى قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم فى ثغورهم، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك تُهِجْه حتى يأتيك أمرى فيه».

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول. فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن. وكان قتل شيرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى من سنة سبع لست ساعات مضيت منها.

ويقال: أن الخبر أتى باذان بمقتل كسرى وهو مريض، فاجتمعت إليه أساورته، فقالوا: من تؤمر علينا، فقال لهم: ملك مقبل وملك مدبر، فاتبعوا هذا الرجل، وادخلوا فى دينه واسلموا، ومات باذان فجاء وفدهم إلى رسول الله - ﷺ - يعرفونه بإسلامهم(1).

والرسول - ﷺ - أعطانا- من خلال الواقعة السابقة - درساً هاماً من دروس السياسة الخارجية، وهو أن تُحدِّث عدوك بنفس لهجته، فكسرى أرسل من يأتيه برسول الله - ﷺ - وكأن الأمر غاية فى البساطة، فإذا كان كسرى لم يؤمن بأن محمداً - ﷺ - نبياً مرسلا، إلا أنه كان عليه الا يغفل أنه رئيساً لدولة الإسلام، وأنه من هذا المنطلق كان عليه أن يخاطبه بطريقة تحفظ له هيبته كرئيس دولة، إلا أن جبروته قد صور له أن قد ملك الدنيا وما فيها، وأن كل أوامره مطاعة، وأن ذراعه

---

(1) تاريخ الطبرى أحداث السنة السادسة - جـ 2 ص440 ، وصفوة السيرة النبوية - جـ 3 ص221 وما بعدها.

الطويلة تستطيع الوصول لأى بقعة من بقاع الأرض، ولكن الرسول - ﷺ - أنزله على أرض الواقع، وقال لرسوله: «إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى.. وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك» وكان قول رسول الله - ﷺ - كاف أن يبث الرهبة فى قلب كسرى، وذلك على عكس ما إذا كان قد خاطبه بلهجة لينة، فتلك اللهجة كانت ستجعل كسرى يستمر فى جبروته، وكان سيتيقن أن المسلمين ما هم إلا لقمة سائغة يستطيع أن يبتلعها فى أى وقت شاء.

وما أشبه اليوم بالأمس، فالمتتبع لما هو جارى من أحداث على الصعيد الدولى، سيجد أن أمريكا تتكلم بنفس اللهجة الكسروية، منطق القوة، وهذه اللهجة توجه بصفة خاصة، وبغزارة للعرب والمسلمين، فنجدها تنصر هذا، وتعادى ذاك، تنحى زعيم، وتثبت آخر، تأمر هذا، وتنهى هذا، ونحن لا حول لنا ولا قوة، نسمع، ونطيع، تحتل أرضنا ولا نتحرك فما لنا لا نستخدم منطق رسول الله - ﷺ - علينا أن نُحدِّث أمريكا بنفس لهجتها، وكونوا على ثقة إن هذا سيجعل هذا المارد يهتز هزة عنيفة تجعله يفكر ألف مرة قبل أن يقبل على أمر فيه امتهان لكرامتنا، ولكن وقبل أن نفعل هذا، علينا أولاً بتوحيد مواقفنا، وتوحيد كلمتنا، حتى تنطلق مدوية، فى آذان لا تسمع إلا لصوتها.

سابعاً - كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى العبدى:

كان المنذر بن ساوى ملك البحرين، وكان ولاؤه لكسرى، وكان يدين بالمجوسية، وكان بجانب المجوس يوجد بعض اليهود، وقد بعث إليه رسول -ﷺ- بكتاب يدعوه فيه إلى دين الإسلام، وكان حامل الكتاب هو العلاء بن الحضرمى، وكان فيه: **«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنه من صلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، واستقبل قبلتنا، فإنه مسلم، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، ومن أبى فعليه الجزية»**[1].

---

(1) تاريخ الطبرى - أحداث السنة الثامنة - جـ 2 ص447 . وقد ذكر الطبرى فى أول الكتاب هذه العبارة: «.. فإن كتابك جاءنى ورسلك..» ويبدو أن الطبرى قد خلط بين الكتاب الأول الذى أرسله رسول الله - ﷺ - إلى المنذر، وبين الكتاب الثانى الذي رد به ﷺ على كتاب المنذر، والذي سنعرض له حالاً.

يلعب العلاء بن الحضرمى نفس الدور الإيجابى الذى يقوم به رسل رسول الله - ﷺ - فهو مبعوث دبلوماسى لا يقتصر دوره على مجرد توصيل الرسالة المكتوبة، ولكنه يحاور ويجادل من أجل نشر رسالة الحق، وكل ذلك - بلا شك - بتوجيه من محمد - ﷺ- يقول الحضرمى للمنذر بن ساوى:

إنك عظيم العقل فى الدنيا، فلا تصغرن من الاخرة، إن هذه المجوسية شر دين، ليس فيها تكرم العرب، ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يستحى من نكاحه، ويأكلون ما يتكرم عن أكله، ويعبدون فى الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأى، فانظر: هل ينبغى لمن لا يكذب أن تصدقه، ولمن لا يخون أن تأتمنه، ولمن لا يخلف أن تثق به، فإن كان هذا هكذا فهو هذا النبى الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه، إن كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر.

فقال المنذر: قد نظرت فى هذا الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت فى دينكم فوجدته للآخرة والدنيا، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرفضه، وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله، وسأنظر.

بعد هذه المناقشة القصيرة والمقنعة، لم يشعر المنذر إلا ونور الإسلام يتسلل إلى قلبه، ويقهر الظلام من بين جوانحه، فكتب إلى رسول الله - ﷺ -:

أما بعد: يارسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث إلىَّ فى ذلك أمرك[1].

فكتب إليه رسول الله - ﷺ - كتاباً آخر يرد فيه على هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام

(1) زاد المعاد - جـ 2 ص50 .

عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشـهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد، فإنى أذكـرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلى، ويتبع أمرهم، فقد أطاعنى، ومن نصح لهم، فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعـفوت عن أهل الذنوب فـاقبل منهم، وإنك مـهما تصلح، فلـن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»(1).

أسلم المنذر بن ساوى، وأحسن إسلامـه، فلما توفى رسـول الله- ﷺ - توفى المنذر بعده بفترة قصيرة، فلمـا مات ارتد أهل البحرين وملكوا عليهم الغرور، وهو المنذر بن النعمان بن المنذر ، فكانت فتنة الردة فتنة عظيمة على أهل الإسلام، ولكن الخليفة الأول أبو بكر استطاع أن يعبر بالمسلمين إلى بر الأمان، وقد ذكرنا طرفاً من حروب الردة فى موضع سابق.

ثامناً: كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى ملكى عمان:

كانت مملكة عمـان يقوم على أمرها أخوان همـا جيفر وعبـد، ويبدو أن السلطة كانت مقسمـة بينهما، ولكل منهما اختصاصه، لذا خـاطبهما الرسول - ﷺ - فى كتابه - معاً مقدماً الأخ الأكبر (جيفر) على الأصغر (عبد)، وكان الكتاب عبارة عن صحيفة أقل من الشبر، كتبه أبى بن كعب، وختمه محمد - ﷺ -، وكان المبعوث هذه المرة هو داهية العرب عمرو بن العاص، وكـان هذا فيما ذكر الواقدى فى السنة الثامنة من الهجرة، وجاء فى الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عـبد الله إلى جيفر، وعبد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهـدى، أما بعد: فإنى أدعـوكما بدعاية الإسلام، أسلمـا تسلما، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر ﴿مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(2) وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيـتما أن تقرا بالإسلام، فإن ملككما زائل عنكما، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما»(3).

---

(1) المصدر السابق انظر كذلك: الاكتفاء فى مغازى الرسول - جـ 2 ص17 وما بعدها.

(2) يس : 70.

(3) زاد المعاد - جـ 2 ص49 ، والاكتفاء فى مغازى الرسول - جـ 2 - ص 18.

وقد يتعجب البعض أن الكتاب جاء بإسلوب الإنذار على عكس ما عهدناه فى كتب رسول الله - ﷺ - وفى حقيقة الأمر، فإن محمداً- ﷺ - كان يعلم أن الأمر فى عمان ليس مسئولية جيفر وحده ولكنه كان يشاركه فى الأمر أخوه الأصغر عبد، وهذا الأخير وإن كان رقيق القلب سريع الفهم مقدراً للعواقب، فعلى العكس كان أخوه الأكبر جيفر، فقد كان معانداً مكابراً، ويبدو أنه بصفته الأخ الأكبر كان رأس الأمر بيده لابيد الأخ الأصغر، لذا جاء الخطاب بهذه اللهجة، حتى يعلم جيفر أن من يخاطبه قوى، ويستطيع الوصول إليه فى أى وقت، ولن يهمه طول المسافة الفاصلة بينهما، وذلك حتى يفكر أكثر من مرة قبل أن يرفض دين الإسلام، إذن فهذه اللهجة كانت مجرد وسيلة غايتها دخول هذان الملكان فى الإسلام، ذلك الأمر الذى كان محمد - ﷺ - يحبه للعرب جميعهم بصفة خاصة ولكل البشر بصفة عامة.

ويروى لنا عمرو بن العاص قصته مع هذين الملكين وما دار بينهما من حوار فيقول:

خرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها، عمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إنى رسول رسول الله - ﷺ - إليك، وإلى أخيك، فقال: أخى المقدم علىَّ فى السن والملك (يقصد جيفر)، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعوا إليه؟قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: ياعمرو إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك، فإن لنا فيه قدوة؟ قلت: مات ولم يؤمن بمحمد - ﷺ -، وودت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام، قال:فمتى تبعته؟ قلت قريباً، فسألنى أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشى، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم، قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم، قال: انظر ياعمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب، قلت: ما كذبت وما نستحله فى ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى، قلت: بلى قال: بأى شىء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشى يخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدق

بمحمد - ﷺ -، قال: لا والله، لو سألنى درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له نياق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً، ويدين ديناً محدثاً؟ قال هرقل: رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول ياعمرو، قلت: والله صدقتك.

قال عبد: فاخبرنى ما الذى يأمر به، وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنى، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذى يدعوا إليه، لو كان أخي يتابعنى عليه، لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً. قلت: إنه إن أسلم ملّكه رسول الله - ﷺ - على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم، فردها على فقيرهم، قال: إن هذا الخلق الحسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله - ﷺ - من الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل، قال: ياعمرو: وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر، وترد المياه؟ فقلت: نعم. فقال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم، وكثرة عددهم يطيعون بهذا.

قال عمرو: فمكثت ببابه أياماً، وهو يصل إلى أخيه، فيخبره كل خبرى، ثم إنه دعانى يوماً، فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعى، فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعونى أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه كتاباً مختوماً، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته، إلا إنى رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ قلت: تبعوه. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال، فما أعلم أحداً بقى غيرك فى هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه، يوطئك الخيل ويبيد خضراءك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال. قال: دعنى يومى هذا، وارجع إلى غداً.

فرجعت إلى أخيه فقال: ياعمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه، حتى

إذا كان الغد، أتيت إليــه، فأبى أن يأذن لى، فانصرفت إلى أخيه، فـأخبرته أنى لم أصل إليه، فـأوصَلنى إليه، فقـال: إنى فكرت فيمـا دعوتنى إليه، فـإذا أنا أضعف العــرب إن ملكت رجلاً مـا فى يدى، وهو لا تبلغ خـيله هاهنا، وإن بلغت خـيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لاقى. قلت: وأنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجى، خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما قد ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلــى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصـدقا النبى - ﷺ - وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لى عوناً على من خالفنى[1].

واضح من الحوار السابق مدى الذكاء الذى يتمتع به عمرو بن العاص، فهو يعلم جيداً أبعاد المهمة التى أرسله فيها رسول الله - ﷺ - ويعلم كذلك من هما الملكين الذين يحاورهمـا، فحاور أصغـرهما وأرقهمـا بلين القول، وحاور الكبيـر المتعنت بإسلوب الترغيب والترهيب، فأعلمه أن خيل رسول الله - ﷺ - ليست عنه ببعيدة كما صور له عقله، فكُتِبَ له ما أراد الله ورسوله، وخيراً فعل الملكان بإسلامهما.

تاسعاً: كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هوذة بن على:

هوذة بن على هو صاحب اليـمامة، تلك البقـعة التى تنبأ بها مسـيلمة الكذاب، وادعى أن الله سبحانه وتعالى قد أشركه مع محمد - ﷺ - فى النبوة.

كان المبعوث هذه المرة هو سليط بن عمرو، وجاء فى الكتاب:

«بسم الله الرحمن الـرحيم، من محـمد رسول الله إلى هوذة بن عـلى، سلام على من اتبع الهـدى، واعلم أن دينى سـيظهر إلى منتـهى الخف والحـافر، فـأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك»[2].

وذكر الواقدى أن سليطـاً لما قدم على هوذة بكتاب النبى - ﷺ - مخـتوماً أنزله وحـياه، واقـترأ عليـه الكتاب، فـرد رداً دون رد، وكتب إلى النبى - ﷺ -: مـا أحسن ما تدعـوا إليه وأجمله، وأنا شاعـر قومى وخطيبهم، والعـرب تهاب مكانى فاجعل إلى بعض الأمر أتبعك.

---

(1) انظر: المصدران السابقان.

(2) زاد المعاد - جـ 2 ص51، والاكتفاء فى مغازى الرسول - جـ 2 ص20.

وأجاز سليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبى - ﷺ -، فأخبره، وقرأ النبى - ﷺ - كتابه، فقال **«لو سألنى سبابة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما فى يديه»** فلما انصرف رسول الله - ﷺ - من الفتح، جاء جبريل عليه السلام، بأن هوذة قد مات فقال النبى - ﷺ -: **«أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ، يُقتل بعدى»** فقال قائل: يارسول الله، فمن يقتله؟ فقال له رسول الله - ﷺ -: **«أنت وأصحابك»** فكان من أمر مسليمة وتكذبه ما كان، وظهر المسلمون عليه فقتلوه[1].

ويروى أن سليط بن عمرو لما قدم على هوذة بكتاب رسول الله - ﷺ - وكان كسرى قد توَّجه - (لذلك كان يسمى ذو التاج)، قال له سليط: ياهوذة، إنه قد سودتك أعظم حائلة، وأرواح فى النار، وإنما السيد من متع الإيمان ثم زود التقوى، إن قوماً سعدوا برأيك فلا تشقين به، وإنى آمرك بخير مأمور به، وأنهاك عن شر منهى عنه، آمرك بعبادة الله، وأنهاك عن عبادة الشيطان، فإن فى عبادة الله الجنة، وفى عبادة الشيطان النار، فإن قبلت نلت ما رجوت وآمنت ما خفت، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهو المطلع.

فقال هوذة: ياسليط، سودنى من لو سودك شرفت به، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور فقدته، فموضعه من قلبى هواء، فاجعل لى فسحة يرجع إلى رأيى فأجيبك به إن شاء الله[2].

وذكر الواقدى: أن أركون دمشق - وهو عظيم من عظماء النصارى - كان عند هوذة فسأله: ما قرب محمد منكم؟ فقال: هو بيثرب، وقد جاءنى كتابه يدعونى إلى الإسلام فلم أجبه، قال الأركون: لم لا تجيبه؟ قال: ضننت بدينى، وأنا ملك قومى، وإن اتبعته لم أملك. قال: بلى، والله لئن اتبعته ليمكنك وإن الخيرة لك فى اتباعه، وإنه للنبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل: محمد رسول الله . قال هوذة: قد قرأت فى الإنجيل ما تذكر، ثم قال

---

(1) المصدران السابقان.

(2) الاكتفاء فى مغازى الرسول جـ 2 ص 12

الأركون: فمالك لا تتبعه؟ قال: الحسد له، والضن بالخمر وشربها، ثم سأله هوذة: فما فعل هرقل؟ قال الأركون: هو على دينه، ويظهر لرسله أنه معه، وقد سير أهل مملكته، فأبـوا أشد الإباء، فضن بملكه أن يفارقه، قـال هوذة: فما أرانى إلا متـبعه وداخـلاً فى دينه، فـأنا فى بيت العـرب، وهو مـقـرى على مـا تحت يدى. قـال الأركون: هو فاعل فاتبعه. فدعا رسولاً وكتب معه كتاباً، وسمى هدايا فجاءه قومه فقالوا: تتبع محمداً وتترك دينك، لا تملكن علينا أبداً، فرفض الكتاب[1].

لم يستجب هوذة لدعـوة محمد - ﷺ -، ولم يسمع لـكلام سليط بن عمرو، ولا لكلام الأركون، فقـاس الأمور بمقياس الدنيـا، واضعاً ملكه فى كفـة، وشهادة الحق فى الكفـة الأخـرى. فـرجـعت أمـامـه كـفة ملـكه، لأنه أراد أن تكون هى الراجحة، فبئس الميزان وبئس الوازن.

عاشراً: رد الرسول صلى الله عليه وسلام على كتاب مسيلمة الكذاب:

ذكرنا فى موضع سـابق دور مسليمة الكذاب فى إشعـال الفتن إبان ما يطلق عليه المؤرخون حروب الردة، تلك الحروب التى اشـتعلت فى زمن الخليفة الأول أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ولنلق الآن نظرة عن حـال مسيلمة فى حـياة الرسول - ﷺ -.

قال ابن اسحق: أتى وفـد بنى حنيفة رسول الله - ﷺ -، وخلَّفوا مـسليمة فى رحالهم، فلمـا أسلموا ذكـروا مكانه فقالوا: يارسـول الله إنا خلَّفنا صاحـباً لنا فى رحالنا وفى ركائبنا يحـفظها لنا، فأمر له رسول الله - ﷺ - بمثل مـا أمر به للقوم (وكان قد أمـر لكل واحد بخمس أواق من فـضة)، وقال: «**أمـا إنه ليـس بشـركم مكانا**» أى لحفظه ضيعة أصحابه، ذلك الذى يريده رسول الله - ﷺ.

ثم انصرفوا عن رسول الله- ﷺ - وجاء مـسيلمة بما أعطاه رسول الله - ﷺ - فلما انتهـوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبـأ وتكذب لهم، وقال: إنى أشركت فى الأمر معه.

---

(1) المصدر السابق - جـ 2 ص21، 22، 23 ، وانظر كذلك زاد المعاد - جـ 2 ص52

وقال لوفـده الذين كانوا مـعه: ألم يقل لكم حـين ذكرتمونى له: «أمـا إنه ليس بشركم مكانا» (وهى كلمـة مدح) ماذاك إلا لما كان يعلم أنى قـد أشركت فى الأمر معه.

ثم جعل يسجع لهم السجعات ويقول لهم فـيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق[1] وحشى.

ولم يكتف بذلك ولكنه أحل لهم الخمـر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع هذا يشهد لرسول الله - ﷺ - بأنه نبى[2].

وكانت بعض مساجد بنـى حنيفة باليمامة تقرأ القراءة التى علمـها لهم مسيلمة، والتى كـان يدعى أنهـا قـرآناً قـد أوحى به إليـه، وكـان من ضـمن مـا يقـرأون: والطاحنات طحناً والعـاجنات عجنا والخابزات خـبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقـمات لقما[3].

وهذا إن دل إنما يدل على استفحال أمر ذلك المتنبىء الكذاب باليمامة حيث اتبعه كثيرون وآمنوا به.

وكان مسيلمة قد تسمى بالرحمن، فكان يقال له رحمن اليمامة، وكان عمره يوم قتل مائة وخمسين سنة (وكان قتله فـى السنة الحادية عشرة من الهجرة) وكان يعرف أشياءً تشبه السحر، فكان يدخل الـبيضة فى القارورة وهو أول من فعل ذلك، وكان يقص جناح الطير ثم يصله، ويدعى أن ظبية تأتيه من الجبل فيحلب لبنها[4].

ويستفـحل أمر مسيلمة أكـثر وأكثر ويبدو أنه صـدق نفسه فيمـا ادعاه، حتى أنه كتب إلى رسول الله - ﷺ - كتاباً جاء فيه:

من مسليمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، فإنى قد أشركت فى الأمر معك،

---

(1) الصفاق: جلد البطن.

(2) انظر: الاكتفاء فى مغازى الرسول - جـ 1 ص635 ، وصفوة السيرة النبوية: جـ 4 ص80 ، وما بعدها، وتاريخ الطبرى جـ 2ص485 ,486.

(3) صفوة السيرة - جـ4 ص83 .

(4) المصدر السابق - ص 80

وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون، فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب، فقال لهما رسول الله - ﷺ -: **«فما تقولان أنتما؟»** قالا: نقول كما قال. فقال: **«أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»**، ثم كتب إلى مسليمة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسليمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده،و العاقبة للمتقين»[(1)].

والقارىء قد يظن لأول وهلة أن رسول الله - ﷺ - كان يود قتل الرجلين لولا أنهما رسولان - لأنهما قد ارتدا عن دين الإسلام، ولكن بإمعان النظر، نجد أن مسليمة، ومن اتبعه لم يكونوا مجرد مرتدين عن دين الإسلام فحسب، إذ لو صدق ذلك ما قال الرسول - ﷺ - للرسولين «..لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» ولكن هؤلاء جميعاً ابتغوا نشر الفتنة»، وتقويض أحكام الإسلام، بل والادعاء بنزول قرآن جديد على هذا الكذاب، فكانوا ينخرون فى أساس الدولة لهدمها، فتوافرت فيهم بذلك الشروط التى تجعل من قتالهم حقاً مشروعاً، كما أوضحنا سلفاً عند الحديث عن شروط، حرب المرتد، وهو ما فعله أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

حادى عشر: كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك حمير:

اعتمد محمد - ﷺ - فى نشر الدعوة الإسلامية على ثلاث وسائل: الأولى: بعثه للدعاة العارفين بأحكام الدين، وأصحاب الحجة البليغة كى يبلغوا عنه رسالة ربه، وقد تعرضنا لبعض هؤلاء فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب. والثانية تمثلت فى عقد المعاهدات، تلك الوسيلة التى كانت تسهل على المسلمين التنقل بين القبائل أطراف هذه المعاهدات، مما كان له أكبر الأثر فى نشر الدعوة. أما الوسيلة الثالثة فتمثلت فى كتب رسول الله - ﷺ - إلى الملوك تلك الكتب التى لعبت أعظم الأثر فى نشر الدعوة الإسلامية على نحو ما رأينا.

(1) تاريخ الطبرى - جـ 2 ص489 ، والاكتفاء فى مغازى الرسول - جـ 2 ص31 ، وصفوة السيرة - جـ 4 ص82 .

من نتاج هذه الوسائل الثلاث أقبلت الوفود على رسول الله - ﷺ - تقر بإسلامها، وتطلب المزيد من تعاليم هذا الدين ليستعينوا بها فى تنظيم مختلف شئون حياتهم.

وقد قدم أكثر هذه الوفود على رسول الله - ﷺ - فى سنة تسع حتى أن هذه السنة اصطلح على تسميتها بسنة الوفود، وفى الحقيقة كان لفتح مكة أكبر الأثر فى كثرة عدد الوفود، حيث رأوا أن ظهور الرسول - ﷺ - على قومه يعنى - بالنسبة لهم - أنه لامراء فى نبوته، ولكن علينا ألا نغفل أنه كان هناك من الوفود من قدم على رسول الله - ﷺ - قبل الفتح، ومن هذه الوفود وفد مصر الذى قدم على رسول الله - ﷺ - فى رجب سنة خمس.

ومن بين الوفود التى قدمت على الرسول - ﷺ - بعد الفتح رسل ملوك حمير بكتاب حملوه من هؤلاء الملوك بإسلامهم ومفارقتهم الشرك، فكتب لهم الرسول - ﷺ - كتاباً رداً على كتابهم يعلمهم فيه الكثير من أمور الدين، وكانت هذه هى عادته مع كل الوفود، وجاء فى الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قَيْل ذى رُعَين ومعافر وهَمْدان، أما بعد ذلكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة فبلَّغ ما أرسلتم به، وخبرنا ما قِبَلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه، وإن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خُمس الله وسهم النبى - ﷺ - وصفيه وما كتب على المؤمنين فى الصدقة، من العقار عُشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقى الغرب[1] نصف العُشر، وأن فى الإبل فى الأربعين ابنة لبون، وفى الثلاثين ابن لبون ذكر، وفى كل خمس من الإبل شاة، وفى كل عشر من الإبل شاتان، وفى كل أربعين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين تبيع جذع أو جذعة، وفى كل أربعين من

(1) الغرب الدلو

الغنم سائمة وحدها شاة، أنها فـريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له.

ومن أدى ذلك وأشـهـد على إسـلامـه وظاهر المؤمنين على المشـركـين فـإنه من المؤمنين له مالهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة رسوله، وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له مالهم وعليه ما عليهم.

ومن كان على يهوديته أو نصرانيتـه فإنه لا يُردُّ عنها، وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حـر أو عبد دينار واف من قـيمة المعافـر أو عوضه ثـابا، فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمه الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

أما بعـد فإن رسول الله مـحمداً النبى أرسل إلـى ذرعة ذى يزن: أن إذ أتاك رسلى فأوصيكم بهم خـيراً، معاذ بن جبل، وعـبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعـقبة بن نمر، ومـالك بن مرة وأصـحابهم، وأن اجـمعـوا ما عندكم من الصـدقة والجـزية من مخالفيكم وأبلغوها رُسلى، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً.

أما بعد، فـإن محمداً يشـهـد أن لا إله إلا الله وأنه عبده، ورسـوله، ثم إن مالك بن مرة قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته، وإنما هى زكاة يزكى بها على فقـراء المسلمين وابن السبيل، وإن مالكا قد بلَّغ الخبـر وحفظ فأمركـم به خيراً. وإنى قد أرسلت إلـيكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم، فآمركم بهم خيراً فإنهم منظور إليهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وحسـبنا هنا أن نشير ونؤكـد أن رسول الله - ﷺ -، وهو فى سبـيله إلى نشر الدعوة كان يؤكـد على مبدأ قرآنى هام، وهو «حـرية العقيدة» فلا يجـبر أحد على الدخول فى الإسلام فالإسلام قوى بأهله، وأهـله أقوياء به، فلا حاجة للإسلام إلى من يجبر على اعـتناقه، ولا حاجة للمسلمين إلى هؤلاء، وقـد أكد رسول الله على هذا المبدأ فى ذلك الكتاب حيث يقول «.. ومن كان على يهـوديته أو نصرانيته فإنه لا يُرّد عنها والرسول - ﷺ - فى هذا المقام - وكمـا سبق وأن كررنا أكثر من

مرة – إنما يطبق المبدأ القرآنى حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وقد ظل رسـول الله يؤكد على هذا المبدأ من بداية عـصر الرسالة إلى نهايتـه، وما ذكرناه فى هذا الكتاب كفيل بإثبـات هذه الحقيقة التى لا غبار عليها إلا فـيما يدعيه بعض المستشرقين وأعداء الإسلام الذين لم ولن تؤثر معاولهم الكسيحة فى هدم ذرة من هذا الجبل الشامخ، ذلك الجبل الذى ضـرب بجذوره اللينة فى قلوب المسلمين، وطعن بجذوره القـوية الصلبة فى صـدور وعقول أعـدائه، نسال الله العافـية، وأن يلهمنا الصواب.

تم بحمد الله تعالى منتـصف ليل يوم السبت ١١ يونية 2005 م الموافق جـمادى الأول 1425 هـ.

مصادر الكتاب

1 - الإسلام عقيدة وشريعة - الشيخ المرحوم/ محمود شلتوت شيخ الأزهر - القاهرة 1972.

2 - الإصابة فى تمييز الصحابة - أحمد بن على بن حجر العسقلانى - المتوفى سنة 744 هـ - القاهرة 1392 هـ - 1972 م.

3 - أصول الفقه - د. محمد فرحات - القاهرة 1998.

4 - الاكتفاء فى مغازى الرسول والثلاثة الخلفاء - لأبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى - الأندلسى - القاهرة 1387 هـ - 1978 م.

5 - الأم - محمد بن إدريس الشافعى - 150 - 204 هـ - بيروت 1393 هـ.

6 - بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع - علاء الدين الكاسانى توفى 587 هـ - بيروت 1982 هـ .

7 - البداية والنهاية - أبو الفداء اسماعيل بن كثير - المتوفى سنة 744 هـ - بيروت 1988.

8 - البيان المحمدى - د. مصطفى الشكعة - القاهرة - 1416 هـ 1995 م.

9 - تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبرى) لأبى جعفر بن جرير الطبرى (224 - 310) - بيروت - 1424 هـ - 2003 م.

10 - تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن كثير - القاهرة.

11 - الجامع لأحكام القرآن - (تفسير القرطبى) لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى - القاهرة.

12 - دستور أمة الإسلام (دراسة فى أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين) د حسين مؤنس - القاهرة 1998

13 - الديمقراطية الآثينية وسيادة القانون فى التوارة والإنجيل والقرآن - د. محمد بدر - القاهرة 1995.

14 - زاد المعاد فى هدى خير العباد - محمد بن أبى بكر المعروف بابن القيم الجوزية - المتوفى سنة 751 - القاهرة - 1999.

15 - زواج المتعة بين الإباحة والتحريم - صلاح أبو السعود - القاهرة 2004 .

16 - السيرة النبوية - لأبى محمد عبد الملك بن هشام المتوفى 213 هـ - القاهرة - 1990.

17 - السيرة النبوية وأخبار الخلفاء - أبو حاتم محمد بن حبان المتوفى سنة 354 هـ - القاهرة.

18 - صحيح البخارى - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى البخارى - (194 - 256 هـ) القاهرة.

19- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى (204- 261 هـ) القاهرة.

20 - صفوة السيرة النبوية - أبو الفداد إسماعيل بن كثير - القاهرة 1424 هـ - 2003 م.

21 - العهد القديم.

22 - لباب النقول فى أسباب النزول (مطبوع على هامش تفسير الجلالين) جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة 911 هـ - القاهرة.

23 - المنظمات الدولية - د. محمد العنانى - القاهرة 1995.

24 - مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازى.

25 - الموطأ - أبو عبد الله مالك بن أنس (95 -179 هـ) القاهرة.

26 - الوجيز فى النظم السياسية - د. محمد مرغنى خيرى - القاهرة - 1989.

الفهرس

الموضوعات | الصفحة